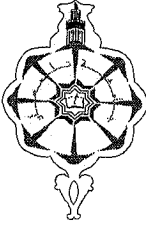


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -



كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص: القرآن الكريم والدراسات الأدبية

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات والأدبية
الموضوع:

جماليات الخطاب في سورة النور

تحت إشراف الدكتور:

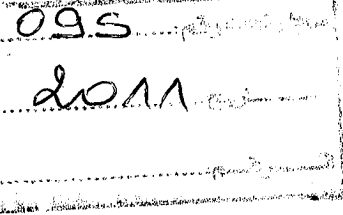
كريب رمضان



من إعداد الطالب:

نواصر سعيد

أعضاء لجنة المناقشة:



- أ.د: رضوان النجار، أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان رئيسا
د: كريب رمضان، أستاذ محاضر جامعة تلمسان مشرفا
أ.د: طول محمد، أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان عضوا
أ.د: زين الدين مختاري، أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان عضوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إهداء:

أهدي ثمرة عملي هذا، إلى:

- ✽ الذي قال فيه رب البرية: "وإنك لعلی خلق عظیم"
- ✽ من قال فيهما المولى عز وجل: "وبالوالدين إحساناً"
- ✽ الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"
- ✽ التي قال فيها روح الوجود صلى الله عليه وسلم: "الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة"...
- ✽ زهرة الحياة الدنيا وفنتتها، قال تعالى: "وَالْعَمَلُوا إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنْ اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ عَظِيمٌ".

- ✽ من قدم روحه فداء للوطن، إلى مجاهدي الأوراس الصغرى متلي الشاعنة
- ✽ أولياء الله الصالحين في جزائرنا الحبيبة، في كل مكان من ربوعها الطيبة
- ✽ أهل توات وتلمسان، وكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث...
- ✽ الخلان: الإخوة سي عمارة، سي بوزيان، سي عبد الرزاق...
- ✽ كل الأهل والأحباب والإخوة والأخوات من عائلة نواصر...
- ✽ أبنائي محمد بلخير، محمد ياسين، دلال، فاطمة الزهراء، وأمم خديجة.
- ✽ وأرجو من الله القبول الحسن، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

تشكرات:

أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور كريب رمضان الذي أخذ بيدي وأنار لي السبيل لإنجاز هذا البحث العلمي .
كما أقر بعظيم العرفان وجزيل الشكر بما أسداه إلي الأستاذ الدكتور: طول محمد، رئيس المشروع على وقوفه ومجوده المتواصل معي من أجل تكملة هذه الرسالة، فجزاه الله عنا كل خير، كما أتقدم بالعرفان وصادق المودة والشكر إلى أساتذتي الذين لم يبخلوا بتوجيههم وإرشاداتهم، والشكر موصول إلى لجنة المناقشة التي تجشمت عناء القراءة والتصويب.

المقدمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا المحمود في السماء، صاحب العز والصفاء إمام المرسلين وخاتم الأنبياء، بحر الأنوار ومعدن الأسرار، صلى عليه الله ما طلعت شمس النهار، وعلى الآل والصحب الأخيار، وبعد، فالحمد لله الذي جعل القرآن نورا، يهتدي به الحائرون، وينهل منه العارفون، قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت الآية (03)

إن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، نزل به الروح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، منجما مقسطا في ثلاث وعشرين سنة، حتى تستعد القوة البشرية لتلقي هذا الفيض الإلهي، وهو معجزة الإسلام الكبرى، إذ لم يبلغ أي كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان ومس المشاعر وأسر القلوب، سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله، أو حين يشرع للناس ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، أو حين يصور لهم الثواب والفردوس والجحيم، أو يقص عليهم من أنباء الرسل الأولين ما فيه عبرة ومزدرج.

فقد نزل في أسلوب لا يُبَارَى في قوة إقناعه وبلاغة تركيبه، وها هو الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم يقر بعجزه حين أسرته روعة الجمال وقوة البيان "والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس أو الجن، وإن له حلالة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق"، ويلاحظ الوليد

ملاحظة صادقة، هي أن القرآن لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذي كان يجري على ألسنة كهانهم فهو طراز متفرد، له سحره البياني، بل له إعجازه الذي انقطعت آمال العرب دونه في محاكاته، أو الإتيان بشيء من مثله، وقد تحدّاهم جلّ وعزّ أن يجمعوا أمرهم وكيدهم فيأتوا بجزء من مثله، فعجزوا وذلوا، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ سورة الإسراء الآية (88).

وكان من الطبيعي أن يستكين العرب أهل الفصاحة و البيان أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة، ذروة جعلت العرب يقفون مشدوهين حيارى أمام صرحه الشامخ، يخرون ركعا وسجدا مبهورين بجماله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ سورة الزمر الآية (23) وقال أيضا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الحشر الآية (21).

ولا يزال هذا الشعور الذي كان يختلج في صدور العرب الأولين، تحقق به القلوب في كل عصر، لما يفتح من آفاق العالم العلوي والسفلي، ولما يؤثر به في صميم الوجدان الروحي، وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعرا ولا نثرا مسجوعا، وإنما هو نظم بديع، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس وتستكين لها الروح، وتتنوع هذه الفواصل بين - طوال وقصار ومتوسطة - بتنوع موضوعاته و التي تناسب حال المخاطبين،

فقد كان يغلب عليه الإيجاز، و الإشارة في بداية الدعوة قبل الهجرة، حينما كان الإسلام يدعو إلى عبادة الله و نبذ الفكرة الوثنية والحث على الإيمان بالبعث والنشور، فلما انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، غلب عليه البسط والإطناب لبيان نظم الشريعة، وما تقتضيه مصالح البشر في حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة، فقد نهل أهل العلم من كنوز عرفانيته ولا يزالون، إنه البحر المتجدد الذي لا ساحل له، والمستمع لآيات القرآن ينحذب لمقاطعته وفواصله، فيتذوق نغما لا عهد للآذان بمثله، ناهيك عن سحر بيانه، فكم كنا نرتل آياته ولا نزال، لكن منذ الصغر تولدت في مكامي و جوانحي رغبة ملحة، وأمنية جذبتني وهي أن يكرمني الله بالبحث في سر حلاوة هذا الكلام الرباني وذوقيته العجيبة، وخطابه الذي يأسر القلوب و العقول، وكبرت معي الفكرة وكان ميدانها الدراسات العليا، فوقع اختياري على جوهرة نفيسة من سور كلام رب العالمين، وكان الغرض من ذلك تلمس مكان الجمال المقنع الممتع وتحقيقا لتلك الرغبة القديمة، عساني أجِد تفسيراً لهذه الروعة الباهرة أشفي وأروي بها عطشي، خاصة أن القرآن الكريم كتاب جامع مانع فهو بالإضافة إلى أنه كتاب تعبد وتقرب من الله عز وجل، نجده يحوي مظاهر الجمال في لغته وخطابه، فما هي هذه المستويات الجمالية ؟ وكيف يمكن الوصول إليها ؟. ولعل الوقوف عند هذا الطود الشامخ يجعل من بصري خاسئاً حسيراً، لكن البصيرة بعون الله تمد البصر، وما توفيقني إلا بالله.

ولقد حاولت في هذا البحث التنقيب عن مكان الفتنة الجمالية الذوقية للقرآن الكريم محاولاً تبرير ذلك بما فتح الله علي، و بالاستعانة من أمداد علوم من سبقوني في هذا الميدان أمثال أصحاب المدونات التفسيرية، كالزمخشري صاحب الكشاف، و الطاهر بن عاشور صاحب التحرير والتنوير، وسيد قطب صاحب الظلال، و الشعراوي في تفسيره وغيرهم كثير.... إضافة إلى كتب الإعجاز

كالباقلاني صاحب إعجاز القرآن، والرماني صاحب النكت في إعجاز القرآن، والجرجاني صاحب دلائل الإعجاز، وغيرهم ممن تحدثوا في علوم القرآن كالزركشي صاحب البرهان، والسيوطي صاحب الإتقان، مع الاستعانة بدراسات المحدثين في هذا الميدان بكري شيخ أمين صاحب التعبير الفني في القرآن، وأمين الخولي صاحب فن القول، وأحمد الشايب وسفره الأسلوب.

ولقد نهجت في هذه الدراسة، منهاجاً تحليلياً وصفيًا، يتماشى مع الخطة المرسومة، التي اشتملت على:

مدخل: عرّفت فيه الجمال مشرقاً ومغرباً، وبحثت في فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية، وعلاقة الجمال بالخطاب، ثم عرّجت على الجمال والقرآن.

أما الفصل الأول: فكان محطة للوقوف على جماليات الأسلوب الأدبي وذلك بتعريف الأسلوب عند علماء الغرب والشرق و النقاد العرب المحدثين، وخلصت إلى خصائص الأسلوب القرآني مع إبراز بعض النكت الأسلوبية الجمالية في هذه الخصائص.

أما الفصل الثاني: فكان عبارة عن دراسة تطبيقية، لسورة النور، التي حاولت من خلالها تتبع جوانب الخطاب الجمالي في هذه الجوهرة القرآنية المملوءة بالأحكام والتشريعات التربوية التي تخص بناء الفرد والأسرة المسلمة، حتى يتكامل صلاح الأمة لتسير بنور الله وتتلقى خطاب المولى بحسن إفادة و متعة دنيوية وأخروية، ولكي تتم المعالجة الجمالية والأسلوبية للموضوع، كان من الضروري تقسيم السورة إلى محاور كبرى، تنطوي تحتها عناصر فرعية وذلك ليسهل تناول

السورة و التحكم في موضوعاتها، إذ أن كل موضوع يبتغي أسلوبا وذوقا معيناً، فغاية آيات كتاب الله الكريم تهئية النفوس لحسن التلقي عن الله.

ومن النتائج التي استشرفتها في هذه الرحلة البحثية:

- أن ذائقة القرآن الكريم تتسع كلما توغلت عقلا ووجدانا في مجالي الخطاب الرباني، ولو تسلّحت بشقى العلوم وركبت كل المناهج، تجد الأسرار تغمرك من كل جانب وتبقى مبهورا بالحسن والجمال.

- يعتبر اللسان العربي خير ترجمان لهذه الأنوار والأسرار، فهل من مذكر؟، قال

تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد الآية (24) وقال أيضا:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

مَدَدًا﴾ سورة الكهف الآية (109)، إنه القرآن الذي لا تنقضي عجائبه.

- القرآن الكريم كخطاب تشريعي مؤثر مقنع جذاب، لأنه يصدر عن رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى.

ومن باب الاعتراف بالجميل وشكر النعمة، أقدم خالص العرفان و الشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف كريب رمضان، الذي أخذ بيدي لإنجاز هذه المهمة، وأقرّ من حنايا الوجدان وخالص الضمير بعظيم التشكرات لرئيس المشروع، أستاذي طول محمد الذي لم ييخل بتوجيهه وتصويبه لإنجاح هذا المشروع وخدمة للعلم وكتاب الله عز وجل، كما أهيب بجليل العرفان لأساتذتي الذين أناروا لي سبيل الرشاد، فما عساني أقول لورثة الأنبياء؟ جزى الله سعيكم وأمدكم بموفور الصحة والعافية.

المدخل

المدخل:

مفهوم الجمال

1- ماهية الجمال بين الغرب والشرق

2- فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية

3- التجربة الجمالية في الأدب

4- بين الجمال والخطاب

5- الجمال و القرآن

- ماهية الجمال بين الغرب و الشرق :

إن النظرة المعجمية للجمال تتركز في أغلبها على أنه الحُسْنُ و الروعة في المحسوسات و المجردات ، إذ نجد صاحب لسان العرب يذهب إلى أن : "الجمال مصدر الجميل و الفعل جَمَل ، و قوله عز وجل : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)¹ ، أي بهاء و حسن، ابن سيده الجمال الحسن يكون في الفعل والخلق وقد جَمَل الرجل بالضم جَمَالاً فهو جَمِيل و الجمال بالضم و التشديد أجمل من الجميل وجملة أي زينة و التَّجَمُّلُ تَكَلُّفُ الجَمِيل و امرأة جملاء وجميلة و هو أحد ما جاء من فعلاء لا أفعل لها قال وهبته من أمة سوداء ليست بحسناء ولا جملاء .

و في حديث الإسراء ثم عرّضت له امرأة حسناء جملاء أي جميلة مليحة ولا أفعل لها من لفظها كديمة هطلاء و في الحديث جاء بناقة حسناء جملاء قال ابن الأثير: و الجمال يقع على الصور والمعاني ومنه الحديث إن الله جميل يحب الجمال أي حسن الأفعال كامل الأوصاف ...²

"و الجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم أستعمل في الصور، وأصل الجمال في العربية العظم، و منه قيل الجملة لأنها أعظم من التفاريق، والجمال الحبل الغليظ و الجمال سمي جملاً لعظم خلقته ، و منه قيل للشحم جميل لعظم نفعه."³

و جاء الخبر نفسه في أساس البلاغة للزمخشري "أن جمال فلان يعامل الناس بالجميل، وجمال صاحبه مجاملة، وعليك بالمداراة و المجاملة مع الناس، ونقول: إذا لم يجملك مالك، لم يُجِدْ عَلَيْكَ جمالك ، و أجمل في الطلب إذا لم يحرص ، و إذا أصبت بنائبة فتجمل أي اصبر. و جمال الشحم أذابه و اجتمل

1 - النحل: الآية 06.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة (جمل)، ج1، إعداد، يوسف خياط، دار الجيل، بيروت، د، ط، 1988، ص 503.

3- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ج1، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 7، سنة 1991، ص 166.

وتجمل : أكل الجميل وهو الودك ، و ناقة جمالية : في خلق الجمل ألا ترى إلى قوله: كأنها جمل وهم ضخم ورجل جمالي¹ : فطيم الخلق ضخم¹.

أما في كتاب ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة فقد وردت كلمة "جمل" و جمع أجمال ، و جامل و جُمِّل بالضمّ و جمال - بالكسر - و جمالة - و جميلات مثلثين و جمائل ، و أجامل و الجامل: القطيع منها برعاته وأربابه : أو القطيع من النوق... و الجميل: الشحم الذائب، و استجمل البعير: صار جملا، و الجمالة مشددة: أصحابها و ناقة جمالية بالضمّ : وثيقة.

و الجمال: الحسن في الخلق و الخلق و الجملاء : الجميلة التامة الجسم من كل حيوان و تجمل : تزين - و أكل الشحم المذاب². إذن فمدار الجمال معجميا سواء في لسان العرب أو أساس البلاغة أو ترتيب قاموس المحيط و غيره على أنه الحسن في المدركات بعين البصر ، أو المدركات بعين البصيرة .

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع الجمال قد حظي باهتمام الفلاسفة و المفكرين و الشعراء و أرباب الفنون منذ القدم ؛ و ذلك لارتباطه بأعمق الأحاسيس الإنسانية ، و لتأثيره الكبير على رؤى و أفكار الإنسان ، و تبعا لذلك فإن تحديد ماهية الجمال وتثريته - إن صح التعبير - يحتاج إلى دراسة عميقة و متأنية تتجاوز غرض هذه الأطروحة.

و إذا أردنا الاستئناس بآراء القدامى لتحديد ماهية الجمال نبدأ بالغرب لأنه كان سباقا لإثارة مثل هذه المواضيع و الإشكالات ؛ فيطالعنا أفلاطون بوجهة نظر محلقة في عالم المثل إذ " يفترض وجود مثال للجمال أو يرى أن العمل الفني نقل ومحاكاة، وأن الجمال في المثال جمال مطلق، أما في الأشياء فهو نسبي - و تكون الأشياء جميلة عندما تكون في موضعها ، و قبيحة عندما تكون في غير موضعها،

1 - الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة، ط5، 1973، ص 64.

2 - ينظر الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، ج 1 ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، (د،ت) ط1979، ص 531.

ولكن الأشياء لا تنقسم إلى قسمين جميلة وقبيحة ، بمعنى أن ما ليس جميلا لا يكون قبيحا حتما، إنما هناك مرحلة يخلو فيها الشيء عن كلا الوضعين ، و مثال ذلك غير العالم لا يكون حتما جاهلا، وإنما هو وسيط بين طرفين متناقضين " ¹ ، فالنظرة الأفلاطونية ترى في عالم المثل الجمال المطلق الذي ينبغي لكل ناشد للجمال أن يحاكيه ، فالجمال و القبح في هذه الرؤية يحدده عالم المثل، فبقدر اقتراب المحسوس و اللامحسوس إلى المثل بقدر ما يكون جميلا و العكس بالعكس .

أما أرسطو فيرجع جمال العمل الفني إلى قدرته على جعل المتلقي يشعر بعمق أنه أمام عين الحقيقة و ليس مجرد تقليد للمثال فـ " السبب في أن الناس يستمتعون برؤية الشبيه هو أنهم بتأملهم فيه يجدون أنفسهم يتعلمون و يستنبطون الأفكار، وربما يقولون آه هذا هو؛ ذلك لأنه إذا حدث أنك لم تر الأصل فإن المتعة لن يكون سببها التقليد وإنما هي ترجع إلى الإتيان أو اللون. " ²

فأرسطو يرى في مهارة الفنان و قدرته على الصياغة و التشكيل و إنزال المثل إلى أرض الواقع أساس الإنتاج الجميل لدى الفنان ، فالاختلاف بين أفلاطون و تلميذه أرسطو ، هو أن أرسطو أنزل عالم المثل إلى الأرض فخلق بذلك جدلية بين الإنسان والطبيعة أساسها التأثير و التأثير ، فالمنطق الأرسطي يقول : " كل شيء في الوجود هو محاكاة لمثال لا تقع عليه العين ، و كل عمل فني هو محاكاة لعمل جميل موجود ، أو متصور تقع عليه العين، أو يجلو له الفكر أو يصوره له خياله وليس جمال الحياة قائما على جمال الموضوع ، فالجمال والقبح من مظاهر الطبيعة والحياة ، يمكن أن يمدا أهل الفن بموضوعاتهم حتى يكون هناك جمال الجمال، أو جمال القبح، فيبدو الجميل أجمل مما هو، والقبيح أشد إثارة واشمئزاز " ³.

1 — عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر، ط 3 ، 1974 ، ص 37 .

2 — عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، المرجع نفسه ، ص 58 .

3 — مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر 1988 ، ص 59 .

ومهما يكن من شيء فإن الفنان يصور الشيء إما من أجل ترغيب المتلقي فيه و ذلك هو الجميل و الخير ، و إما من أجل التنفير منه و ذلك القبح و الشر ¹ .
و من قبل أفلاطون و أرسطو نجد أن سقراط أخضع الجمال لمبدأ الغائية، و بات الشيء الجميل عنده ما كان له فائدة للإنسان ، و الرائع في الفن ما كان نافعا " ...
وأن موقع حسن الشيء من الروعة ما تناسب غاياته مع غاية النفع التي تصيب الإنسان ، على حين أن القبيح و الرديء هما لا جدوى منهما ولا نفع " ² .
و إذا تركنا أرض الإغريق جنوبا باتجاه منبع التراث العربي فنجد في كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب " بأن الجمال إحساس سار ، كل ما يسر النفس من طريق الحواس الخمس ، ولا سيما العين و الأذن هو جميل ، و الجمال خصال مدركة بالحواس ، و بخاصة هاتين الحاستين معا أو منفردتين من شأنها أن تسر النفس " ³ .

و قد ارتبط الجمال عند الجاحظ بالمنفعة إذ يصف حسن النار بالقول : "... وكيف حال النار في حسنها ، فإنه ليس في الأرض جسم لم يصبغ أحسن منه ، ولولا معرفتهم بقتلها و إحراقها وإتلافها ، و الألم و الحرقة المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحسن عندهم ، و إنهم ليرَوْنَهَا في الشتاء بغير العيون التي يرونها بها في الصيف ، ليس ذلك إلا بقدر ما حدث من الاستغناء عنها " ⁴ فنظرة الجمال في التراث العربي نظرة موضوعية يلعب البصر و السمع ركيزتا استشعاره ، لهذا كان التركيز في القرآن الكريم — المنزل بلسان عربي مبين — على عرض الطبيعة بمختلف مظاهرها عرضا يشبع السمع و البصر ، فقد نفخ الله تعالى في الكلمة

1 — ينظر كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، السنة الجامعية : 1993 - 1994 ، ص 39 .

2 — كريب رمضان : بذور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، الجزائر ، د.ت ، د.ط، ص16.

3 — عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار الفكر ، بيروت د.ت ، د.ط ، ص 487 .

4 — الجاحظ : الحيوان ، تح : عبد السلام هارون ، ج4 ، مكتبة الخاتمي ، القاهرة ، ط1 ، 1952 ، ص96 .

القرآنية من روحه كما نفخ من قبل في آدم و عيسى عليهما السلام ، فإذا الكلمة حية تسعى .

و يضيف الغزالي إلى بعد المنفعة بعدا آخر ، إذ يرى أن " ... كل جمال محبوب عند مدرك الجمال و ذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، و اللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، و إدراك نفس الجمال أيضاً لذيق فيجوز أن يكون محبوباً لذاته ، و كيف ينكر ذلك و الخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء و تؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ " ¹ .

و لاشك أنه حين تقضى الحاجات المادية يتكون الإحساس بالجمال لذاته . و إذا كان أفلاطون يرى في عالم المثل المعيار المطلق لكل جمال ، فإن الرؤيا العربية الإسلامية تذهب إلى أن الله عز و جل هو مصدر كل جمال و حسن يقول أبو حيان التوحيدي في معرض حديثه عن صفات الله تعالى " ... هي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات؛ لأنها هي سبب حسن كل حسن وهي التي تفيض بالحسن على غيرها ، إذ كانت معدنه ومبدأه ، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن و الجمال والبهاء منها وبها" ² .

و ينحو الغزالي نفس النحو حين يقول " ... بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول و الأبصار و الأسماع و ستائر الحواس من مبتدأ العالم إلى منقرضه و من ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته و لمعة من أنوار حضرته. " ³ فالجمال إذا هو الجمال الإلهي، وهو من صفات الله الأزلية ، و العالم كله كمرآة انعكس على صفحتها هذا الجمال السرمدي .

1 — الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج 4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1986 ، ص 306 .

2 — التوحيدي: الهوامل و الشوامل ، تح: أحمد أمين و أحمد صقر ، لجنة التأليف و النشر و الترجمة ، القاهرة ، ط 1 ، 1952 ، ص 43 .

3 — الغزالي : إحياء علوم الدين ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 117 .

و إذا اتجهنا إلى الدراسات الحديثة التي عنيت بالجمال نجد اتجاهات شتى وآراء متعددة ، فويكلمان (Wikelman) يرى " أن الجمال صفة تطلق على كل ما يعطي لذة منزهة عن الغرض، فهو كالمياه الصافية المستقاة من عين صافية ، و هي تكون صالحة للشرب كلما كانت خالية من الطعم . " و قريب من هذا ما قاله شارل لالو (Charles Lalo) " الجمال هو إشباع منزّه عن الغرض، هو لعب حرّ و اتفاق لملاكاتنا أي توافق بين خيالنا الحسي ، و بين عقلنا"، فالنشوة المنزهة عن الغرض هي عين الجمال، و ثمة من يرى أن الجمال ينشأ من داخل المحسوسات أو المجردات ، إذ يعزف كانط (Kant) على هذا الوتر فنجدّه : " يلح على أن تشكل العمل الجمالي بقوانينه الداخلية الخالصة ، هو العامل الوحيد في الحكم عليه بالجمال و القبح ، و عنده أن الجميل هو الذي يكون ممتعا بالضرورة وبصورة كلية و شاملة ، دون مفهوم ، و هذه المتعة مقطوعة الصلة بأية فائدة مهما كانت"¹، بينما نجد من يجعل الشعور بالرضى هو الحكم بين الجمال و القبح نجد ذلك مثلاً عند وليام - ك ، م (William) فيرى : "أن الشعور بالرضى في حضرة الجمال هو شعور بالاتحاد و بالتفاعل المتناغم بين الإحساس و العقل و هو التحرر الكامل من الضرورة العملية والنفعية"². و يتفق معه هيوم (Hyoun) في ذلك إذ يرى " أن الجمال هو انتظام الأجزاء و تناسقها إما بفعل طبيعتها الأصلية أو بفعل التعود ، أو بفعل الرغبة و بشكل يعطي لذة ورضا نفسياً"³.

و قريباً من ذلك يذهب ريتشاردز (Richardz) بالقول : " إن الجمال تجربة أو حال في الجمهور و انه ليس " شيئاً " غامضاً كامناً في العمل الفني نفسه"⁴.

من خلال ما سبق ذكره نلاحظ صعوبة الاتفاق على معنى موحد لماهية الجمال و ذلك الشأن في كل ما يتعلق بأعمق مشاعر الإنسان كالحب و البغض

1 — مجلة عالم الفكر : العدد 1 ، وزارة الإعلام ، الكويت ، سبتمبر ، 1998 ، ص 110 .

2 — وليام ك، م : تاريخ موجز النقد الأدبي، تر: حسام الخطيب ، ج 3 ، ط 1 ، 1975 ، ص 539 .

3 — نونكس : النظريات الجمالية — تح: محمد شفيق ، بيروت ، ط 1 ، 1985 ص 46 .

4 — ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، تر: إحسان عباس، ج 2، دار الثقافة، بيروت ، ط 1، 195،

وغيرها، فالجمال مرتبط بالجانب الذاتي بمعنى أن كل فرد يقوم بتحديد مقاييس الجمال الخاصة به و بالتالي فهو يستمتع بالجمال من وجهة نظره التي تختلف مع غيره ، بمعنى أن الجمال ليس صفة مطلقة بل هو نسبي، وبالتالي فلا يمكن تحديده.

- فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية :

جاء لفظ الجمال في القرآن في مواضيع كثيرة نذكر منها:
قال تعالى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) ¹.

وقال تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) ².

وقال تعالى: (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ) ³.

وقال تعالى: (فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعُنَّ وَأَسْرَحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) ⁴.

وقال تعالى: (فَامْتِعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) ⁵.

وقال تعالى: (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) ⁶.

وقال تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) ⁷.

نجد في كتاب فروق اللغة لأبي هلال العسكري : " إن الجمال هو ما يشتهر و يرتفع به الإنسان من الأفعال و الأخلاق و من كثرة المال و الجسم " ⁸.

و في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي "ورد أن لفظ الجمال بمعنى الحسن و ما اشتق منه ، ذلك أن الجمال يستعمل في موضع الحسن فيقال : وجه

1 - سورة يوسف : الآية 18.

2 - سورة النحل : الآية 6.

3 - سورة الحجر : الآية 85.

4 - سورة الأحزاب : الآية 28.

5 - سورة الأحزاب : الآية 49.

6 - سورة المعراج : الآية 5.

7 - سورة المزمل : الآية 10.

8 - أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة ، المصدر السابق ، ج1، ص 257 .

جميل ووجه حسن و أن فلانا حسن أو جميل ولا تراد صورته ، و إنما يعني جميل الأخلاق¹.

و يتجلى لنا من خلال ذلك أن لفظة الجمال من الجانب الإسلامي تعني حسن الشيء أو الخلق أو ما اتصف بالصفات الحسنة و منه قوله تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) ، ². و اقترنت لفظة الجمال بمعنى الخلق في قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) ³.

و من ثم يتضح لنا مفهوم الجمال في القرآن الكريم بمعنى الشيء الظاهر للعيان و المثير للإحساس ، و الذات الإنسانية تجد في خالقها ما يرضيها و يجتذبها إليه و يحسن إليها ، و الفلاسفة القدماء تعرضوا في نظرياتهم الشعرية إلى فن الشعر الموسيقي كأرسطو و سقراط و أفلاطون ، حيث أضافوا فيها نظرية المحاكاة اليونانية إضافات مهمة إلا أنهم لم ينصرفوا إلى نظرية الجمال عند العرب⁴.

نطالع في كتاب إخوان الصفا و خلان الوفاء " أن المهارة في أي عمل - ما هي إلا محاولة التشبه بالخالق الكريم⁵.

ونحاول عرض مفهوم الجمال عند مفكري و علماء الإسلام الذين أعطوا مفاهيم مختلفة و تصورات للجمال ، حيث ذهب كريب رمضان إلى أن الجمال لم يبلور في نظرية عند العرب ولم يتخذ أبعادا حقيقية من شأنها أن تجليه و تعمقه ، فقد ظل مفهوما بسيطا ، إذا لم نقل ساذجا، أما جهود الفلاسفة في دراسة نظرية المحاكاة و إضافاتهم فتكاد تكون شروحا و هوامش لا تمس جوهر الأشياء إلا في النادر⁶.

1 - مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر ، 1988 ، ص74.

2 - سورة السجدة : الآية 7.

3 - سورة النحل : الآية 6.

4 - ينظر مجلة الوحدة : المرجع السابق، ص74 .

5 - رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، ج1 مطبعة موفم ، الجزائر ، 1992 ، ص 350 - 377 .

6 - ينظر كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، المرجع السابق ، ص 50 .

وأبو حامد الغزالي يؤكد تفاعل الحواس مع القلب والعقل بقوله: "يدرك الجمال الحسيّ بالبصر و السمع و سائر الحواس أما الجمال الأسمى فيدرك بالعقل و القلب أما إن كان الجمال يتناسب مع الخلقة و صفاء اللون فإنه يدرك بحاسة البصر ، وإن كان الجمال بالجلال و العظمة و علو الرتبة ، و حسن الصفات و الأخلاق ، وإرادة الخيرات لكافة الخلق و إفاضتها عليهم على الدوام فيدرك بحاسة القلب"¹. ويرى أن القلب أشد إدراكا من العين ، فالقلب يدرك الأمور الشريفة الإلهية و أن المثل الأعلى للجمال هو الله ، و جمال الله سبحانه أكمل الجمال².

فالملاحظ أن إدراك الجمال عند أبي حامد الغزالي يتجلى عن طريق الحواس ، إذا ارتقى يدرك عن طريق القلب و إذا اشتمل على عناصر موضوعية يدرك عن طريق العقل .

أما تصور الفرابي للجمال فيتجلى من خلال قوله: "الجمال و البهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل ، و يبلغ استكمالته الأخير ، و إذا كان الأول وجوده أفضل الوجود فجماله إذن فائق لجمال كل ذي جمال ، و كذلك زينته وبهاؤه و جماله بجوهره و ذاته و ذلك في نفسه و بما يعقله من ذاته"³.

فالفرابي يوضح بإجلال بأن الخالق هو الأول و جماله فوق كل جمال و هو لا يمايز بين لفظ الجمال و البهاء و الزينة فالكل في نظره واحد .

و الغزالي يؤكد " أن لا خير ولا جمال و لا محبوب في العالم إلا و هو حسنة من حسنات الله و إلا آثار من آثار كرمه ، و غرفة من بحر جوده، سواء أدرك هذا الجمال بالعقول أو بالحواس ، و جماله تعالى لا يتصور له ثان ، لا في المكان و لا في الوجود"⁴.

1 — علي شلق : الفن والجمال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د.ت ، د. ط ، 1974 ص 74 - 75 .

2 — ينظر علي شلق : الفن والجمال ، المرجع نفسه، ص 75.

3 — الفرابي : كتاب السياسة ، تح : فوزي نجار ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، د.ط ، 1964 ، ص 46

4 — أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج 4 ، المصدر السابق ، ص 254 .

و هذا القول يلتقي مع ما جاء به القديس أوغسطين في قوله: " أن الله هو الفنان العظيم الذي يعطي الشكل و الجمال و النظام كل شيء بحسب قوانينه الخاصة إن الله حقيقة كل جمال بل أعظمه"¹.

فجمال الله في نظر هؤلاء جمال نقي صافي ، و لا تصور له ، و أن الله هو الذي يعطي الشكل و النظام ، و الجمال.

إن فلسفة الصوفيين المسلمين رأت أن الإنسان في إمكانه أن يتقرب إلى الله روحيا عن طريق الحياة المتقشفة و النسك و تنقية الروح من كل الشوائب الدنيوية ، و تقرب الإنسان من الله تقربا يجعله يعرف الجمال الأصيل المتمثل بالجمال الأعلى معرفة حقا ، و يكتشف أن جمال العالم المادي ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي².

و من هنا تظهر أوجه التشابه بين الفلسفة الإسلامية الصوفية و الفلسفة الأفلاطونية اليونانية في فهم الجمال التي ترى أن الجمال الحقيقي ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي، فهم يركزون على الجانب الحسي في فهم الأشياء وتأويلها إلى خالقها كما كان يراها أفلاطون وغيره.

و النتيجة العامة التي نستخلصها من النصوص السابقة هو أن نظرة الفلاسفة المسلمين للجمال تمثل موقفا دينيا ، و الجمال عندهم يدرك بالحواس و يقع في المحسوسات ، و الجمال يرى بالعين و يدرك بالعقل و القلب و يدعون إلى السمر والرفعة عن الأشياء المادية و التعلق بما هو أعلى و أعظم وهو الواحد الأحد الأزلي، و يتجردون من كل ماله علاقة بالمادة أو ملذات الحياة الدنيوية .

- التجربة الجمالية في الأدب :

إن ثمة علاقة جوهرية بين الجمال و الأدب - باعتباره أحد الفنون - حتى إن بعض الدارسين يعرفون الأدب بأنه نشاط لغوي يستهدف توكيد الحياة التي تحدث متعة جميلة ، " ربما متأثرين بنظرة كانط (Kant) المتوفى سنة (1804م) الذي قرر أن الفن عمل يهدف إلى المتعة الجمالية الخالصة ، أي أنه حر لا غاية وراءه

1 - نيكون أوفسيا : موجز تاريخ النظريات الجمالية ، ترجمة: باسم السقا ، دار الفرائي ، بيروت ، ط 2 ،

1979 ، ص 76 .

2 - ينظر علي شلق : الفن والجمال ، المرجع السابق ، ص 94 - 95 .

سوى اللذة الفنية ، و ربما كان هذا هو المعنى الذي خلص إليه بعض أدباء العرب حين قالوا : " إن الشعر أنفذ من السحر " و كان الرسول ﷺ قد قال : (إن من البيان لسحرا)¹ .

" و إننا نكاد نجد اتفاقا على أن التجربة الجمالية لا يمكن أن تكون جمالية ، حتى تتحرر من الشواغل المادية و الإيديولوجية الملحة ، أي توفر صفة اللانفعالية التي تقضي أن تتوجه الذات إلى موضوعها دون رغبة في استهلاكه المادي أو تخديمه العملي أو الإيديولوجي"² .

غير أن الجمال لا يتناقض مع المنفعة ما دامت المنفعة مشروعة ، إذ يمكن أن تساهم التجربة الجمالية في الأدب الراقى في توجيه الناس نحو المنافع المشتركة فيقضى بذلك على الأثرة و الأنانية التي شوهت وجه العالم .

" إن التجربة الجمالية ، عالم قائم بذاته و تصدر من موقف حسي انفعالي مصوغ بشكل مجازي تخيلي ، و من وعي جمالي يتعامل مع الواقع من خلال المثل الأعلى للجمال في الفرد و المجتمع "³ .

" و في التجربة الأدبية تتجلى ثلاث مستويات :

- 1- مستوى مادي ، لأن بها مكونات حسية مدركة .
- 2- مستوى نفسي و يتصل بها مكونات حسية .
- 3- مستوى واعي وهو الخاص بعملية التنظيم و التحديد و الحصر "⁴ .

1 — أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د ط ، 1981 ، ص 76 .

* (رواه الترمذي وأبو داود)، أنظر "موسوعة الحديث الشريف" الإصدار الثاني، شركة صخر لبرامج الحاسب، 1997 السعودية.

2 — سعد الدين كليب: مجلة الموقف الأدبي شهرية يصدرها إتحاد الكتاب العرب ، العدد 294، دمشق ، تشرين الأول ، 1995 ، ص 71 .

3 — المرجع نفسه : ص 78 .

4 — سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، دار النهضة العربية بيروت ، سنة 1984 ، ط 1 ، ص 56

و يضيف إلى ذلك ريني ويليك (René Wilik) شيئاً آخر " ليست المسألة أن تعرف أية عناصر بل و كيف وضع بعضها مع بعض ، ولأية وظيفة - لأن هذا يحدد ما إذا كان عمل من الأعمال أدبياً - أم ليس أدباً " ¹.

فعلاقة الأدب بالجمال تبرز من خلال التوازن الصوتي و الإيقاعي الخلاق ، وبالتركيز على الصور البلاغية التي ترسم خلجات النفس و صدى الطبيعة ، فالأديب في تجربته الفنية يستخرج أجمل ما في الطبيعة من محاسن ، و أفضل ما في النفس من مشاعر .

" وأما الشاعرية فهي فنيات التحول الأسلوبية وهي استعارة النص لتطور الاستعارة الجميلة، حيث ينحرف النص عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي وهذه سمة لأي تعبير بياني، وأما القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها فإنها لا تشكل القيمة الحقيقية للتجربة الأدبية " ².

و يؤكد كانط (Kant) " أن الذوق هو دائماً مادة الشعور بكل ما نبصره أو نسمعه أو نتخيله، وهو يصدر حكمه بالرضى أو بعدم الرضى على موضوع ما مبتعداً ما وسعه عن الهوى ، و متفتحاً في الوقت نفسه على الكمال و المثال دون أية محاولة لجعل الجميل كاملاً أو مثالياً ، و إنما حسبه أن يكون سبيلاً إلى تصور مثال الكمال على أي حال ، و على هذا النحو يكون أماناً متذوق و موضوع له مادته و متعته الفنية ، و كلها تتعاون على إصدار الحكم الجمالي الذي لا يمكن أن يكون متعسفاً ، و الذي لا يتحرر فقط من موضوع العمل الأدبي " ³.

"فالتجربة الأدبية تجربة لغة ، و عند الأديب تصبح اللغة وسيلة للتعبير والخلق بموسيقاه و ألوانه و فكره ، و مادته التي سوى منها كائننا ذا ملامح وسمات، كائننا ذا نبض و حركة " ⁴.

1 - محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د ط ، 1975 ، ص 31 .

2 - محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، المرجع السابق ، ص 32 .

3 - أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، المرجع السابق ، ص 78-79 .

4 - عبد الله الغدامي : الخطيئة و التكفير ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة السعودية ، ط 1 ، 1985 ، ص 24 .

و من تم نجد أن الخطاب اللغوي صنع من فضاء التشبيه و الاستعارة فضاءا للصورة المكثفة ، بينما كانت الاستعارة تقوم على التشابه المنطقي بين شيئين ، فقد أخذت الصورة الآن تدور في فلك المجاز الذي يتجاوز المنطق و الخضوع للعقل ويدخل في ملكة الغرابة و الغموض ، فيصير أصابع سحرية يراقص الأشياء ويلتقطها و يحولها كما يشاء فيبعث الحياة في النفوس الجامدة ، و يؤجج العواطف الميتة ، و ذهب أدونيس للقول : " و في الإبداع الشعري يصل غنى هذه اللغة إلى أوجه و تصبح غاية شاسعة كثيفة في الإيقاع والإيحاء و التوهج لا حد لأبعادها"¹.

" ففي التجربة الجمالية لا يمكن أن تظهر الذات بدون موضوع و لا الموضوع بدون ذات ما دام الشيء واحدا ، هذا التوحد ، بينهما يعد ملمحا أساسا في التجربة الأدبية ، حيث يحدث تفاعل بينهما نتيجة التأمل العميق ، و كل هذا يتم بواسطة المخيلة " ².

" فالشاعر في تجربته يعبر عن رؤية شمولية للحياة ، و مفاهيم محددة عن الإنسان و موقفه من الحياة و الواقع ، و أما الذوق فهو في الأصل ملكة تدرك بها طعوم الأشياء ، و اصطلاحا أداة الإدراكات التي تثير في نفس المتذوق لذة فنية ، وقد تحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، فقرر أنه حصول ملكة البلاغة للسان فكما أنه حسيا علاج الأشياء باللسان للتعرف على طعمها تعالج الأشياء فنيا ، بالنفس للتعرف على ما فيها من جمال ، فهو بإيجاز القوة التي يقدر بها الأدب من حيث هو فن " ³.

و مهما تغيرت أفكار العصر و قيمه فلن تتغير القيم الأساسية للعمل الفني ، فقد نرى الأدباء في عصرنا الحاضر يهتمون بعالم الفن و السياسة و يشاركون في أحداث العصر ، و يدعون إلى توجيه الأدباء نحو المجتمع ، و إلى المساهمة بجهودهم في تغيير الواقع الذي هم عليه ، و لكن هذا كله لا يعني أن اختيار

1 — أدونيس: مقدمة الشعر العربي ، دار القلم ، بيروت ، ط5 ، 1986 ، ص 108.

2 — كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، المرجع السابق ، ص93 .

3 — أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، المرجع السابق ، ص 77.

موضوع معين يتصل بالسياسة أو المجتمع أو قضية من قضايا الوطن يبتعد عن كونه عملاً فنياً .

" فاللغة هي وسيلة الأديب للتعبير و الخلق ، و هي موسيقاه و ألوانه و فكره ، و المادة الخام التي سوى منها كائناً ذا نبض و حركة و حياة و ملامح و سمات ، كائناً أبدعه الشاعر أو القصاص أو المسرحي من ذاته كائناً يحمل صورة حية ، كما يحمل الحجر صورة نابضة لتمثال بارع، فكذلك اللغة في يد الأديب قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية ، ذلك هو معنى الإبداع الأدبي ، إنه سيطرة الأديب على اللغة بما يضيفه عليها من ذاته وروحه " ¹.

فالتجربة الجمالية في الأدب خلق و إبداع ، و تفجير لطاقات النص من أجل خلق وعي جمالي منسجم مع الكون و الحياة و الإنسان ، ذلك الانسجام الذي نجده في حنايا الكون و قلب الطبيعة .

- بين الجمال و الخطاب :

إن الكلام عن علم الجمال يعني أيضاً الحديث عن موقف الإنسانية من خالقها، و من ذاتها و من الكون المحيط بها ، فغاية علم الجمال هو إعادة بناء العلاقات بناءاً جمالياً ، ينسجم مع الجمال المطلق ، و حينها يكون علم الجمال " مجموعة الأدوات المعرفية التي تمكن صاحبها من دراسة المواقف التي يتخذها الإنسان من مظاهر الكون و المجتمع في إطار العقيدة الدينية ، و يعبر عنها في أشكال متعددة تمتد من سلوكه اليومي البسيط إلى أنواع الفنون في إطار المجتمع و التراث" ².

فعلم الجمال مرتبط بالجانب الذاتي عند الإنسان و لكل فنان أدواته التي يبرز بها تجربته الجمالية التي ما هي في الحقيقة إلا نشدان للكمال في عالم الفن ، والتذوق الجمالي كما رأينا سابقاً فعل منعكس ، يصدر عن النفس التي تستجيب للمثيرات الجمالية بما فيها من جمالات فطر الله الناس عليها .

1 - المرجع نفسه ، ص 56 .

2 - حسين الصديق : فلسفة الجمال رسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط 1 ،

2003 ، ص 22 .

و إذا عدنا إلى موضوع الرسالة و ركزنا على الجماليات الفنية في القرآن الكريم " فالخطاب القرآني يعد سلطة فنية من حيث تساميه الأدبي المبين للمألوف من الأجناس الأدبية و هو سلطة روحية أيضا بتصديه تقريراً و جدلاً ، لتخرصاتهم الاعتقادية و المعرفية الشريكية ، و احتوائه المجال الفكري ، و الروحي الذي تصدر عنه ذهنية الكفر ، و هذا لاعتماده معطى الإيمان بالتوحيد ، و بالغيب ، واقعا فكريا ماثلا للحس ممازجا للوجدان ¹ .

لقد اقترن الخطاب بالجمال في العمل الأدبي و قد وردت مادة خطب في لسان العرب " أن الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام ، و قد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، و هما يتخاطبان ، و المخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك و المشاركة في فعل ذي شأن ، قال الليث : إن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر ، قال بعض المفسرين في قوله تعالى " و فصل الخطاب " قال : هو أن يحكم بالبيئة أو اليمين و قيل: معناه أن يفصل بين الحق و الباطل ، و يميز بين الحكم و ضده ، و قيل فصل الخطاب : الفقه في القضاء ² .

و يرى الزمخشري أنه يجوز أن يراد بمعنى الخطاب في الآية : " القصد الذي ليس فيه اختصار مغل ، و لا إشباع ممل ، و يقول خطبه أحسن الخطب و هو المواجهة بالكلام ³ . فالخطاب من المخاطبة على وزن المفاعلة فهو يقتضي التفاعل بين شخصين أو أكثر ، بين مرسل و متلقي ، و هذا التفاعل إما أن يخلق إحساسا بالمتعة و الجمال و القبول ، و إما أن يولد شعورا بالسأم و القبح و النفور ، وكثيرا ما ارتبط الخطاب بالخطابة كجنس أدبي تتجلى فيه البلاغة و القدرة على التأثير في المخاطبين .

1 — سليمان عشراي : الخطاب القرآني ، مقارنة توصيفيه لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات

الجامعية، الجزائر ، ط1 ، 1998 ، ص5.

2 — ابن منظور : لسان العرب ، مادة (خَطَبَ) ، المصدر السابق ، ج2 ، ص856 .

3 — الزمخشري : الكشف في حقائق التزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج1 ، دار الكتاب العربي ،

بيروت ، لبنان ، د.ط، د.ت، ص125 .

كما يرتبط المفهوم الرابط بين الخطاب والخطابة عند أرسطو طاليس في حديثه عن مكوناتها فيقول: " أما التي ينبغي القول فيها على مجرى الصناعة فثلاث: إحداهن الأخبار من أي الأشياء تكون التصديقات و الثانية ذكر التي تستعمل في الألفاظ ، و الثالثة هو أنه كيف ينبغي أن ننظم أو ننسق بين أجزاء القول"¹

و قد عدها الجاحظ جنسا من البلاغة فالخطابة تركز على عملية الإقناع التي يختص بها الباث إزاء المتلقي أو السامع قصد إثارة عواطفه ، أما ما يستمد منه الخطاب في جانبه النظري في كونه اليوم يطرح كآلية فعالة في الفكر الإنساني أمام أي طرح أو نقاش و هو الآن الآلية و الرهان الذي بادر و يبادر النقد الأدبي الحديث و المعاصر في عرضه التحليلي أو هو نقطة تقاطع و تلاقي بين تحليل النصوص و الإجراءات التطبيقية التي تهتم كثيرا بالمعنى في شكله و بنائه ، وفي تجاوز ما يقوم النص بطرحه إلى الكيفية التي يتبعها النص في المعنى الذي يطرحه .

أما في الدراسات اللغوية و اللسانية في الغرب فقد عرف هذا النوع "الخطاب" تفاعلات لاسيما بعد ظهور كتاب فريديناند دوسوسير (Fredinand de saussire) محاضرات في اللسانيات العامة متضمنا المبادئ الأساسية التي جاء بها هذا الأخير و أهمها :

- 1- التفريق بين الدال و المدلول .
 - 2- اللغة ظاهرة اجتماعية .
 - 3- الكلام ظاهرة فردية . و بلورته لمفهوم "النسق" أو "النظام" الذي تطور فيما بعد إلى بنية ، و قد تعددت مفاهيم الخطاب ومدلولاته نورد بعضها :
- الخطاب مرادف للكلام عند فريديناند دوسوسير (Fredinand de saussire) وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية². أما حسب "بينفينيست" (Binnifinnist):

1 — أرسطو طاليس : الخطابة ، تر : عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1983 ، ص 181.

2 — ينظر سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ، ط2 ، 1993 ، ص 12 .

" هو كل مقول يفترض متكلماً و مستمعا و عند الأول هدفه التأثير على القارئ بطريقة ما "1.

والخطاب حسب ميشال فوكو " نظام تعبير متقن ومضبوط"2

و بعضهم يعطي للخطاب معاني أخرى لما يجعل منه مرادفاً " للنص " أو " المقول " ومن هؤلاء " جوليان غريماس (Jullian Grimas) على أن استعمال هذا الأخير للنص كمرادف للخطاب ليس من باب التبسيط، كما يرى بعض الدارسين أن غريماس ، " إذ يفعل ذلك إنما يستند إلى الاشتراك الفعلي للفظتين في أداء المعنى ذاته (ترادف) فبعض اللغات الأوربية لا تتوفر على لفظ يقابل لفظتي "Discours" الفرنسية و "Discourse" الإنجليزية ، و يشير إلى أن "خطاب" و "نص" تستعملان تبعاً لذلك للدلالة على ممارسة خطابية غير لغوية ، كالطقوس المختلفة والقصص المرسومة"3 .

وثمة علاقة وطيدة بين الخطاب و الأدب الجمالي ، و الخطاب له مقاييس تميزه أي هناك شروط وخصائص و مقاييس تجعل منه خطاباً أدبياً ، و هو ما جعل بعض الدارسين المحدثين يرون بأن هدف "علم الأدب ليس دراسة الأدب ، بل دراسة أدبية الأدب"4

و في السياق نفسه يقول " بوريس ايخنباوم (Bouriss Eikhenbaoum) " لقد اعتبرنا و لا نزال نعتبر أن الشرط الأساسي لموضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي يميزها من كل مادة

1 - المرجع نفسه ، ص 19 .

2- فرحان بدري الحري: الأسلوبية في النقد العربي الحديث ، دراسة في تحليل الخطاب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، ط1، 2003، ص40.

3- Grimas (AJ) et courtés (j) ; sémiotique , dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed , Hachette , Paris , 1979. voir discours p102.

4- Todorov Tzeventan , les catégories du récit littéraire inco-

uniquion 8, coll. Ed du seuil , Paris 1981, p 131

أخرى و هذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بوساطة بعض ملامحها الثانوية أن تعطي مبررا لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد¹ .

و يعرف "عبد السلام المسدي" الخطاب الأدبي بأنه : "خلق لغة من لغة" أي أن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة ، و هي لغة الخطاب الأدبي و يمكن أن نقول : "إن الخطاب الأدبي هو تحويل لغة عن لغة موجودة سلفا، و تخليصها من القيود التي يكبلها بها الاستعمال و الممارسة ، فالخطاب الأدبي بهذا المعنى : كيان عضوي يحدده انسجام نوعي ، و علاقة تناسب قائمة بين أجزائه"² ، و الخطاب الأدبي نظام إشاري معقد و مركب ، و ليس بسيطا ، كما هو الحال في نظام إشارات المرور الضوئية مثلا ، فالنظام الأدبي معقد بالنظر إلى تعقد تكوينه و العوامل المؤدية إليه معا ، " فمن حيث التكوين يتشكل النص الأدبي من مجموعة من الأنظمة الفرعية الداخلية المرتبطة تماما بمجموعة من الأنظمة الكلية والفرعية الخارجية هناك في التشكيل اللغوي للنص ، و هناك النظام الصوتي بفروعه و هناك النظام المعجمي ، و هناك النظام النحوي و النظام المجازي و هي كلها أنظمة تشكل رؤية الكاتب ، و منها جميعا تتشكل دلالة النص الكلية"³.

أما مفهوم الخطاب الأدبي كما يراه محمد مفتاح فهو :

(1) " مدونة كلامية : يعني أنه مؤلف من كلام ، و ليس صورة فوتوغرافية أو رسما أو عمارة أو أزياء ، و إن كان الدارس يستعين برسم الكتابة و فضائلها و هندستها في التحليل .

(2) حدث : إن كان خطابا ، هو حدث يقع في زمان و مكان معينين لا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي .

(3) تواصل : يهدف إلى توصيل معلومات و معارف و نقل تجاربه إلى الملتقي .

1 — سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المرجع السابق ، ص22.

2 — عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط 2 ، 1984 ، ص 107.

3 — المرجع نفسه ، ص11.

(4) تفاعلي : على أن الوظيفة التواصلية في اللغة، ليست هي كل شيء فهناك وظائف أخرى للخطاب اللغوي ، أهمها الوظيفة التفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع و تحافظ عليه .

(5) مغلق : و نقصد به انغلاق سمته الكتابية الأيقونة التي لها بداية و نهاية و لكنه من الناحية المعنوية هو :

(6) تداولي : إن الحدث اللغوي ليس منبثقا من العدم ، و إنما هو متولد من أحداث تاريخية و نفسانية و اجتماعية و لغوية... و تتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له ، فالخطاب إذن مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة¹.

و يرى "بياجرو" (Piagero) أن الخطاب " يفرز أنماطه الذاتية و سننه العلامية و الدلالية فيكون سياقه الداخلي هو المرجع ، ليقوم دلالاته حتى لكأن الخطاب هو معجم لذاته"² .

كما ينحو " ر. ل. فاغنر" (Fagner) المذهب نفسه ، " فيرى أن الخطاب الأدبي صياغة مقصودة لذاتها ، و لغته تتميز عن لغة الخطاب العادي أو النفعي بمعطى جوهري لأنه مرتبط بأصل نشأة الحدث اللساني في كلتا الحالتين ، فبينما ينشأ الكلام العادي عن مجموعة انعكاسات مكتسبة بالمران و الملكة نرى الخطاب الأدبي صيغ للغة عن وعي و إدراك.³

فليس في الأشكال الأدبية كالسرد مثلا أو الوصف و التشبيه ما يجعلها أدبية محضة ، فقد تصادفها في أنواع أخرى من الخطاب ، مما يؤدي إلى استحالة وجود قوانين خاصة بالخطاب الأدبي ، و بالتالي تجريد مصطلح الأدبية من معناه السابق ، وتعويضه بالإحياء الاجتماعي الذي يختلف باختلاف الثقافات و العصور.

و حسب عبد السلام المسدي فإن " الخطاب الأدبي ينتمي إلى صاحبه من حيث أنه كلام مبثوث ، أما أدبيته فهي بالأساس وليدة تركيبية الألسنة ، أي وليدة ما ينشأ بين العناصر اللغوية من أنسجة متنوعة متميزة ... و من هنا يمكن الإقرار بأن سمة

1 — محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص، دار التنوير، بيروت، ط1، 1985، ص 120.

2 — عبد السلام المسدي: الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 16.

3 — المرجع نفسه ، ص 11.

الأدبية في الفن لم تعد محصورة في بعض أجزائه دون الأخرى ، و لا فيما يتولد عن بعضها من صور أو انزياحات ، و إنما هي ثمرة لكل بناء خطابي حتى و لو تجلت ظاهريا في شكل مقطع محدد منه ... فأدبية الخطاب وليدة التركيبية الكلية لجهازها اللغوي انطلاقا من الروابط القائمة فيه الضابطة لخصائصه البنيوية¹.

و الذي يهمنا أن ثمة علاقة بين الجمال و الخطاب ، لأن عملية التذوق تقتضي وجود طرفين، الطرف الأول هو الإنسان و الطرف الثاني هو الموضوع الجمالي فإن ثمة فعلا منعكسا يصدر عن الإنسان يعبر عن تفاعل الذات الإنسانية مع الموضوع الجمالي ، حيث تتعطل ملكاتها العادية و تتوقف عن التفكير ، فالتذوق الجمالي يبدأ أولا بالحس ، و يعبر عنه بالانفعال ثم ينتقل ثانيا إلى العقل في عملية الإدراك و التقويم الجماليين .

و يرى " حسن الصديق " : على الأديب ألا يكتفي بالثقافة التي تغني فكره ، وتوسع دائرة تجاربه ، و تفيده في مضمون فنه ، و إنما عليه أيضا أن يهتم بجمال أدواته اللغوية فيتجنب في كتابته الكلمات المموجة الثقيلة على السمع ، و يبتعد عن التكليف أو يهرب من أسلوب أصحاب الآراء و المتكلمين الذين يتخذون من العمل الفني منبرا للوعظ و الإرشاد ، أو يشرح عقائدهم و مذاهبهم ، و على الأديب أن يكون مهتما بأدبه و فنه ، و لا يفتأ يسعى نحو الأفضل و إن كلفه ذلك جهدا كبيرا من سعى إلى الجمال في الفن الأدبي و ذلك بعد الخضوع لسحر اللفظ على حساب المعنى ، و بالتوفيق بين الشكل والمضمون توفيقا متكاملا يؤدي ما يراد من غاية سامية و أخلاقية².

و الذي يثير الاهتمام و يلفت النظر ما يعرف بالتصوير القرآني و هو " التناسق القائم على تقنية توزيع المشاهد ، و الظلال و الأجواء و وسيلته في كل ذلك الألفاظ و الموسيقى الكامنة في التركيب "³ و بذلك يسمو الإعجاز فيه . " و ارتكزت أدبية الخطاب القرآني على فنية التصوير بأبعادها اللونية و الإيقاعية ، و الحركية ،

1 — عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 88-89.

2 — حسين الصديق : فلسفة الجمال ومسائل الفن ، المرجع السابق ، ص 266 - 267 .

3 — سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، ط 7 ، 1983 ، ص 96-97 .

انسجاما مع منزعتها التوصيلي الفطري الذي يعرض المعنى صورة ، و الأثر حركة و الحالة مشهدا شاخصا للخيال ¹ ، فأدبية الخطاب القرآني تستولي على الوجدان لانسجامها التام مع الفطرة الإنسانية ، و لاستفزازها لبؤرة الشعور بما في الخطاب من دلائل و إحياءات .

لقد ربط سيد قطب أدبية الخطاب القرآني بمباحث ، كانت في حيز الدراسات الأدبية الوضعية، فالقصة القرآنية بطابعها الفني و بعناصرها الأدائية من شخوص ، و مواقف ، و سرد ، وغيرها كانت من جملة المباحث التي وقف عندها سيد ، و حاول تأصيل الرؤيا فيها على ضوء الإنجازات النقدية و التحليلية المعاصرة ، و هو بذلك قد دفع بالدرس الجمالي القرآني في طريق مشوق يجنى منه دون شك كثيرا من الثمار الياقة التي ستؤكد علو كعب البلاغة القرآنية .

و يرى مالك بن نبي أن أدبية القرآن قد تجسدت في ذلك الإنجاز الرائع الذي حققه الخطاب القرآني على مستوى التعبيرية ، و الذي تجاوز به الأنماط القولية التي كان العرب يألّفونها ، لقد أحدث الخطاب القرآني كما يقول مالك بن نبي : انقلابا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير ، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون ، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم أو موضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد².

لقد تخطى القرآن بتفرّد و تميّز نسيجه البنائي الإمكانيات الجمالية الأدبية التي أسستها اللغة العربية لنفسها طيلة قرون ، حتى أنه يمكن اعتبار الخطاب القرآني ثورة تجديدية في الأطر الجمالية و البلاغية التي كانت قبله ، ثورة لا تقل أهمية عن الانقلاب الجذري الذي أحدثه القرآن في المجتمع العربي الجاهلي و في العالم كله ، مؤكدا أن الخطاب هو أقوى مرجعيات التغيير و البناء .

1 — سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، م3 ، ط 12 ، 1986 ، ص 1011 .

2 — مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط 4 ، 1984 ، ص 185 .

" و الخطاب القرآني يتمتع بقدرة كبيرة على استيعاب المفاهيم ، والأنماط اللفظية غير العربية و تكيفها مع ما ينسجم وروح اللغة العربية " ¹ ، يظهر ذلك على مستوى الأسماء الأعجمية خاصة (أسماء الرسل من بني إسرائيل) .

و نجد الأدبية القرآنية مع " محمد أركون " تتحو منحى فكريا ، فصوت العاطفة فيه لا يخبو تماما ، و لكنه يتذرع بالعقل ، فهما للظاهرة القرآنية و تعريفها لها ، وتفكيكا للخطاب القرآني بأدوات معرفية جديدة كخطوة توسع فيها الصلات الجدلية بين الديانات الكتابية في العالم .

و أركون يحدد المرتكزات النوعية التي تقوم عليها أدبية الخطاب القرآني ويجملها في كونه :

1- " صادقا : إذ هو فعال في النفس البشرية التي بقيت بمنأى عن خطاب آخر يفتح لها منظورا مشابها .

2- فعالا : إذ هو يربط الإنسان بالزمن البدائي و يخلق بنفسه زمنا مثاليا ، هو زمن الوحي ، زمن السلف الصالح الذي يستقطب إليه وحي الأمة، سعيا إلى تحقيق واقع الهداية .

3- تلقائيا : إذ هو انسياب متتال لتقنيات لا نحتاج في التدليل عليها إلى برهان ، وإنما نحتاج إلى التماس أوجه ملاءمتها لتطلعات الفطرة البشرية ، فهي قد جاءت لمخاطبتها ، فحدائية القرآن حدائية جمالية و أدبية ... أمكنها ليس فقط أن تتجاوز موقف الرفض و الخصومة الذي وقفه منها المكذبون زمن النزول أو من نجم من بعدهم من الطاعنين ، بل لقد تأتى لخطابية القرآن أن تجب أضربا بيانية ترتبط بثقافة العرب الشريكية ، كانت مناط تجلة و تفخيم " ² ، فالخطاب القرآني كينونة قد تمثل على أنها المصدر العلوي عينه الذي يباشر ضمير المتلقي برسالة متكاملة لا تغفل منزعا من منازع الحياة ، و الوجود ، تحريرا للفرد و الجماعة ، من نير الأسطورة و اللامعقول الخرافي ، لقد استوعبت المؤلفات حول القرآن الكريم

1 - Mohammed Arkoun ; lectures du coran, édition maison neuve ,

1982, p23 .PARIS.

2 - سليمان عشيواني : الخطاب القرآني ، المرجع السابق ، ص 07

(التفاسير ، و شرح المتون مثلا) جهدا تواجديا كان في أساسه نشاطا جماليا وروحيا يستنفذه المسلم في إطار جمالي قد أقر لها النص و الزمن بمنزلة السقفية ، لقد ارتبط الخطاب القرآني بجماليات فنية من حيث الأسلوب البلاغي الرائع كما سنرى ذلك في أحد أروع السور القرآنية و هي "سورة النور" .

- الجمال و القرآن :

يتبين لفظ الجمال في القرآن الكريم باشتقاقاته في ثمانية مواضع بأربع صيغ هي: (جميل ، جمال ، الجميل ، جميلا)، قال تعالى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)¹ و قال تعالى: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)² وقال تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)³. وقال تعالى : (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ)⁴. وقال تعالى: (فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعُنَّ وَأُسَرِّحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)⁵. و قال تعالى : (فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)⁶ وقال تعالى : (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)⁷. وقال تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)⁸.

و الملاحظ هنا اقتران الجمال ثلاثة مرات مع الصبر ، و مرتين مع التسريح ، و مرة واحدة مع كل من الهجر و الصفح و التأمل . حيث نلاحظ أيضا أن ما نسبته سبعة و ثمانون بالمئة جاء متعلقا بمجردات — الصبر و الهجر و التسريح — و قد

1 — سورة يوسف : الآية 18 .

2 — سورة يوسف : الآية 83 .

3 — سورة النحل : الآية 6 .

4 — سورة الحجر : الآية 85 .

5 — سورة الأحزاب : الآية 28 .

6 — سورة الأحزاب : الآية 49 .

7 — سورة المعراج : الآية 5 .

8 — سورة المزمل : الآية 10 .

يقودنا هذا إلى استنتاج يتفق مع روح القرآن و الإسلام وهو أن الجمال جمال الباطن، و أن المعنى هو الذي يفيض بجماله على المبنى. فمجموع الآيات السابقة تدفع الإنسان إلى إخراج أجمل ما لديه من مشاعر صادقة في أسوأ الظروف الحالكة .

و حين يتعلق الجمال بفن القول فإن القرآن هو ذروة سنام الجمال ، ومحط قوافل الروعة و الجلال ، أعى البلغاء ، و أجهد الفصحاء ، و ما تمالك أحد أساطين البلاغة و أرباب الفصاحة نفسه حين سمعه فقال : " إن لقوله الذي يقوله حلاوة ، و إن عليه لطلاوة و إنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، و إنه ليعلو ولا يعلو ، و إنه ليحطم ما تحته"¹.

يعتمد القرآن الكريم في توليد الشعور بالجمال و الروعة على الكلمة تصويرا و تجسيدا ، و على الموسيقى الداخلية ، في انسجام تكاد معه تسمع خريبر الماء ، و هزيم الرعد ، و زمجرة الريح ، و حفيف الأوراق ، و زقزقة الطير ، و تكاد ترى الطبيعة ينافس بعض فصولها بعضا ، و هو ما يعرف عند النقاد بالأنوماتوبيا : " أي محاكاة الوضع اللغوي لمظاهر الطبيعة ... و قد استخدم القرآن مثل هذه المفردات عندما بث الحركة فيها ، و جسم معانيه ، و خاطب الحواس عند تقديم الذهنيات ."²

فالكلمة القرآنية وعاء للمعنى الهادي إلى الصراط المستقيم ، و هي مكتنزة بكل مظاهر الجمال و البهاء و الجلال ، بحيث ترفع الوعي الجمالي لدى المتلقي ، فمنتهى القول البليغ أن يجعل قلب السامع ووجدانه و عقله وجها لوجه أمام المراد من الإقناع ، أمام الحقيقة البالغة ، و الحجة الساطعة ، و لم يعرف التاريخ البشري برمته مثل هذا لغير القرآن الكريم ، الذي استل من طباع العرب الجافية طباعا أخرى راقية ، فإذا بهم ينقلبون ذلك الانقلاب الكبير من رعاة غنم يعيشون على ضفاف التاريخ إلى رعاة أمم يصنعون التاريخ .

1 — ابن كثير : السيرة النبوية ، ج1، تح : مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، د.ط ، 1971 ، ص 499 .

2 — أحمد ياسوف : جماليات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، سورية ، ط1 ، 1994 ، ص 33 .

و من عجيب أمر هذا الجمال اللغوي ، وذلك النظام الصوتي ، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى ، وذلك أن من شأن الجمال اللغوي و النظام الصوتي ، أن يسترعي الأسماع ، و يثير الانتباه و يحرك داعية الإقبال في كل إنسان ، إلى هذا القرآن الكريم ، و بذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق و في آذانهم ، و يعرف بذاته و مزاياه بينهم ، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله ، مصداقا لقوله سبحانه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)¹ ، و لقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو داخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه و اختل نظامه في آذان سامعيه²!

فالموسيقى الداخلية للقرآن الكريم أشبه بسيمفونية متكاملة متناغمة ، لو اضطربت منها نوتة واحدة لسقط البناء الموسيقي كله " ثم انظر فيه آية آية ، و كلمة كلمة : هل تجدها كما وصفنا : من عجيب النظم ، و بديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها ، وضامتها ذواتها مما تجرى في الحسن مجراها ، و تأخذ في معناها ؟ ثم من قصة إلى قصة ، و من باب إلى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل ، و حتى يصور لك الفصل وصلا ، ببديع التأليف ، و بليغ التنزيل³ .

فالجمال هو معدن القرآن الكريم و جوهره ، و إذا انتقلنا إلى ميدان الدراسات النقدية الجمالية " نجد ما يسمى بالروعة التي يولدها هذا الأدب في النفوس ، حيث يذهب "لونجينوس" ... إلى أن الروعة إنما هي صدى روح عظيمة، وقد حاول لونجينوس (Longinos) - رغم ذلك - أن يضع للروعة مصادر خمسة هي: (*) القدرة على تكوين فكرة عظيمة (*) العاطفة الجياشة (*) استخدام ضروب المجاز (*) استخدام الألفاظ الرفيعة (*) التأليف السامي الجليل ... و واضح من هذه العناصر الخمسة أن الاثنين الأولين منها يتصلان اتصالاً وثيقاً بنفسية الشاعر بينما

1 - الحجر : الآية 09 .

2 - ينظر الزر قاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ج 2، بيروت ، د. ط ، 1981 ، ص 312 .

3 - الباقلائي : إعجاز القرآن ، تح: أحمد صقر دار المعارف ، مصر ، ط 3، 1970 ، ص 190 .

تتعلق الثلاثة الأخرى بالأثر الأدبي نفسه ، فإذا نقلنا فكرة " الرائع " خطوة ابعد وسميناه " المعجز " - وخصصنا به القرآن - سقط العنصران الأولان ، و لم يبق في مجال البحث إلا الثلاثة الأخرى¹

فهذه الدراسات تؤكد على أن الأدب الرفيع الممتاز يصدر عن روح عظيمة ، وأنه أدب قائم على دقة اختيار الكلمة ، و دقة التأليف بين الكلمات ، فما عسى أن نقول عن القرآن وهو من لدن حكيم عليم ، و قد جسمت المباني معانيها حتى كأنك و أنت تقرأ كتاب الله المسطور جالس في قلب كتاب الله المنظور، وصورت الكلمة القرآنية الحالة النفسية بأدق تفاصيلها فيما يعرف بالأنوماتوبيا و جرس و إيقاع الكلمة ، و قد شكلت الموسيقى الداخلية للقرآن الكريم فلسفة متكاملة كتمهيد قوي للتأثير في الوجدان و العقل و كمثل عن دقة اختيار الكلمات ما جاء في سورة النور محل هذه الدراسة نختار ثلاثة كلمات كشاهد : (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)² لقائل أن يقول : و لا ترأفوا بهما في دين الله لكن مع التأمل نجد أن الموقف القاسي تجاه جريمة الزنا يستثير الشفقة و لا يعبر عن ذلك إلا الأخذ حقيقة هو الاستيلاء و هو هنا مستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين لئلا يضعفوا عند إقامة الحد .

(وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)³ استعمال كلمة أفضتم في هذا الموقع لا يضارعا شيئا ، فالإفك قد فشا في المدينة و أصبح حديث الناس في المجالس و التعبير بالفيض هو الأنسب لوصف تلك الحالة .

﴿ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾⁴ لا تصلح يذهبون أو يخرجون لأن المنافقين يريدون الخروج بخفاء ودون أن يشعر بهم أحد و لا يكون هذا إلا تسللا .

1 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 4 ، 1983 ، ص 339.

2 - سورة النور : الآية 2 .

3 - سورة النور : الآية 14 .

4 - سورة النور : الآية 63 .

و إذا تحدثنا عن إيقاع الكلمة و ما تحدثه من ظلال نفسية و تشخيص للمعنى
نأخذ أيضا مثالا عن ذلك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ 1 إذا سرت في
الأجواء رائحة منتنة احتبس النفس، و بعد أن يتجمع في الصدر يخرج في استرخاء،
و نسمع غالبا لفظة " إِفْ " تدليلا على الرائحة المنتنة ، و كل هذا ترسمه لفظة
﴿الْإِفْكِ﴾ الكسرة و احتباسها بالسكون و الإخراج بالكسرة مجددا ، إنه إذا قرآن
عربي غير ذي عوج .



الفصل الأول

الخصائص الفنية للأسلوب

الخصائص الفنية للأسلوب

مفهوم الأسلوب :

أ- لغة.

ب- إصطلاحاً.

1- الأسلوب في التراث العربي

2- الأسلوب عند علماء الغرب

أ- خصائص الأسلوب.

ب- الأسلوب و الابتكار.

3- مفهوم الأسلوب في النقد العربي الحديث

أ- صفات الأسلوب:

1- وضوح الأسلوب 2. قوة الأسلوب 3. جمال الأسلوب

ب- تداخل الصفات و تعادلها .

4. خصائص الأسلوب القرآني

1- المرونة و المطاوعة .

2- إقناع العقل و إمتاع العاطفة .

3- القصد في اللفظ و الوفاء بحق المعنى.

4- ضرب الأمثال في القرآن الكريم.

5- الفاصلة القرآنية .

6- أسلوب التصوير في القرآن الكريم.

7- جودة السبك .

5- الخصائص العامة للأسلوب القرآني.

- الخصائص الفنية للأسلوب :

من القضايا التي فرضت نفسها وبقوة على الساحة الأدبية والبلاغية قضية الأسلوب والأسلوبية، هاتان القضيتان اللتان تضافان إلى البحوث اللسانية الحديثة كفرع من تفرعاته المتشابكة الروافد ووفرة المصطلحات وكثرتها، الشيء الذي دفع بالفضوليين من الباحثين إلى التنقيب عن حقيقة هذه المفاهيم المتعلقة بالمعارف الإنسانية وفق ما تتطلبه المناهج العلمية الحديثة، رغم أن العملية تعد شاقة وصعبة على المبتدئين الذين يجدون صعوبة للتمييز بين مصطلح وآخر.

والهدف من وراء هذه البحوث البلاغية واللسانية واللغوية هو ترقية الخطاب الأدبي والتذوق للقيم الجمالية للنصوص، وأساس ذلك تلك المميزات اللغوية والبلاغية التي تحفل بها تلك النصوص والفنون الأدبية الراقية، ولعل السؤال المتبادر إلى ذهن كل قارئ أو متتبع لهذه المفاهيم هو كيفية تحديد هويتها ومعاييرها وأسسها وعناصرها ؟ وما هي المقاصد من وراء كثرة البحوث في هذه المفاهيم ؟، وهذا ما سنلمسه من خلال تتبعنا لمفهوم الأسلوب، انطلاقاً من مسلمة الاستفسار عن حقيقة الموضوع وجوهره .

في أي قضية علمية مطروحة للدراسة والتحليل، ثمة سؤال عن جوهر القضية هو: ما الأسلوب؟ ،وما معناه؟، وكيف ينظر إليه؟، وما السبل المتبعة في دراسته وتحديد خصائصه؟ ؛ إنه سؤال مركب في ظاهره، صعب في مضمونه، تتطلب الإجابة عنه الوقوف أمام مجموعة من القضايا التي اختلف حولها كثير من علماء اللغة والأسلوب وما زالوا يختلفون، إلى درجة صارت فيها موضع نقاش وجدال بينهم، ولهذا لا بد من البحث في جملة من الحقائق منها:

مفهوم الأسلوب: أ / لغة : الأسلوب معجمياً ،كما جاء في لسان

العرب لابن منظور: " (سلب) سَلَبَهُ الشَّيْءَ يَسْلُبُهُ سَلْباً وَسَلْباً وَاسْتَلَبَهُ إِيَاهُ وَسَلَبَتْهُ فَعَلَتْ رَجُلٌ سَلَبَتْ وَامْرَأَةٌ سَلَبَتْ كَالرَّجُلِ، وكذلك رَجُلٌ سَلَابَةٌ بِالْهَاءِ وَالْأُنْثَى سَلَابَةٌ أَيْضاً، وَالِاسْتِلَابُ الْإِخْتِلَاسُ وَالسَّلْبُ مَا يُسَلَبُ، وَفِي التَّهْذِيبِ مَا يُسَلَبُ بِهِ وَالْجَمْعُ أَسْلَابٌ وَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ اللِّبَاسِ فَهُوَ سَلْبٌ، وَالْفِعْلُ سَلَبْتُهُ أَسْلَبْتُهُ

سَلْبًا إِذَا أَخَذْتَ سَلْبَهُ ... ويقال للسَّطْر من النخيل أُسْلُوبٌ وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ فهو أُسْلُوبٌ، والأُسْلُوبُ الطريق والوجه والمذهب، يقال: أنتم في أُسْلُوبٍ سَوْءٍ وَيُجْمَعُ أُسَالِيْبٌ، والأُسْلُوبُ الطريقُ تأخذ فيه، والأُسْلُوبُ بالضم الفنُ يقال: أخذ فلانٌ في أُسَالِيْبٍ من القول أي أفانين منه ¹.

و جاء عند صاحب أساس البلاغة " (س ل ب) سلبه ثوبه وهو سليب، وأخذ سلب القتيل وأسلا ب القتلى، ولبست الثكلى السلاب وهو الحداد، وتسلبت وتسلبت على ميتها فهي مسلب، الإحداد على الزوج، والتسليب عام، وسلكت أُسْلُوب فلان: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة. ²

وذكر صاحب "مجلد اللغة" في باب السين واللام وما يتلثهما: "سلب: السلب، مصدر سلبته، أسلبه سلباً، والسلب لحاء الشجر، وبالمدينة سوق يقال لها سوق السلايين، والسلب الثياب البيض، يقال: تسلبت المرأة على بعها أي أهدت قال لبيد: في السلب السود وفي الأمساح.

والأساليب: الطرق والفنون، وكل شيء امتد على غير امتناع فهو أُسْلُوب، ويقال لعنق الأسد أُسْلُوب لأنها لا تنثى ³.

أما الفيروز أبادي في قاموسه المحيط فينتهي إلى تعريفه " سَلْبُهُ سَلْبًا وسَلْبًا اختَلَسَهُ، كاستَلَبَهُ. ورجُلٌ وامرأةٌ سَلَبَتٌ وسَلَابَةٌ. والسَّلِيْبُ المُسْتَلَبُ العَقْلُ، ج سَلْبَى. وناقَةٌ وامرأةٌ سَالِبٌ وسَلُوبٌ وسَلِيْبٌ ومُسَلَّبٌ وسَلْبٌ مات ولَدُها، أو أَلْقَتْهُ لِغَيْرِ تَمَامٍ، ج سَلْبٌ وسَلَائِبٌ، وقد أَسْلَبْتُ، فهي مُسَلَّبٌ، وشَجَرَةٌ سَلِيْبٌ سَلِبَتْ ورقها وأغصانها، ورقها، والأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ، وعُنُقُ النَّاسِدِ، والشُّمُوخُ في النَّفْ ⁴.

1 — ابن منظور : لسان العرب ، مادة (سَلَبَ) ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 177.

2 — الزمخشري : أساس البلاغة ، المصدر السابق ، ص 223 .

3 — أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط 2،

1986، ج 1، ص 469-470

4 — الفيروز أبادي : القاموس المحيط، ج 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د. ط، 1979، ص 83.

فمدار الأسلوب في لغة العرب الطريقة أو المذهب أو المنزع ، أو " السطر من النخيل ، أو الطريق الممتد ، أو المنهج المتبع ، أو المثال أو النموذج " ¹.

اصطلاحاً :

- **مفهوم الأسلوب في التراث العربي:** و يأتي بمعنى الكيفية التي يصدر بها المتكلم كلامه و يشكله ، فإن كان مقفى موزون فهو الشعر، و إن كان غير ذلك فهو النثر، وقد تحدث عن الأسلوب أغلب البحاثة و القدامى بحيث "... نجد في الموروث العربي النقدي و البلاغي و في الدراسات القرآنية ملامح الدرس الأسلوبي للخطاب الديني - القرآني بخاصة - و الخطاب الشعري بعامة ... ونؤكد أن آراء القدماء وإن كانت مبتسرة و لم تؤسس نظرية أسلوبية متكاملة ، فهي إرهاصات في هذا المجال." ²

راودت فكرة الأسلوب ووجوه الأداء الكلامي أذهان المفسرين والبلاغيين والنقاد منذ القرن الثالث الهجري وقد استأثر موضوع الإعجاز القرآني باهتمامهم البالغ، فانصرفوا إلى تحديد وجوهه وتجلياته في القرآن الكريم على اعتبار الإعجاز متصلاً بالجانب البياني أساساً، وكان ابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ) قد لاحظ أن دراسة الأساليب الكلامية في لغة العرب ضرورة لفهم الأسلوب القرآني، فلفت النظر إلى أهمية دراسة تلك الأساليب على اعتبارها أداة لفهم فكرة الإعجاز التي ينطوي عليها الأسلوب القرآني، فذكر: " إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتتانها في الأساليب" ³. أما الباقلاني فقد حاول تأكيد فكرة تفرد القرآن الكريم من جهة نظمه المعجز بطريقة مقارنة بعض أساليبه بما تعده العرب غاية في نظمها، وكان الباقلاني قد رأى ذلك في نصين شعريين أحدهما لامرئ القيس على اعتباره من القدماء المجيدين في الشعر، وقد سبق الناس إلى أشياء ابتدعها والآخر للبحثري وهو من أصحاب الديباجة في الشعر وكان يسمى بعض شعره بسلاسل الذهب، مشيراً وهو يعرض هذين النموذجين إلى أهم ملامحهما

1 - صالح بلعيد : نظرية النظم ، دارهومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ط ، 2002 ، ص 156 .

2- نور الدين السد : الأسلوبية و تحليل الخطاب ، ج 1 ، دار هومه ، الجزائر ، د.ط ، د ، ت ، ص 130 .

3 - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ص 12

البنائية في الابتداء والتخلص والانتهاء وتوالي الأجزاء وتماسك الأقسام، منها لما يمتازان به من سمات على نطاق اللغة والأسلوب والمعاني والموضوعات، منتهيا إلى القول: "إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابه، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام"¹.

أما الزمخشري فقد دقق النظر في الخواص الأسلوبية لبعض سور القرآن في كتابه الكشف، كما هو الأمر في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (1) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (3) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (4) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (5) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (6) غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7) ، فقال: "فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم"².

وقد ظل البحث الأسلوبي قائما على وصف وجوه الاستخدام اللغوي، وملاحظة وجود المنبهات الأسلوبية، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني فقدم تصورا دقيقا لمفهوم الأسلوب فذكر أنه: "الضرب من النظم والطريقة فيه"³، ثم أشار إلى أن مجالات الأسلوب في النظم لا تخرج عن تركيب الألفاظ في انساق بصورة تتبع ترتيب المعاني في نفس المتكلم، ومن خلال ذلك تنبه لصلة النحو بالمعاني فقال في كلامه على النظم: "هو أن تضع كلامك الوضع الذي يرتضيه النحو وتعمل على قوانينه"⁴، وعلى هذا الأساس غدا النحو متصل بالمستوى الجمالي مثل اتصاله بجانب الاستخدام المثالي، إذ النحو لا يعني بنظره العلم بمواضع الإعراب فهذا كما يشير أمر مشترك بين الناس، وهو ليس مما يستتبط بالفكر والروية وليس لأحد

1- الباقلائي: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1954، ص 36

2- الزمخشري: الكشف عن حقائق التثريل و عيون الاقاويل في وجوه التاويل، ج 1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت. د.ط. ص 14.

3 - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط.، 1991، ص 418.

4- المصدر نفسه، ص 430.

فضل على غيره إذا علم أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، فهذه إمكانيات متحققة في العلم، وإنما المزية الوصف الموجب للإعراب¹، "فهو يرى أن النظم، هو توخي معاني النحو، وأن إعجاز القرآن يكون في نظمه وسمو بلاغته"²، فأدرك نظام اللغة من خلال النحو، وهو نظام يختلف في تراكيبه من جنس في الكلام إلى جنس آخر، وهنا أشار إلى أن خصوصية كل شاعر تظهر من خلال اعتماده على إمكانيات محددة من إمكانيات النحو، وإن تشابهت المعاني وتداخلت الأغراض، فإن المقارنة تبقى قائمة بين تركيب وتركيب، "يحتاج النظم إلى تتابع الجمل و التراكيب حتى يتضح من خلالها جميعا معناه"³، ثم تظهر الفروق بعدئذ في نظم الكلام، من أجل ذلك يغدو نقل المعنى وتأديته بالصورة الموضوع عليها محالا، لأننا سنجد صياغة جديدة يتحول إليها المعنى بمجرد تحويله من سياق إلى سياق، حيث يقول: " ولا يغرنك قول الناس قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه، فإنه تسامح منهم، والمراد أنه أدى الغرض فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول، حتى لا تعقل ههنا، إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حال الصورتين المشتبهتين في عينيك كالسوارين و الشنفين، ففي غاية المحال"⁴.

لقد خلص عبد القاهر في تأييده علاقة النحو بالنظم وبالأسلوب إلى أن النحو بإمكاناته الواسعة يتيح لكل منشئ قدرا من التميز الدال على خصوصية نظمه، إذ الألفاظ في ذاتها لا ينجم عن استعمالها فضل للقاتل، لأنها لا تختص بأحد دون آخر وإنما تكون الخصوصية في النظم والتركيب.

إن الألفاظ عند عبد القاهر ما هي إلا رموزا للمعاني، لهذا فهي لا تكتسب صفة الفصاحة في ذاتها، لأن الفصاحة عنده سمة للمتكلم دون واضع اللغة، والمتكلم ليس

1- المصدر نفسه، ص 418.

2 - عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، دار الجيل ،بيروت ، ط1، 1993، ص 74.

3 - أحمد درويش:دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت. ص 110.

4- عبد القاهر الجرجاني :دلائل الإعجاز ،المصدر السابق، ص 438.

بمقدوره أن يزيد من عنده باللفظ شيئاً ليس هو في اللغة، فإن فعل ذلك خرج على اللغة، وعليه لا يكون المتكلم متكلماً إلا إذا استعمل اللغة على ما وضعت له، وفي ذلك دلالة عنده أن الفصاحة لا تتصل باللفظ بمثل اتصالها بالتركيب، وقد ضرب على ذلك مثالا بقوله: " فإذا قلت في لفظ اشتعل من قوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾* إنها في أعلى مرتبة من الفصاحة لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف واللام ومقرونا إليه الشيب منكرًا منصوبا"¹، وإدراكه خاصة الأسلوب في ضوء النحو على هذه الجهة من الدقة والشمول جعله يلتقي مع علماء اللغة المحدثين في أكثر من موضع²، وكما أن ثمة ارتباطا قويا بين النحو والنظم من جهة، وبينهما وبين الأسلوب من جهة ثانية، فهناك علاقة عضوية بين الأسلوب والبلاغة عند عبد القاهر تبدو لنا من خلال اهتمامه بالمعنى والدلالة والغرض والمجاز، ومن استعارة وكناية وتمثيل، إذ الدلالة لا يبعث عليها الكلام العادي، وإنما يكون الباعث عليها المجاز الذي يجري وفق آلة النحو أساسا، يقول الجرجاني: "إن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد لم يتوافر فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور هاهنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون ألف مع غيره"³.

وقد وسع حازم القرطاجني مفهوم الأسلوب ليشمل النتاج الأدبي كله، بما فيه من عناصر داخلية في الصياغة أو في أغراض الشعر خاصة، حيث يقول: "ولما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحدة منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد، ومسائل تفتنى، وكانت للنفس بالاستمرار

* - سورة مريم، الآية 03.

1- الجرجاني: دلائل الإعجاز، المصدر السابق، ص 45.

2- ينظر محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، القاهرة، ط1، 1999، ص 44.

3- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح، محمد الفاضلي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1، 198، ص 28.

على تلك الجهات، والنقلة من بعضها إلى بعض، وبكيفية الاضطراب في المعاني، صورة وهيئة تسمى الأسلوب¹.

فالقرطاجني يعي "الثالوث" المتحكم في عملية صياغة الأسلوب والمتمثل في المعنى واللفظ والنظم ويعتبر الأسلوب فعالية تركيبية موحدة داخل كلام يستوعب النص بكامله، ومن شروط سلامة الأسلوب عنده أن يكون حسن التناسب متضمنا لحسن التخلص من غرض إلى آخر دون تنافر أو اضطراب.²

وقد وقف ابن خلدون عند تعريف الأسلوب فذكر أنه: "المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي تفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى، الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه، وهو وظيفة العروض ... إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنضمة كلية، باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال"³.

وعلى هذا النحو تسنى للبلاغيين العرب وضع أساس لدراسة الأسلوب، وهو أساس يتيح للمنشئ استخدام اللغة، على نحو يكشف عن خصوصيتها وجمالياتها، ويكسبها فنية القول، يقول أمين الخولي: "القول الفني: هو الكلام المعبر عن إحساس الإنسان بالحسن، وهو كمال تعبيره... فإنما التعبير الكامل أو الفني عن الحسن، هو الذي ينقل إليك الإحساس بهذا الحسن، فتشعر مع قائله بما وجد من حسن موفور أو منقوص، ولا ينقل التعبير هذا الإحساس إلا إذا كان في أصله عند القائل إحساساً"⁴.

1 - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، د.ط،

1966، ص 336.

2- ينظر محمد إقبال عروي: اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، دار الأمان، الرباط، ط1، 1996، ص14

— بتصرف —

3 - ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة، تح: علي عبد الواحد وافي، دار هضبة مصر، ط3، د.ت، ص470.

4 - أمين الخولي: فن القول، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1996، ص253.

الأسلوب عند علماء الغرب:

ولعل " مصطلح أسلوب مرتبط عند الغربيين بطريقة التعبير الكتابي ، فهو مشتق من الأصل الثلاثي لكلمة (stylo) التي تعني القلم "¹ ، هذه الكلمة التي كانت تطلق أصلا على السمة الشخصية لخط اليد، ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على النوعية الخاصة لرسم خطوط الكلمات المكتوبة، وقد كان عند قدماء الإغريق وأهل البلاغة فيهم بمثابة إحدى وسائل الإقناع، فأدرجوه ضمن علم الخطابة واختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال، الأمر نفسه الذي أشار إليه علماء البلاغة العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين وعلى رأسهم الجاحظ الذي يرى مدى مطابقة المقال لمقتضى الحال.

يعد أرسطو من المنظرين في الأدب الإغريقي و نظرا للثقل العالمي لهذه الشخصية من المفيد أن نعرف وجهته في مسألة الأسلوب ، لقد ورد الأسلوب في كلام أرسطو عاما وشاملا للشعر والفنون ، وهو يتصل عنده بنظرية المحاكاة وقد أفاض فيه القول في كتابه (الخطابة) ، و المحاكاة عند أرسطو ليست نسخ الطبيعة ، و لكن اعتماد أسلوب قوي لإعادة إخراجها على صورة جديدة تكشف عن تأثير المتفنن بها ، يقول أرسطو " والناس يجدون لذة في المحاكاة، وتؤيد التجربة صدق هذه المسألة، فقد تقع أعيننا على أشياء يؤلمنا أن نراها كجثث الموتى وأشكال أخط الحيوانات وأشدّها إثارة للتقزز، ومع ذلك فنحن نسر حين نراها محكية حكاية صادقة في الفن وتزداد متعتنا بها حين تتوفر الإصابة في المحاكاة "² فصدق الأسلوب و دقته وراء قدرة الفنان على قوة المحاكاة . إذن الأسلوب غاية الأسلوب عند أرسطو هو الإقناع لذا يتضح بأن وظيفته هي الإقناع وحسن الصياغة ، مركزا على الصوب في القول والتراكيب .

أما عند أهل اللغة في الغرب فقد تبناوا فيه التقسيمات الثلاثية للأسلوب عند أدباء اليونان القدماء ؛ ولعل التعريف المشتهر عندهم هو تعريف الناقد الفرنسي

1 — مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط1 ، 1974 ، ص 254 .

2 — إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط4 ، 1983 ، ص226 .

بيفون (Biphone) فيعرفه بقوله (الأسلوب هو الرجل. le style c'est l'homme)¹

ووسعت الدراسات اللغوية الحديثة مجالات البحث الأسلوبي لتشمل جوانب متباعدة في مسائل التعبير اللغوي فكانت جهود فريديناند دوسوسير (Ferdinand de Saussure) (1857م-1913م) في نظريته القائمة على علاقة اللغة بالكلام وتحليل الرموز اللغوية ودراسة التركيب العام للنظام اللغوي، ما ينطوي عليه ذلك من صور صوتية ودلالات، تتأسس بينها علاقات اعتباطية في البدء ثم تخضع تلك الصور للنظام حالما تتشكل التراكيب، غير أن تأصيل العلاقة بين الدال والمدلول كما يرى دوسوسير من خلال السياق أو التركيب يحجب إدراك السمة التواصلية للغة، وعليه فإن النظام اللغوي لا يعطي النتيجة المرجوة منه ما لم يرتبط بأنظمة أخرى خارجة عنه²، وقد أفاد بالي (Bali) (1865م-1947م) من أفكار دوسوسير في اعتبار اللغة نظاما من العلاقات تبرز الجانب الفكري والانفعالي للمتكلم غير أنه لم يحفل باللغة الأدبية وكان ذلك كما يشير نفر من الدارسين من الأسباب الداعية لتجاوز آرائه في مجال دراسة الأسلوب³.

أما سبيتزر (spitzer) ، وفوسلر (vosler) ، " فيربطان الأسلوب بشخصية الكاتب وعقليته وتوجهه الفكري " ⁴.

ثم جاء كريسو (Crisso) ليعيد الاعتبار إلى اللغة الأدبية بعدما أبعدا بالي عن المجال الأسلوبي فوجد في الأدب شكلا من أشكال التواصل الجمالي بين المؤلف والمتلقي، ونحا ماروز (Marouze) نحو كريسو في التركيز على لغة الأدب في

1 - أحمد الشايب : الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية، بيروت، ط5، د.ت ، ص15.

2-ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 173.

3- المرجع نفسه: ص 175.

4 - هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، تر: محمد عروي ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ،

التحليل الأسلوبي، مستقصيا ظواهرها مثل العلاقة بين المحسوس بالمجرد، والمجمل بالمفصل، والحقيقة بالمجاز، والشعر بالنثر، واللفظ بالتركيب¹.

وبعده أتى أمادو ألونسو (Amado Alonso) ليطابق في دراسته الأسلوبية التي أقامها على شعار بابلو نيرودا (Bablo Niroda) بين النقد الأدبي والأسلوبية محاولا التعرف على السمات الأسلوبية لمنشئ من خلال نتاجه، مركزا على علاقة الأديب بالأثر وعلاقة الدال بالمدلول من خلال التركيب وما ينجم عن ذلك من عناصر معنوية وتأثيرية، ويتجاوز ألونسو نظرة دوسوسير إلى اعتبارية العلاقة بين الدال والمدلول، لتتحول تلك العلاقة عنده إلى علاقة سببية مما جعل للدراسة الأسلوبية أهدافا تتركز في معظمها حول الغاية التواصلية للغة، ولعل أهم ما نجم عن مباحث ألونسو توضيح لكيفية التي يبنى بها الجسر بين الدال والمدلول وهو في حالة التكوين. ويلاحظ الدارسون أن محاولته تحديد العلاقات المتشابهة داخل العمل الأدبي أوقعته في متاهات غامضة، خصوصا عندما تكلم عن اللحظة الاستشرافية التي تتداخل مع عوالم غامضة من الأفكار والعواطف والتهويمات والذكريات².

أما قراري (B.Gray) (1969م) فيرى أن " الأسلوب ليس إلا اختلافا من اختلاقات العلماء ، الاختلاق الذي لا يقابله شيء في الواقع " ³ ، وبالرغم من هذه العدمية لا يمكن إنكار بعض المظاهر المشتركة بين جميع مجالات الممارسة المذكورة لكلمة أسلوب .

أما الشكلاونيون الروس فقد بذلوا جهودا تذكر في باب الدراسات الأسلوبية، إذ تركزت مباحثهم حول الجوانب الفنية للأدب منطلقين من اللغة مركزين على دراسة الأصوات المتكررة، وتمثيل وحدات الدلالة والوقوف عند البنى النحوية، وجزئيات الصورة مبينين كيفية تفاعل هذه المستويات في النتاج على نحو شامل.

وفي ألمانيا ظهر كارل فوسلر (Carl Fosler) الذي أطلق اسم الأسلوبية على الناحية التي تدرس اللغة في علاقتها بالخلق الفردي، ولاحظ في معرض دراسته

1 - ينظر محمد عبد المطلب : المرجع السابق : 176.

2- ينظر محمد عبد المطلب : المرجع نفسه: ص 178.

3 - هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 51 .

للغة من هذه الجهة أن الذي يتطور ليس الفن وإنما التكنيك أو الجهد الفردي الذي يقدمه المبدع، وقد تبعه أولمان (Olman) فربط بين الأسلوبية والألسنية، أما بيرس (Biers) فقد وضع المباحث الأسلوبية قبالة السميولوجيا فدرس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها بالموضوعات المتصلة بالطبيعة الإنسان، وهذا ما أسهم في تطور الاتجاهات التحليلية في النقد الأدبي في حين ركز جاكبسون (Jacopson) على اللغة والإنشاء وكان ذلك في محاضرة له بهذا العنوان ألقاها في أمريكا سنة 1960 وكانت الأسلوبية قد أفادت من جهود رينه وليك (Renih Wilik) وأوستن وارين (Oston Warin) خصوصاً في مجال النظرية الأدبية التي لا تنظر إلى النتاج الأدبي على اعتباره وثيقة اجتماعية أو تاريخية أو موعظة أو كشفاً دينياً أو تأملاً فلسفياً وإنما على اعتباره لغة بالمقام الأول¹.

ويعرف رولان بارث (Rolan Barth) الأسلوب ومعه اللغة ، بكونهما " معطين سابقين على عملية الكتابة ، فاللغة معطى تاريخي لا اختيار للمؤلف فيها ، ومثلها الأسلوب " ² فمدار الأسلوب عنده جوهر متعلق بصاحبه بماضيه وطفولته وطقوسه الخاصة ، وبيولوجيته .

الأسلوب كما استقر حديثاً اختياراً بين الإمكانيات اللغوية الواسعة وتوقف أمام مبدأي التنسيق والانتقاء، جاعلاً الانتقاء شاملاً غير مقتصر على الألفاظ، لاشتراك مستويات اللغة جميعها في بناء الكيان اللغوي المتخذ وسيلة للاتصال، ولم يلبث بعد هذا أن رسم بعض المقاييس مستعيناً بالمحورين التبادلي والتركيبى التجاوري لعرض مبدأ الاختيار بطريقة عملية، فإن لم تنجح اللسانيات في العقود الأخيرة في تطوير تعريف الأسلوب، وكشف نظرية منظمة تخصه، وكشف مناهج مناسبة لتحليله، فالمؤكد أن هذا ينقض الوضع الراهن (للسانيات الأسلوبية) إذا وجدت ، إلا أنه لا ينفي وجود الأسلوب ظاهرة مرافقة للغة (Epiphanomen)، فإن لم يكن

1 - ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق، ص 182.

2 - مجلة فصول : المجلد 5 ، ع 1 ، أكتوبر 1984 .

المرء قد وجد لهذا مفهوماً ناجعاً منذ ما يزيد على ألفي سنة، فإنه يرى نفسه الآن مضطراً للبحث عن مفهوم آخر أو جديد.¹

وعليه يمكن فهم هذا العدد الكبير من تصورات معنى الأسلوب فهماً إيجابياً؛ لأنه من الخطأ الكامل ألا يرى في هذا سوى انعدام تخطيط الباحثين، وتعدد اتجاهات البحث الحديثة الذي يظهر في تعاريف الأسلوب الكثيرة والمختلفة يقدم في النهاية الأساس للوصول إلى نظرية أسلوبية شاملة وذلك بعد النظرة الناقدة للآراء المختلفة وما تتضمنه من توجيهات جامعة ومتنوعة.

خصائص الأسلوب:

تتلخص خصائص الأسلوب عند أرسطو في ثلاثة أشكال هي :

أ - صحة الأسلوب:

يعني بها أساساً جودة الكلام ، والتي تستلزم صحة استعمال الكلمات التي تربط الكلام ببعضه ببعض ؛ مثل متعلقات الاسم والفعل ، بحيث لا يصح أن يدخل فيهما تقديم أو تأخير أو فصل ، حتى لا يضطرب المعنى ، ومما يستلزم صحة الكلام أن تسمى الأشياء بأسمائها، أي لا ينبغي أن يأتي المتكلم بكلام عام يحمل وجوهاً كثيرة لا تتم الفائدة به ، وذلك ما يدعم صحة التأليف² .

يقول الأمدي " فصحة التأليف في الشعر وفي كل صناعة هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى "³، و تجنب الغموض أو الإبهام — لأن ذلك يصعب من تأليف الألفاظ ذات المعاني الحقيقية — و يعوض ذلك بالمجاز مع مراعاة قواعد اللغة في ألفاظها مؤنثها ومذكرها مفرداً ومثنىها وجمعها.

1 — ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 183 . (بتصرف) .

2 — ينظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ط ، 1973 ، ص 181 (بتصرف) .

3 — الأمدي الموازنة ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب ، القاهرة ، ط4 ، 1944 ، ص 94 .

ب - وضوح الأسلوب :

وهو شرط لجودته، فالكلام الذي يعجز عن تأدية المعنى ، ووضوحه يفوت على القارئ أداء الغرض منه، وإنما تكون اللغة واضحة كل الوضوح ، حينما تكون كمن يأخذ بيد الأعمى مباشرة إلى حيث يريد ، و إن كان بعض الغموض لا يؤثر في وضوح المعنى ، بل قد يزيده وضوحاً ؛ يقول ستانلي (Stanley) : " يكون الغموض محترماً ما دام يسند تعقيد الفكر أو لطافته أو اكتنازه، أو ما دام ندحة يستغلها الأديب ليقول بسرعة ما قد فهمه القارئ. ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر ويبهيم الأمر دون داع؟ أو عندما لا تتوقف قيمة العبارة على ذلك الغموض بل يكون مجرد وسيلة لتوجيه المادة وتصريفها وذلك إن كان القارئ لا يفهم الأفكار التي اختلطت، وأنطبع لديه شيء من عدم الاتساق. ¹ ؛ بمعنى ألا يتحول الغموض إلى سفسطائية .

ج - دقة الأسلوب:

و هنا كلام نفيس لأبي حيان التوحيدي يورده إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، يقول التوحيدي : " والذي ينبغي أن يهجر رأساً ويرغب عنه جملة التكلف الإغلاق واستعمال الغريب والعويص وما يستهلك المعنى أو يفسده أو يحيله، ويجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخير اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلاوة التأليف واحتلاب الرونق ... فخير الكلام - على هذا التصفح والتحصيل - ما أيده العقل بالحقيقة، وساعده اللفظ بالبرقة، وكان له سهولة في السمع، ووقع في النفس، وعذوبة في القلب، وروح في الصدر؟ يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام؛ فأما صحته فمن جهة شهادة العقل بالصواب، وأما بهجته فمن جهة جوهر اللفظ واعتدال القسمة، وأما تمامه فمن جهة النظر الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها ² ، و إنما تكون دقة الأسلوب بحسن انتقاء الكلام ، و حسن تخير الجميل من المعاني ، التي توافق الحال و تغني عن السؤال يقول ستانلي : " ولهذا كان الأسلوب المعتمد هو ما يوافق

1- محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 56 .

2- إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة ، بيروت، ط4، 1983، ص237.

السامع، وهذه الموافقة تراعي لدى البسيط الأحوال الطيبة السارة، ولدى الرقة الأحوال الشاجية، ولدى الألم الأحوال الفاجعة¹ و الأمر هنا أشبه بالمثلين على خشبة المسرح ، فأبرعهم من يكون صوته طبيعياً فيمثل حقيقة الشخص المتحدث عادة، وخلاصة القول أن اللغة الدقيقة تلك التي تعبر عن الطبيعة النفسية لصاحبها، فلغة الانفعال والغضب مثلاً منبعها الإهانة والاحتقار، ولهجة الضجر منبعها الحماقة أو الفجور ، ولغة الحماسة منبعها المجد والسؤدد، والعلا ولغة الخشوع منبعها التقوى والصلاح، يضاف إلى ذلك أن تلك الخصائص السابقة ثلاثتها يجب أن تتوفر في جميع أنواع الأسلوب بتفاوت يسير ، بين النثر والشعر ، لأن الشعر كما نعلم يزيد عن النثر بالوزن والمجازات².

– الأسلوب والابتكار :

و المقصود بالابتكار القدرة على توليد معاني جديدة من رحم اللغة ،"وخير الكلام ماقدّر به على الظفر بأفكار جديدة في يسر"³، والمجاز والتشبيه والاستعارة من الوسائل المساعدة على ذلك وال قد يتأتى ذلك عن الموهبة الطبيعية ، أو كثرة الممارسة ؛ فالقدرة على توليد معاني جديدة لتصوير حقيقة مألوفة أو حقيقة مستحدثة هي غاية لابتكار، ولا يفهم من ذلك الميل إلى اللغة المبتذلة بل الفصيحة المؤدية إلى الغرض والمعنى ، و لا شك أن من وراء القدرة على لابتكار روافد من القوة الذاتية كما يؤكد ستانلي : " ولا بد لكمال الإبداع من عوامل داخلية، وهي توفر ثلاث قوى لدى الشاعر :

(أ) **القوة الحافظة:** وذلك بأن تكون خيالات الفكر منتظمة متميزة، نعرف طبيعة الموضوع الذي يقبل عليه الشاعر فترفده بالتصور المناسب، دون أن يعتكر خياله فيقع في التخليط وعدم انتظام الصور.

1 – محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 565 .

2 – ينظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق، ص 121، (بتصرف)

3 – محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع نفسه ، ص 125، (بتصرف)

(ب) **القوة المائزة:** وهي التي تعين الشاعر على أن يميز ما يلاءم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلاءم.

(ج) **القوة الصانعة:** وهي التي تتولى ربط أجزاء الألفاظ والمعاني¹.

ومن أهم العناصر المساعدة على الابتكار في الأسلوب :

1- المجاز: "ويعرفه أرسطو بأنه نقل اسم دال على شيء آخر، والنقل يتم إما من جنس إلى نوع ، أو من نوع إلى جنس ، أو من نوع إلى نوع بحسب التمثيل مثل : (توقفت السفينة أي أرست) و(قدمنا آلاف الضحايا أي الكثير) وهو ما يعرف عند أهل البلاغة العرب بالكناية². و القرآن الذي نزل بلغة العرب حوى من المجاز أبدعه لاسيما و قد ذهب علماء اللغة على أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة ، فقول الله تعالى : (فيما أفضتم فيه)³ مجاز عن شدة الخوض في حادثة الإفك ، و قوله عز وجل : (إذ تلقونه بألسنتكم)⁴ مجاز عن التلاسن في الإفك .

2- التشبيه: و هو مشاركة أمر بآخر في معنى ، أي علاقة استدعائية بين المشبه و المشبه به ، بعبارة أخرى هو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشيء في نفسه ، كالشجاعة في الأسد إذا قلنا زيد كالأسد إذا غضب. وللتشبيه أثر نفسي بالغ في المتلقي ؛ فعندما يقول تعالى : " إذ تلقونه بألسنتكم " . فهو سبحانه يشبه خبر الإفك بشخص ، و يشبه الراوي للخبر بمن يتهاى للقائه فشبهت الألسن بالأيد المتحفزة للتلقي،"فالتشبيه حسب أرسطوا استعارة ، والفرق بينهما طفيف فإذا قلت (كر على الأعداء أسداً) أخيلوس، كان ذلك تشبيها وإذا تحدثت عنه فقلت (وثب الأسد) كان استعارة"⁵.

1- ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، تر: إحسان عباس ، ج1، دار الثقافة ، بيروت ط1، 1958، ص 544.

2 - محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق ، ص125.

3 - سورة النور : الآية 14 .

4 - سورة النور : الآية 15 .

5 - محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق ، ص127.

3- **الاستعارة** : أقوى أثرا من التشبيه، إلا أن أرسطو يشترط فيها ألا تكون بعيدة المنال والمبالغة لتفادي الملل والسأم لدى السامع والابتعاد به عن الغرابة والتصنع كما يجب ألا تكون واضحة كل الوضوح حتى لا يفقد النص قيمته الفنية والبلاغية لأن الناس عادة لا يلقون بالآلى ما هو غريب بعيد المنال أو إلى ما هو معروف بالبديهية، وإنما يكون اهتمامهم بسماع الأفكار التي يحاط بها بمجرد سماعها وليست معروفة من قبل أو حاضرة في الذهن ومجمل القول في هذا الباب ومن خلال ما ذكرناه لمفهوم الأسلوب وأجزاء القول عند أرسطو، إننا توصلنا إلى تحديد جمالية الأسلوب وأهدافه ووسائله من خلال بحوث اليونانيين القدامى¹.

مفهوم الأسلوب في النقد العربي الحديث:

أما نقادنا العرب المعاصرون فهذا أحمد أمين يسمي الأسلوب (نظم الكلام) حيث يرى أن الفن الحقيقي إنما يقوم على وسائل من غير تقديم الشيء نفسه ليثير مشاعرنا، " فلا نعتد على العاطفة ولغة المشاعر والأحاسيس وحدها، بل على الأسلوب أو نظم الكلام والمبني أساسا على اختيار الكلمات لا من ناحية معانيها فحسب، بل من ناحيتها الفنية كذلك أي بما توحى من أفكار ترتبط بها فقد تأتلف كلمة مع كلمة ولا تأتلف مع أخرى، وقد تفعل الكلمة في إثارة العواطف ما لا تفعله مرادفتها ويسوق لذلك أمثلة منها ...

قول المتنبي :

تلذ له المروءة وهي تؤذي *** ومن يعشق يلذ له الغرام²

وبين قوله تعالى : (فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم)³، فلفظة تؤذي في الآية أجمل منها في بيت المتنبي والحكم في ذلك للأذن الموسيقية.

1 — ينظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق ، ص128 (بتصرف)

2- هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي المعروف بالمتنبي شاعر وحكيم المتوفى سنة 354هـ. (الأعلام للزركلي) دار العلم للملايين ج1، بيروت لبنان، دت، دط، ص 115.

3- سورة الأحزاب : الآية 53.

و كلمة ضيزى في قوله تعالى : (تلك إذا قسمة ضيزى)¹، فقد تكون ظالمة أو جائرة أحلى ولكن ضيزى في موضعها أجمل فنيا وبلاغيا لطبيعة أواخر السورة المنتهية بالألف المقصورة ومن فوائد نظم الكلم كذلك اعتماد الألفاظ على بعض الحروف التي تمثل القوة كالفاف أو الرقة كالسين ويشير في ذلك إلى قول ابن الأثير المشهور (هنالك كلمات إذا سمعتها تخيلت رجالا قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وألفاظ أخرى تتخيل عند سماعها كأنها نساء حسان عليهن كلائل مصبغات، وقد تحليل بأصناف الحلي)².

والناس يختلفون فيما بينهم في التعبير عما في أنفسهم من معاني، بل أن الناس يختلفون في التعبير عن المعنى الواحد، بالرغم من اتفاقهم في المعاني العلمية أو الرياضية، فإن أي اختلاف في التعبير أو نظم الكلام ينتج عنه اختلاف في التأثير، ويرى أحمد أمين أن الأسلوب أو نظم الكلام ليس إلا وسيلة من وسائل نقل المعاني، لأن جودة الأسلوب ترتقي بالمعاني العادية لتخرجها في أشكال فنية، تستوجب الإعجاب وأحيانا تسيطر قوة وجودة الأسلوب على قوة المعنى والتفكير المنطقي، ومما تجدر الإشارة إليه أن اللغة هي وسيلة التفكير الطبيعية عن الأفكار والمعاني، فكل أديب له فكرة و لاحظ حقيقة وأراد التعبير عنها، فإن الألفاظ هي أداة ذلك عنده، وهذا مما دعا إلى العناية بنظم الكلام وطريقة تأليفه للاستعانة على أداء العواطف، من استعمال للمجاز والخيال والبديع المعنوي أو بالإشارات وحرك اليد، أو بتجويد العبارات أي الخط، فقد يكون الأديب قديرا ولكنه ضعيف من حيث نظم الكلام وتأليفه، وهناك من لا تتناسب مقدرة عواطفهم أو تفكيرهم مع مقدرتهم في التعبير³.

وخلاصة القول عند أحمد أمين فيما يتعلق بالأسلوب أو نظم الكلام، أن الكلام يقاس بالقدرة على نقل الفكرة أو العاطفة نقلا صحيحا صادقا، لأن النظم هو التعبير الخارجي (اللفظ) عن حالة داخلية (المعنى)، فمتى صدق التعبير الخارجي وأدى في

1 - سورة النجم : الآية 23.

2 - أحمد أمين : النقد الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، د.ط، د.ت ، ص 74.

3- ينظر أحمد أمين : النقد الأدبي ، المرجع السابق ، ص 76.

أمانة شرح الحالة الداخلية كان النظم جيداً، كما يجب أن يطابق ذلك أي جمال اللغة والأسلوب المعاني أو العاطفة، إذ تعد اللغة جميلة وبالغة الأهمية إذا كانت صادقة المعني والعواطف، ولعل من أهم صفات الكتابة الجيدة قوة الأداء اللغوي ودقة المعاني وهما العنصران الأساسيان لكل نظم كلام جيد وبليغ.

ونجد أحمد حسن الزيات يعرف الأسلوب قائلاً :

" إن الأسلوب ليس هو المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة ، تلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف ، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة " ¹

أما أحمد الشايب الذي وقف عند الأسلوب محددًا المقصود منه وأنواعه، وعناصره، ومقوماته، وقد وضع له جملة من التعريفات، أوردها في كتابه "الأسلوب" عرفه بقوله : " إذا سمع الناس الأسلوب فهموا منه عنصره اللفظي المؤلف من كلمات فجمل وعبارات وربما اختصوا به الأدب دون سواه " ²، إلا أنه لا يرى في ذلك تعريفاً مدققاً للأسلوب بل الأسلوب عنده معان مرتبة قبل أن تكون أفكاراً منسقة ويكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان. " غير أن أبرزها ، الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام أو تأليفه لأداء الأفكار " ³.

ويعرف الباحث سعد مصلوح الأسلوب " بأنه اختيار (choice) أو انتقاء (sélection) يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إثارة المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة ومجموعة الاختيارات هي التي تشكل أسلوبه " ⁴

1 — أحمد حسن الزيات : دفاع عن البلاغة ، دار الرسالة ، مصر ، د.ط ، 1945 ، ص 125 .

2 — أحمد الشايب : الأسلوب : المرجع السابق ، ص 100 .

3 — نور الدين السد : الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ج1 : المرجع السابق ، ص 13 .

4 — سعد مصلوح : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط 3 ، 2002 ، ص 38 .

أما الباحث عدنان بن ذريل فيرى أن الأسلوب علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره¹.

ومما سبق نخلص إلى صفات وخصائص الأسلوب كما استقرت في المدونات العربية.

أولاً - صفات الأسلوب :

الأسلوب أوصاف شتى منها الموجز أو السهل أو التصويري إلى غير ذلك... من السمات الواضحة في العبارات .

والأساليب أشكال منها الأعم والأعمق، التي تتصل بنفس الأديب ومعارفه، وعواطفه وذوقه وعباراته، وهذا هو صدق التعبير فالإخلاص في تصوير ما في النفس يجعل الأسلوب مثالي، ويصبح مرآة العقل والخلق والمزاج ، وطرق التفكير والتخيل، لأن مصدر ذلك كله هي نفس الكاتب فمنها تنشأ هذه الصفات وهي ثلاثة:

- الوضوح لقصد الإفهام .

- القوة لقصد التأثير .

- الجمال لقصد الإمتاع .

وسنتناول كل صفة بشيء من التفصيل :

1- وضوح الأسلوب : يسعى الكاتب في كل الأعمال الأدبية إلى الوصول

لعقل القارئ ، ولكي يصل إلى ذلك يجب أن يكون واضحاً في تفكيره وتعبيره ، وأن يشمل هذا الوضوح، كل لفظ وكل تركيب ، وبالتالي يكون أسلوبه واضحاً ، " ولكي يكون الكاتب واضحاً، يجب عليه أولاً أن يكون واثقاً من المعنى المحدد المضبوط ، وعليه بعد ذلك أن يعبر عن هذا المعنى وحده ، لا شيء أكثر منه ولا شيء أقل منه"²

1 — ينظر عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 1980، ص

2 — محمد كامل أحمد جمعه: الأسلوب، مكتبة القاهرة الحديثة، ط2، 1963، ص76.

وعلى الكاتب أن يكون واضحاً، يرمي إلى إفادة قرائه ورفع مستواهم الثقافي ، فلا يقف عند تزويدهم بالمعارف جافة ثقيلة ، بل يحسن به أن يكسب معارفه حياة وروعة شائقة ، فالمصدر الأول للوضوح هو عقل الأديب ، فيجب أن يكون فاهماً ما يريد أدائه ، لذا فإن الوضوح صفة عقلية أولاً ، ثم يأتي التعبير اللغوي الذي يتطلب ثروة لغوية ، وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات ، لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره ؛ ولكن قد تكون الفكرة في ذاتها غامضة¹ ، وقد يكون القراء أنفسهم دون مستوى الأديب وعليه يجب على الأديب أن يكتب لهم باللغة التي يفهمونها تاركاً التحرج والاعتزال² ولتحقيق الوضوح يستلزم أمرين :- أحدها متصل بالأفكار نفسها وهو الدقة والثاني متصل بالقارئ وهو الجلاء ، فكيف يتحققان ؟³ : * الدقة أو وضوح الفكرة : يجب أن تؤدي كما هي ممتازة ظاهرة الخواص والمعالم ، سواء كانت قريبة سهلة مثل قول الطغرائي * :

ومن يستعن بالصبر نال مراده *** ولو بعد حين ؛ إنه خير مسعد.

أو لطيفة دقيقة مخترعة مثل قول أبي تمام * :

وإذا امرؤ مدح أمراً لنواله *** وأطال فيه فقد أراد هجاءه.

وإذا كانت الكلمات المألوفة تستطيع أداء الأفكار العادية ، فإن المعاني العميقة القائمة على التحليل الدقيق ، والملاحظة البعيدة لا بد لها من ألفاظ وصور أخرى تلائمها ؛ ووضوح الفكرة ودقتها تقوم على لغة الكاتب ، وكلماته المفردة التي يؤثرها ، لأنها أدل من سواها على ما يريد ، ونذكر هنا بعض القوانين التي تساعد في تحقيق الدقة وتحديد الأفكار :

أ- اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان، والتي تدل على الفكرة كاملة.

1 - ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، بيروت ، د.ت ، د.ط ، ص 186 . (بتصرف) .

2 - ينظر الجاحظ البيان والتبيين : ج 1 ، نشر وزارة الثقافة السورية ، سنة 2001 ، ص 105 .

3 - ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 187 ، (بتصرف) . * هو الحسين بن علي بن محمد

مؤيد الدين الأصهباني شاعر ووزير ، توفي سنة 513 هـ ، ينظر (الأعلام) للزركلي ، مصدر سابق ، ج 3 ، ص

223 . * هو حبيب بن أوس الطائي كنيته أبو تمام شاعر عباسي ، توفي سنة 232 هـ ، ينظر الشعر والشعراء لابن

قتيبة ، مصدر سابق ، ص 07 .

ب- يحسن بالأديب الاستعانة بالعناصر الشارحة، أو المفيدة، أو المخيطة، كالنعت والمضاف إليه، والحال والتمييز والاستثناء، فذلك من عوامل إيضاح المعاني وتحديدتها، مثل: (نهر النيل من أطول أنهار الدنيا) .

ج- ومما يساعد في وضوح الفكرة، استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة المعاني، إذ كانت مقابلة الأضداد، مما يزيد في كل وبيان خواصه، والشرط عدم الغلو فيه مثل: (طول النهار من قصر الليل) .

د- البعد عن الغريب الوحشي، والعمد إلى لغة الناس، وما يستطيعون إدراكه، وهذا يختلف باختلاف الناس وعصورهم .

هـ- ثم المصطلحات العلمية والفنية والاجتماعية والتاريخية، التي وضعت لمعان خاصة محدودة، تكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة وروابط عقلية مشتركة.

• الجلاء أو وضوح التراكيب: بعد أن تتوفر للكاتب دقة الفكرة ووضوحها لابد من مطابقة الأسلوب لإدراك القارئ، تلك القوة التي تظهر في عدة صور¹. ويرى محمد كامل أحمد جمعه أنه لكي يكون التركيب واضحاً، من الضروري المحافظة على التوازن بين الفكرة وكسائها اللفظي².

2- قوة الأسلوب: يعتبر الوضوح أهم صفات الأسلوب، لأنه يحقق الإفهام، ويمكننا القول بأن التعبير الواضح المفهوم، باعتباره الهيكل العظمي لكل تأليف، يجب أن ينمى ويتطور، وينبغي أن تمنح الكتابة الإبداعية نصيباً من الحيوية، أكثر من القدر الذي أردناه معه أن تكون المسألة مجرد فهم وحسب، ومن ثم تبدو أهمية عنصر القوة في الكتابة وسماتها الحيوية، فالفنون الأدبية المميزة به، هي القائمة على المعاني العقلية كالقانون أو الفلسفة... ولا تقتصر فيما يكتب على نشر الحقائق، إنما علينا إيقاظ العقول وهبتها حياة تسمى القوة، فهي صفة العاطفة قبل الأسلوب، وتتبع من نفس الأديب، ويجب عليه الانفعال إذا أراد الحماسة من

1 - ينظر أحمد الشايب: الأسلوب، المرجع السابق، ص 188 وما بعدها. (بتصرف) .

2 - ينظر: محمد كامل أحمد جمعه: الأسلوب، المرجع السابق، ص 79.

ثانيا : قوة التركيب :

يستطيع المتكلم أن يدل على الكلمات ذات المعاني الهامة، بغيرها في النطق وتكرارها، ولذا يجب على القارئ معرفة أهمية هذه المعاني ، بوضع كلماتها حيث تكتسب عناية وانتباها ، ويتم ذلك بالوسائل التالية:

- بتقديم الكلمة وتأخيرها بالنسبة إلى موضعها ، دلالة على القصر أو التفخيم ، أو الأهمية مطلقا مثل " إياك نستعين " ¹
- من أسباب القوة الطباق البديعي ، لأن المقابلة نوع من التحدي ، وهذه قوة للمعاني ، مثل :

لئن ساعني أن نلتني بمساءة *** لقد سرنني أني خطرت ببالك ².

— لما كانت القوة تستلزم السرعة في أكثر الأحيان ، كان الإيجاز لازما في العبارة العامة ، وفي التراكيب الخاصة ، لذلك تجد تراكيب الخطابة مقتضبة سريعة ، كأنها أوامر ، ونذر صارمة .

ويرى عمار حلاسة أنه " يشترط في فصاحة التركيب أن يسلم من ضعف التأليف وتنافر الكلمات كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر *** وليس قرب قبر حرب قبر " ³.

3 — جمال الأسلوب:

الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية لا غنى لها عنه ، ما دام الأديب معنيا بإمتاع القراء ؛ فقد نقرأ نصا أدبيا ، واضح الأفكار ، ومع ذلك نحس أنها نابية عن الذوق، لا تمتزج بالذوق ، هذا النقص ناشئ عن سقم التعبير ، ودليل على خمود الشعور والذوق الأدبي ، وهو سبب يكفي للعناية بجمال الأسلوب ، وموسيقى العبارة ، حتى نرضي ذوق القارئ وخياله ، فوق عواطفه وعقله ، ولا بد من التنبيه أنه ليس من جمال الأسلوب في شيء ، تلك المحسنات البديعية المصطنعة ،

1 - سورة الفاتحة : الآية 4 .

2 — ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 197 . (بتصرف) .

3 — عمار حلاسة : الحديث في المقالة الأدبية وتحليل النصوص ، دار الحديث للكتاب ، الجزائر ، ص 52 .

التي يضعها الكتاب مدارين نقصا ذوقيا ، والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأديب ، فالخيال المصور يدرك ما في المعاني من عمق ، والذوق يختار أصفى العبارات بهذا الخيال الجميل ؛ ونعني بالذوق ، الذوق المهذب¹ . فالجمال " هو الميزة التي تلزم كل أنواع الكتابة الأدبية كيفما عولجت ، وهو صفة أساسية لكل أسلوب أدبي ، سواء كان ذلك الأسلوب خاليا من الزينة أو حاليا بها² وتجمع هاتئ الصفات الثلاث (القوة ، الوضوح ، الجمال) ؛ صفة أخرى متمثلة في :

تداخل الصفات وتعادلها :

فصفات الأسلوب أشبه بأنغام موسيقية ، وهي بتآلفها تكون نغمة تلاؤم ، كذلك لا بد من تآزر هذه الصفات وتتاسقها ، حتى يكون الأسلوب متزنا كاملا ، ليرضي نواحي النفس الإنسانية ، لأن الأسلوب الواضح إذا لم يظهر بالخيال الجميل كان جافا³ .

خصائص الأسلوب القرآني :

الأسلوب القرآني هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ؛ ولقد تواضع العلماء قديما وحديث على أن للقرآن أسلوبا خاصا به مغايرا لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف، و قد كان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره . روى مسلم في صحيحه أن أنيسا أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت فما يقول الناس. قال : يقولون شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيسا أحد الشعراء قال أنيس : لقد سمعت بقول الكهنة فما هو بقولهم وقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون⁴ .

وقد أبرز العلماء مميزات الأسلوب القرآني اختص بها دون سائر الكلام منها :

1 — ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 197 ، (بتصرف) .

2 — محمد كامل أحمد جمعه : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 86 .

3 — ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 199 .

4 — ينظر محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ، دار القلم، الكويت، ط4، 1977، ص 111 .

1- المرونة والمطاوعة:

" (مرن) مَرْنٌ يَمْرُنُ مَرَانَةً وَمُرُونَةً وَهُوَ لِينٌ فِي صَلَابَةٍ وَمَرْنَتُهُ أَلَنَتُهُ وَصَلَبَتُهُ وَمَرَنَ الشَّيْءُ يَمْرُنُ مُرُونًا إِذَا اسْتَمَرَّ وَهُوَ لَيِّنٌ فِي صَلَابَةٍ وَمَرَنْتُ يَدُ فُلَانٍ عَلَى الْعَمَلِ أَيَّ صَلَبْتُ وَاسْتَمَرَّتْ، وَالْمَرَانَةُ اللَّيْنُ وَالتَّمْرِينُ التَّلْيِينُ وَمَرَنَ الشَّيْءُ يَمْرُنُ مُرُونًا إِذَا لَانَ...¹ أما المطاوعة " والمطاوعة الموافقة والنحويون ربما سموا الفعل اللازم مطاوعاً، ورجل مطواعٌ أي مطيعٌ، وفلان حسن الطواعية لك مثل الثمانية أي حسن الطاعة لك، ولسانه لا يطوعُ بكذا أي لا يتابعه وأطاع النبت وغيره لم يمتنع على آكله² .

تفرد القرآن في أسلوبه بإقناع العامة والخاصة على السواء، فظاهره يهدي الجماهير وسواد الناس، ويملاً نفوسهم بالترغيب والترهيب والجمال الأخاذ في تعابيره، وباطنه يشبع نهم الخاصة من الحكمة ويحل العقد الكبرى في الكون ودقة صنعه ونظامه وإبداعه، وإننا لنجد في الأسلوب القرآني مرونة في التأويل، بحيث لا يدانيه أسلوب من الأساليب، وهذه المرونة لا تحتل الآراء المتناقضة وإنما مرونة تجعله واسع الدلالة، ويضيف الرافي ما نصه: " نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليل، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة، التي تخرج بها طبائع العصور "³

فلو أنك اتجهت بالخطاب القرآني إلى الناس على مختلف مشاربهم وأعمارهم، لوجد فيه كل ما يشفي غليله ويراه مقدرًا على مقياس عقله ويلبي حاجته، وهذا ما عبر عنه محمد عبد الله دراز " ... فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوق والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم "⁴ ؛ قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بألطف تعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه

1 - ابن منظور: لسان العرب، مادة (مرن)، المصدر السابق، ج5، ص473 .

2 - ابن منظور: لسان العرب، مادة (طوع)، المصدر السابق، ج4، ص625.

3 - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص206.

4 - عبد الله دراز: النبا العظيم، المرجع السابق، ص113

إلى عقولهم ، لا يلتوي على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان قال تعالى :
ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر"1.

فهو متعة العامة والخاصة على السواء ميسر لكل من أراد، وهذه المرونة من أسباب خلود القرآن وبما أن الأساليب في العربية اعتراها من التغيير والتلون اللفظي والذهني والتطور فإن القرآن بقي خالداً بأسلوبه المتميز وخصائصه الفريدة يتجدد مع العصور ويظهر عجز الإنسان وضعفه مع تطور العلوم، وظل وسيبقى النموذج الأوحى المتفرد في الخطاب ، فهو معجزة بلاغية خالدة ، لا تزال تتجدد عطائها تجدداً يذهل الأجيال المتلاحقة ، بما لا يحتمله كلام بشر ؛ و هو ما أشار إليه صاحب " الظاهرة القرآنية " حين قال : " ... أن القرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا يستطيع أي جيل من الأجيال استفراغ ما فيه من كنوز العلوم والحقائق "2.

و مثال المرونة ما نجده في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "3
فمرونة كلمة " تستأنسوا " في كونها أفادت على إيجازها كل ما من شأنه أن يجعل صاحب الدار يأنس للزائر ، و لا يستوحش منه ؛ ابتساماً أو كلمة طيبة أو حياة حسنة ، أو باقة ورد بين يدي السلام — تستأنسوا و تسلموا — .

2- إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

وهذا المظهر الجمالي هو نتيجة حتمية للخاصية السابقة التي يلتقي ذوق العام والخاص عندها، أما هذه الخاصة فهي تجمع كذلك بين متباعدين ذهنياً ولكنهما متكاملين حقيقة في أسلوب القرآن، يقول عبد الله دراز : " وفي النفس الإنسانية قوتان، قوة تفكير وقوة وجدان وحاجة كل منهما غير حاجة أختها فأما أحدهما فتتقرب عن الحق بمعرفته وعن الخير للعمل به وأما الثانية فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطيّر

1 - سورة القمر : الآية 17

2 - مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، المرجع السابق، ص85.

3 - سورة النور : الآية 27 .

إلى نفسك بهاتين الجناحين فيؤتها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس¹.

فلو تأملنا أسلوب الكلام عند الحكماء في حديثهم عن حقائق العلوم ، للمسنا الصرامة و الجفاف ، على خلاف الشعراء الذين يسعون إلى استثارة العاطفة وتحريك المشاعر، فلا يهم عندهم أن يكون الكلام حقيقة أو تخيلا قال تعالى : "والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم ترى أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون"².

وما دام كلام المتكلم ما هو إلا صورة لمقتضى الحالة الغالب عليه من بين تلك الأحوال ، فكيف نطمع من إنسان هذا الأمر وهو لم يجمعهما في نفسه على السواء ، "... وأما أن أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع الطرفين معا فذلك ما لا تظفر به في كلام البشر فمالك إذن غير كتاب الله لأنه القادر على مخاطبة العقل والعاطفة معا وأن يمزج الحق والجمال معا ...³. ومثال ذلك قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)⁴ ، إنها صورة ملتبسة من عمق الطبيعة الصاخبة ، عرض علمي دقيق لتشكل " البرد " ، في ثوب أدبي قشيب ، صورة ممثلة عن آخرها بالحركة ، وكثرة الأفعال المضارعة والدالة على الاستمرار والتجدد ترسم المشهد بجلاء .

3- القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

نهائيتان يستحيل اجتماعهما معا في أي تصوير أدبي غير القرآن ، فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة ، لا ينفك من أن يحيف عن المعنى قليلا أو كثيرا ، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلا ، فيكون

1- عبد الله دراز : النبأ العظيم، المرجع السابق، ص 113-114

2- سورة الشعراء : الآية 224 وما بعدها.

3 - سورة الأنبياء : الآية 21-22

4 - سورة النور : الآية 43 .

سبيله سبيل من يقول في باب المحاجة صدقوا ، أو كذبوا ، وفي باب الوصف حسن أو قبيح ، وفي الأخبار كان أو لم يكن ، وفي باب الطلب افعل أو لا تفعل ، لا يزيد على ذلك ، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكن يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ببذل جهده في ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ، وما إلى ذلك ما تمس إليه حاجة النفس في البيان ، والذي يعتمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه ، بقدر ما يحيط به علمه لا يجد له بدا من أن يمد في نفسه مداً ، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة ، فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك ، لا يلتفت أن يبعد بين أطراف كلامه ، ويبطئ الوصول إلى غايته ، فتحس بقوة نشاطك وباعةة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال ، ولئن ظفرت بأحد وفق في تقريب تينك الغائيتين إلى حد ما في جملة أو جملتين فتربص به كيف يكون أمره بعد ذلك ، وانظر كيف يدركه الكلل والإعياء ، فينحل من عقدة لسانه ما كان وثيقاً ، ويذبل من زهرته ما كان غضا طريا ، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء ، سل العلماء بنقد الشعر والكلام هل رأيت قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ونظم رائع؟¹ ... وإذا كان أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والرديء والغث المستكره، فالأمر في الكتاب والخطباء أبين.

يقول عبد الله دراز : "فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتين الغائيتين على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن تجد بيانا قدر على حاجة النفس أحسن تقدير فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا مخمصة التفتير يؤدي لك من كل معنى صورة نقية لا يشوبها شيئاً مما هو غريب عنها لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه".²

1- ينظر عمار الساسي : الإعجاز البياني في القرآن ، دار المعارف ، د. ط. ، 2004 ، ص 76 (بتصرف)

2- عبد الله دراز : النبأ العظيم ، المرجع السابق ، ص 111-112

يقول تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)¹ هل يرى قصدا في اللفظ و وفاء بالمعنى أبلغ من هذا !!؟ إن البصر نافذة الشهوة ، و محرك الغريزة الأول ، و إطلاقه إطلاق لغول الشهوة و إثارة للغريزة ، و غضه كسر لصناعة الفساد .

ومنه أن كتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة لم نجد لها مثيل ولو بحثنا السنة البلغاء والفصحاء وأساطين البيان قال تعالى : " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"².

و مما سبق ذكره نتبين أن اختيار الألفاظ في دلالتها إنما جاء متناسقا مع مقتضى الحال وطبيعة المناسبة ، ولو قلبنا الاختيارات اللفظية في الأسلوب القرآني لوجدنا اختيارا دقيقا يفي بالغاية، فلو دققنا النظر في استعمال لفظة " يرمون " في سورة النور " يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ "³ يتبين لنا أن هذا الاستعمال يوحي بدلالة حسية قد لا ينبني عنها ظاهر اللفظ بقدر ما يصوره إحياء التعبير الدقيق ، فالرمي للمحسوسات و هو هنا استعارة للمجردات ، و هذا يخلق مقابلة حسية لصورة من يرمي حصنا بالمنجنيق مثلا فالأسرة حصن لأصحابها ، فيها السكينة والحماية و الأمان ، و لفظة " الغافلات " توحي بعدم لاستعداد لرمي الرماة ، كما توحي بالموادعة و المسالمة ، مما يجعل الطباع السليمة تنفر من هذا المشهد .

4- ضرب الأمثال في القرآن الكريم

وقد اعتمد الأسلوب القرآني على ضرب الأمثال وجعله قاعدة أساسية في التعبير عن المعاني ، " ونجد الأمثال في القرآن الكريم تخلو من المبالغات التي تخرج الكلام عن المعاني المرادة ، إلى جو من الخيال المفرط ، الذي يؤدي إلى تشتت

1 — سورة النور : الآية 30 .

2 — سورة هود : الآية 11

3 — سورة النور : الآية 23 .

الأذهان وذهاب الحقائق ، وخلو الأسلوب عن الإقناع العقلي وإن صحبه شيء من الإمتاع العاطفي " ¹.

ومن أساليب ضرب الأمثال المتبعة في القرآن:

أ - إخراج المعاني الذهنية في صورة حسية تُرسم في المخيلة حية متحركة. خذ هذا المعنى الذهني المجرد وهو أن الكفار محرومون من دخول الجنة وأنهم غير مقبولين عند الله بتاتاً، وتأمل كيف عرضه الله في القرآن: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) ² هكذا في صورة حسية ترسم في الخيال صورة تفتح أبواب السماء وصورة ولوج الجمل في سم الخياط. وسواء أكان الجمل هو الحيوان المعروف أم الحبل الغليظ، فقد استقر في مخيلة السامع استحالة دخول الكافرين الجنة ².

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنك لو أردت أن تعرض لمعنى النفور الشديد من دعوة الإيمان بصورته التجريدية تقول: إن القوم ينفرون أشد النفرة من دعوة الإيمان. أما القرآن فقد عرض فيه الأمر بأسلوب تصويري حسي فقال تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَهُمْ حُمُرٌ مَّسْتَفِرَّةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) ³، فاشترك هنا مع الذهن حاسة البصر وملكة الخيال وانفعال السخرية من هؤلاء الذين يفرون من الحق كما تفر حمر الوحش من الأسد ⁴.

ب - تصوير الحالات النفسية والمعنوية في صورة حسية متخيلة، حية متحركة. فعندما أراد الله سبحانه أن يفصح ويعري أولئك الذين هيا لهم سبيل الهداية، لكنهم رفضوا فأصبحوا في شقاء بما علموا وما جهلوا، فلا هم استراحوا بما هيا الله لهم من سبيل الخير والرشاد، ولا هم استراحوا بإعراضهم عن هذا الخير، فيصور

1 - محمد بكر إسماعيل : دراسات في علوم القرآن ، دار المنار ، القاهرة ، ط 2 ، 1999 ، ص 334 .

2- ينظر سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 34 .

3-سورة المدثر : الآيات 49- 50 .

4-ينظر سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 195.

القرآن حالتهم النفسية والمعنوية هذه في صورة حسية متحركة، قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)¹.

يقول سيد قطب: "إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات، إنسان يؤتاه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع... ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقى والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليلتبع الهوى ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بئس نكد... إذا نحن بهذا المخلوق لاصقاً بالأرض ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارده.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى، والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر"².

ج - عرض القضايا المنطقية والجدلية في أسلوب ضرب الأمثال وذلك في معرض الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته، فالقرآن يأتي بالدليل المقنع من واقع الناس وما يشاهدونه ويعايشونه، لكنه معروض في صورة مؤثرة ومن ذلك قوله تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ



1- سورة الأعراف : الآيتان 175- 176 .

2- سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدر السابق، م3، ص 1396- 1397.

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ¹. ومع أن هذا المشهد كما تلاحظ يتكرر في حياة الناس إلا أنه عرض بأسلوب تصويري وكأنها لوحة طبيعية رسمت عليها النخيل والأعنان المثمرة².

د - إعطاء الحركة لما من شأنه السكون وخلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية فتصبح كأنها أشخاص بارزة لها عواطفها وخلجاتها الإنسانية. تأمل في قوله تعالى: (وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)³، تجد التعبير بالاشتغال يجعل الخيال يتصور أن للشيب حركة في الرأس كحركة اشتعال النار في الهشيم مما يضيف على النص الحياة والجمال⁴.

وأما خلع الحياة على المواد الجامدة فمثاله قوله تعالى (وَالصَّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ)⁵، فالصبح مشهد معروف متكرر للناس، لكنه في التعبير القرآني كأنه شخص حي يتنفس كما يتنفس الأحياء. وكذا قوله تعالى (وَاللَّيْلُ إِذَا يَسَرَ)⁶. وقوله تعالى: (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ)⁷.

وأما تصوير الانفعالات الوجدانية فهو في غاية الروعة، فالغضب والروع والبشرى انفعالات وجدانية تصبح في التعبير القرآني كأنها حية متحركة، فالغضب يسكت كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ)⁸. والروع يذهب ويزول، والبشرى تجيء كما في قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)^{9*}.

1- سورة الرعد : آية 4 .

2- ينظر سيد قطب : التصوير الفني، المرجع السابق، ص 57 .

3- سورة مريم : آية 4

4- ينظر سيد قطب : التصوير الفني، المرجع السابق، ص 66 .

5- سورة التكوين : آية 18 .

6- سورة الفجر : آية 4 .

7- سورة الكهف : آية 77

8- سورة الأعراف : آية 154

* سورة هود : آية 74 .

9- ينظر سيد قطب، التصوير الفني، المرجع السابق، ص 63 .

إلى غير ذلك من أساليب التصوير المتبعة في التعبير القرآني. وطريقة التصوير التي يتبعها القرآن الكريم في التعبير لها فائدة عظيمة في وصول المعاني إلى النفس بشتى الوسائل لأن المعاني إذا عرضت في صورتها التجريدية خاطبت الذهن فقط، أما إذا عرضت بالأسلوب التصويري فإنها تخاطب الذهن والحس والوجدان وتصل إلى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخيل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد.

5 - الفاصلة القرآنية :

اختلف العلماء في تعريف الفاصلة القرآنية.

فقال الرماني: " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني " ¹

وقال ابن منظور: " الفواصل أواخر الآيات في كتاب الله " ².

ويرى بكرى شيخ أمين " أن الفاصلة القرآنية تلك النهاية التي تذيّل الآيات القرآنية ، وهي تردّ حاملة شحنتين في آن واحد ، شحنة من الوقع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمم للآية " ³

وكذا قال الزركشي: " الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع " ⁴.

والفاصلة في القرآن ليست " كقافية الشعر تقاس بالتفعيلات والأوزان وتضبط بالحركات والسكنات ... بل الفاصلة طليقة من كل قيد " ⁵، لأنها متممة لمعنى ومبنى ما قبلها وما بعدها من الفواصل .

ويرى بعض العلماء أن رؤوس الآيات والفواصل مترادفان وهي نهايات الآيات كما قدمت ¹. ويرى آخرون أن الفاصلة أعم، فهي الكلام المنفصل مما بعده. والكلام

1- علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن تح: محمد خلف الله ، محمد زغلول، دار المعارف ط3 1976، ص97.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة (فصل)، المصدر السابق، ج4، ص1101.

3 - بكرى شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1976، ص203.

4- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 1 ، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، ص53.

5 - صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط16، 1985، ص340.

المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس آية ، وكذلك الفواصل يَكُنْ رؤوس آيٍ وغيرها. فكل رأس آية فاصلة ولا عكس.
والفواصل بحسب حروف الروي نوعان:

الأول: المتماثلة:

وهي التي تماثلت حروف رويتها سواء في الحرف الأخير كقوله تعالى: (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)² أو في الحرفين الأخيرين كقوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)³. أو في الأحرف الثلاثة الأخيرة كقوله تعالى: (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)⁴، أو في الأحرف الأربعة الأخيرة كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)⁵.

وقد استقلت الفواصل المتماثلة بإحدى عشرة من سور المفصل ومعظمها مكي⁶.
ويسمى البعض الفواصل المتماثلة بالمتجانسة أو ذات المناسبة التامة.

والأصوب أن تسمى المتماثلة لأن التجانس كما هو معلوم عند علماء التجويد يكون بين حرفين اتحدا مخرجا واختلافا صفة، وكذا التماثل أولى من ذات المناسبة التامة لأن المصطلح يفضل أن يكون أقصر بشرط الدلالة على المعنى بتمامه وقد تحقق هنا (التماثل).

1 - أنظر رأي الرماني وابن منظور في (النكت، ص 97، ولسان العرب ص 1101) .

2- سورة طه: الآيات 2- 5 .

3- سورة الشرح: الآيات 1- 4 .

4- سورة القلم: الآيتان 2- 3 .

5- سورة الأعراف : الآيتان 201- 202 .

6- ينظر محمد الحسنوي : الفاصلة القرآنية، دار الأصيل للطباعة والنشر، حلب، د. ط، د. ت، ص 172.

الثاني: الفواصل المقاربة:

كالميم مع النون في قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)¹ والدال مع الباء في قوله تعالى: (ق وَالْقُرْءَانَ الْمَجِيدَ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)² والتقارب في الحروف يكون بين حرفين تقارباً مخرجاً وصفة كالدال والسين أو تقارباً صفة لا مخرجاً كالدال والجيم.

ويلاحظ أن الفاصلة القرآنية تأتي مكملة للمعنى الذي قبلها ومناسبة له بحيث لو تغيرت اختل المعنى... يدرك هذا كل من عنده نوق أدبي.

حكى الأصمعي قال: "كنت أقرأ: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءَ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وبجني أعرابي فقال: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله. قال أعد فأعدت. فقال ليس هذا كلام الله. فانتبهت فقرأت (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)³ فقال: أصبت هذا كلام الله. فقلت أنقرأ القرآن. قال: لا. فقلت: من أين علمت؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع، ولو غفر فرحم لما قطع"⁴.

وقد يسأل سائل ما الحكمة في أن بعض الفواصل غريبة اللفظ مثل كلمة ضيزى في قوله تعالى: (تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى)⁵، فكلمة ضيزى بمعنى جائرة أو ظالمة، فلماذا عدل عن الكلمات المألوفة إلى الكلمة غير المألوفة.

والجواب على هذا السؤال من وجهين:

الأول: من جهة حسن النظم والتناسق فإن سورة النجم تنتهي فواصلها بالألف المقصورة فناسب أن تكون الفاصلة كلمة ضيزى لا كلمة جائرة أو ظالمة.

الثاني: إن نسبة البنات إلى الله ونسبة الأولاد إليهم أمر في أشد الغرابة فناسب أن يعبر عنه بلفظ غريب تنبيهاً على غرابة القسمة⁶.

1- سورة الفاتحة : الآيتان 3- 4 .

2- سورة ق : الآيتان 1- 2 .

3- سورة المائدة : آية 38 .

4- محمد الحسناوي: الفاصلة القرآنية، المرجع السابق، ص27

5- سورة النجم : آية 22 .

6- ينظر أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، مكتبة هضبة مصر، القاهرة، ط3، 1950، ص 87 .

وقد تختلف الفاصلتان في موضعين والمُحدَّث عنه واحد وذلك لنكتة لطيفة. ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)¹، وقوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)².

ففي الآية الأولى يقول الحق جل وعلا للإنسان إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت أخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوماً وكونك كفاراً، وفي الآية الثانية يقول الحق سبحانه للإنسان ولي عند إعطاء النعمة لك وصفان وهما أني: غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي.

ثم سؤال آخر يطرحه المرء هنا: ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟ والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه³.

وبعد بيان مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم يظهر بطلان القول بالصرف، وأول من قال بهذا الرأي النظام المعتزلي، ومراده بالصرفة أن الله سبحانه صرف همم العرب في زمن الرسالة عن معارضة القرآن، والإتيان بمثله، أي أن القرآن ليس معجزاً لفصاحة ألفاظه وبلاغته وحسن نظمه وإنما لصرف الله العرب عن الإتيان بمثله، ولولا صرف الله العرب عن الإتيان بمثل القرآن لأتوا بمثله، وهم أهل الفصاحة والبيان.

ويرى النظام أن وجه إعجاز القرآن يكمن في إخباره عن الغيوب، ولم يرتض المعتزلة قول النظام وأكثرهم على تكفيره⁴.

1- سورة إبراهيم : آية 34 .

2- سورة النحل : آية 18 .

3- ينظر الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، مصدر سابق، ج1، ص 86.

4- ينظر عبد القاهر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1982، ص

114- 115 (بتصرف).

وقول النظام بالصرفة يرجع إلى قاعدة الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة، وملخصها: أن كل ما رآه العقل حسناً، فهو عند الله حسن ومطلوب الفعل، وكل ما رآه العقل قبيحاً فهو عند الله قبيح ومطلوب الترك، ومن وجهة نظر النظام العقل لا يحيل على العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صرف همهم، فجعل النظام ما رآه العقل حكماً في هذه المسألة وهو الفصل فيها، مع أن مقولته منقوضة بعدة أدلة نقلية وعقلية منها¹:

- قوله تعالى: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)².

فهذه الآية تدل على بطلان القول بالصرفة لأنه لو كان إعجاز القرآن يكمن في صرف العرب عن الإتيان بمثله لما كان في اجتماع الإنس والجن فائدة.

- يلزم القول بالصرفة أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان وحسن النظم، وأن يكون ما قالوه من شعر زمن الجاهلية أبلغ وأقوى من الشعر الذي قالوه بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وحصول التحدي لهم، وليس الأمر كذلك، لو حصل نقص في فصاحة العرب وبلاغتهم وحسن نظمهم للكلم، لكان هذا عذراً لهم وقالوا لمحمد عليه الصلاة والسلام، لقد كان بإمكاننا أن نأتي بمثل القرآن في السابق، لكنك سحرتنا فَحُلَّتْ بيننا وبين الإتيان بمثل القرآن، لكن ذلك لم يحصل، مع حرصهم الشديد على وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا تليق، بل وصفوه بأنه ساحر في كثير من الأمور، لكنهم لم يصفوه بأنه سحرهم في المقدرة على النظم والفصاحة والبيان.

- يلزم القول بالصرفة أن يكون العرب بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم قد سلبوا الحكمة وضعفت أذهانهم وتفكيرهم، وليس الأمر كذلك.

- لو كان كلام العرب قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من شعر أو نثر مثل نظم القرآن لما انبهروا بالقرآن الذي سمعوه من محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان له مزية على كلامهم، لكن واقعهم يشهد بخلاف ذلك، فهذا الوليد بن المغيرة يقول:

1- ينظر الباقلاني: إعجاز القرآن، المصدر السابق، ص 30

2- سورة الإسراء: آية 88.

"والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجنات" وكذا عتبة بن ربيعة قال: ".... والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة"، وكذا يروى في قصة إسلام عمر، قوله عن القرآن: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه" وقوله: "فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام"، إلى غير ذلك من القصص الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أن أسلوب القرآن كان معجزاً ولم يكن العرب قد تعودوه أو سمعوا مثله¹

6 - أسلوب التصوير في القرآن الكريم :

من السمات البارزة للأسلوب القرآني اعتماده الطريقة التصويرية للتعبير عن المعاني التي يريد إيضاحها، وسواء كانت أحكاماً أو قصصاً أو مشاهد ليوم القيامة أو غيرها من المجالات، إن الأسلوب القرآني يحمل قارئه إلى أجواء الصور وكأنه ينظر في تفصيلات مجسمة أمامه، وكأن المشاهد يجري متحركاً ولا شك أن الفكر أو المعنى الذي يراد إيضاحه يكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن مما لو نقل المعنى مجرداً من تلك الصور الحية، وفي هذا الصدد يقول سيد قطب "التصوير الفني الأداة المفضلة في أسلوب القرآن وهو يعبر عن الصور المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشاهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني حياة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهداً وإذا النموذج الإنساني شاخص حي وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"².

يقول أيضاً: "فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية تشخص النموذج أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصور ولا

1- ينظر عبد الملك ابن هشام : السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، ط 3، 1971، ج 1، ص 289، وما بعدها

2 - سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 46.

شخص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن والأمثلة على هذا الذي نقول القرآن كله¹.

"... وقد تجاوز سيد قطب الخلاف الحاد بين البلاغيين حول اللفظ والمعنى، وفي أيهما تكمن البلاغة والذي حال دون إبداعهم في إدراك الخصائص العامة وتوجه سيد إلى القرآن الكريم مباشرة ليرى مكنى البلاغة فيه، فوجدها في اللفظ والمعنى والظلال والسياق والأداء والتصوير"².

"فالتصوير هو التعبير بالصور عن التجارب الشعورية التي مر بها الفنان، بحيث ترسم أمام القارئ الصورة التي أراد الفنان نقلها له، وتكون أداة التصوير هي الألفاظ والعبارات"³.

والقرآن الكريم استخدم طريقة التصوير في التعبير وجعلها الأداة المفضلة في أسلوبه "...فهو يعبر بالصور المحسنة والمتخيلة عن المعنى الذهني للحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة"⁴.

يشرك سيد قطب "... جملة من الأدوات في تطبيق نظريته في الظلال عند تفسيره القرآن الكريم، ويستخدم المصطلحات التالية: التناسق، السحر، الجرس، الإيقاع، الموسيقى التناصب، الظل، التجسيم، التشخيص، التصوير، ولم يجد مصطلحات غيرها يمكن إطلاقها على ما يجده ويستشعره ويتذوقه في الأسلوب القرآني"⁵.

ولقد كان التفسير الجمالي للصور الفنية في القرآن، سمة بارزة عند سيد قطب فحين يتحدث عن الإعجاز في تصوير النماذج الإنسانية في القرآن الكريم نجد هذه "

1 - المرجع السابق ، ص 48.

2 - صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988، ص 14.

3 - صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، المرجع السابق، ص 77.

4 - سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 33.

5 - صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، المرجع السابق، ص 73.

...اللمسات العجيبة من الريشة المعجزة في رسم ملامح النفوس تشير بذاتها، بأن هذا القول المعجز ليس مصدرا بشريا على الإطلاق فاللمسات البشرية لا تستوعب أعماق خصائص النماذج الإنسانية بهذا الوضوح وبهذا الشمول¹.

و كنموذج على عبقرية سيد في الحديث عن التصوير في الذكر الحكيم ، ما جاء في الظلال في معرض الحديث عن الحالة النفسية للكفار يوم القيامة «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»².

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين ، حافلين بالحركة والحياة.

في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتهم التماعاً كاذباً ، فيتبعه صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الري غافلاً عما ينتظره هناك ، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة . . فهذا السائر وراء السراب ، الظامئ الذي يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك . . يصل، فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، المرعبة التي تقطع الأوصال، وتورث الخبال: " ووجد الله عنده " ! الله الذي كفر به وجده ، وخاصمه وعاداه . وجده هنالك ينتظره! ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار؟ «فوفاه حسابه...» هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغطة الفجاءة ، «والله سريع الحساب. . » تعقيباً يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع!³.

1 - سيد قطب: في ظلال القرآن: المصدر السابق، م1 ، ص204.

2 - النور: الآيتان 39 - 40

3 - سيد قطب: في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4، ص2521

7 - جودة السبك:

تعتبر جودة السبك من أهم خصائص الأسلوب القرآني وهي تعني " أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره ، مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر ، مع طول نفسه وتنوع مقاصده ، وافتنانه وتلويحه في الموضوع الواحد " ¹ .

ويرى محمد الصالح الصديق أن " القرآن بلغ أقصى الدرجات ، وأبلغ الغايات في ترابط كلماته وتماسك جملة وتعاقب آياته ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، فإذا فتحت المصحف دون أن يكون لك قصد أو غرض بآية معينة فقرأت ما وقعت عليه عيناك ، وتأملته وجدته وحدة متماسكة الأجزاء ، متألفة الأعضاء ، ... فجل من قال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ " ² .

فالقرآن الكريم يشكل في بنائه وحدة متماسكة، فهو كالجسد الواحد يشد بعضه بعضا. ونخلص مما سبق إلى:

الخصائص العامة للأسلوب القرآني

1 - القرآن الكريم يجري على نسق غاية في البلاغة والفصاحة خارج عن المؤلف من نظام جميع كلام العرب، فله أسلوب يختص به ويميزه عن سائر الكلام، فلا هو بالشعر ولا بالنثر، لكنك لو قرأت بعض آياته شعرت بالنسق العجيب بينها، وكذا بين الكلمات، وحتى بين الحروف فتجد تناسقا عجيبا بين الرخو والشديد والمجهور والمهموس والانفتاح والإطباق... الخ، بحيث إذا قرأت القرآن شعرت بتأثير شديد في نفسك، استمع إلى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

1 - محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،

بيروت، ط 1 ، 2004 ، ص 225 .

2 - الزمر: الآية 28- محمد الصالح الصديق : من روائع الإعجاز، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، (د.ط)،

2005، ص 521.

عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ¹.

2 - يمتاز القرآن باتساق عباراته وبلاغتها وبديع نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها، من غير أن تختل هذه المزية فيه بخلاف كلام العرب، فإنك لا تجد لحكيم ولا لشاعر أو فصيح كلاماً بطول القرآن وعلو شأنه، بل قد يبدع أحدهم في بعض قوله ويخفق في آخر، بل قد يناقض نفسه، أما القرآن فهو كما وصفه الله: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)^{2*}.

3 - الناظر في القرآن يجد فيه القصص والمواعظ والاحتجاج والحكم والأحكام والوعد والوعيد والتبشير والتخويف، ومع ذلك فهو غاية في الفصاحة وبديع النظم بخلاف كلام البشر من نثر أو شعر، فقد يجيد أحد الشعراء في المدح دون الهجاء أو التأبين دون التقريظ أو الوصف دون الغزل، أو عكس ذلك، لكنك لا ترى شاعراً ولا ناثراً يجيد كل ما سبق من الأساليب بنفس القوة، ولذلك ضرب العرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابعة إذا رهب وزهير إذا رغب.³

4 - إن معاني القرآن مصوغة بشكل محكم بديع تصلح لأن يخاطب بها الناس على اختلاف بيئاتهم وتفاوتهم في الثقافة والعلوم بحيث تؤدي الغرض الذي سيقى من أجله، فيتأثر كل سامع لها ويفهم منها مقصدها على اختلاف ثقافة السامعين وعقولهم، استمع إلى قوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)⁴، فالعرب في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام فهموا من هذه الآية، على قلة علومهم، دليلاً على قدرة الله سبحانه وهو: أنه خلق الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وقد غاير الله سبحانه في التعبير بالنسبة لكل

1- سورة الحج : الآية 2، 1.

* - سورة النساء: الآية: 82.

2- انظر الباقلائي، إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص 36، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق ص 10-11، (بتصرف).

3- ينظر الباقلائي : إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص 36-37 ، (بتصرف)

4- سورة الفرقان : آية 61 .

منهما تنويعاً للفظ، وهذا معنى صحيح تدل عليه الآية، وأما عالم اللغة فيفهم أن الآية سبقت للدلالة على قدرة الله، وسمى الله الشمس سراجاً لأنها تجمع إلى النور الحرارة، وسمى القمر منيراً لأنه يبعث بضياء دون حرارة، وهذا المعنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة، وأما علماء الفلك في هذه الأيام، فقالوا: نعم الآية مسوقة للدلالة على قدرة الله، لكن الله سبحانه غاير بين وصف الشمس وبين وصف القمر، فسمى القمر منيراً لا مضيئاً لأنه جسم مظلم يعكس ما يسقط عليه من ضوء الشمس، وهذا صحيح لغة فإننا نقول غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من مصباح في وسطها، أما الشمس فإن الحرارة والضوء ينبعثان منها فناسب تسميتها سراجاً.¹

1- ينظر محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله، مكتبة الفراهي، دمشق، ط4، 1975، ص136-138 (بتصرف)

الفصل الثاني

سورة النور خطاباً جمالياً

سورة النور خطابا جماليا

المحاور

- 1- الترهيب بالعقاب: (من الآية 01 إلى الآية 10).
 - بيان فضل سورة النور (الآية 01).
 - عقاب الزناة (الآيتين 02-03).
 - معالجة رمي الأزواج (الآيات 06-10).
- 2- حادثة الإفك: من الآية 11 إلى الآية 26).
- 3- أساليب الوقاية من الزنا (الآية 27، إلى الآية 34).
 - أدب الزيارة والإستئناس (الآيات 27-29).
 - ضوابط العلاقة بين الرجال والنساء (الآيتين 30-31).
 - الزواج والاستعفاف كبديل عن الزنا والبغاء (الآيات 32-34).
- 4- أثر الإيمان في النفس البشرية: (من الآية 35 إلى الآية 57).
 - الإتصال بالله نور وسكينة (الآيات 35، 38).
 - الابتعاد عن الله ضلال وظلمة (الآيتين 39، 40).
 - المعين الأكبر للإيمان (الآيات 41، 46).
 - الأدب مع الله (الآيات 47، 57).
- 5- أدب الإستئذان ومخالطة الأهل: (من الآية 58 إلى الآية 61).
- 6- أدب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من الآية 60 إلى الآية 64).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِالِإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُ شَرًّْا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرِ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَيِّنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنْ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا

فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾
 وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ
 الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
 أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
 هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ
 لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
 تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ﴿٢١﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ
 أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا
 مَتْنَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ
 وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ
 أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى
 إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيْنَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
 بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾
 وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ
 الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا
 تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصُنَا لَنَبْتَغِيَ عُرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ
 بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنِ الدِّينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ * اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِ كَمَشْكُوفَةٍ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ

فِي رُجَا حَاجَةٍ أَلْزَجَا حَاجَةُ كَاثِبًا كَوَكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
 زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ
 لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
 بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٢٠﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ
 يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢١﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرْبِدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
 يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ نَّحْسَبُهُ الظَّمْثَانَ مَاءً حَتَّى
 إِذَا جَاءَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٣﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي
 خَرْ لُّجِي يَعْشَنُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
 يَكَدْ يَرِنُهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّتْ كُلُّ قَدَمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا
 فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ
 وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٢٧﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢٨﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي
 عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ خَلَقَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ لَقَدْ
 أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ
 وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمْ أَحَقُّ بِأَنْتَوَا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٣٣﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ
 مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّمَا
 كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٣٦﴾ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ
 جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أَمْرَهُمْ لِيَخْرُجَنَّ قُلٌ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ
 أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ

تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٤٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٤٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَيَسْتَغْفِرَنَّ لَهُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ
أَشْتَاكًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاة طَيِّبَةٌ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا
كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَعِذْنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَعِذْنَاكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّن لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ
الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ
إِلَيْهِ فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

سورة النور خطاباً جمالياً

يعتبر القرآن الكريم بسوره المائه و الأربعة عشر، و آياته الستة آلاف والمائتين و الستة و الثلاثين ، معين الجمال ، وموئل الهدى و النور ، و حجة البلغاء و الفصحاء عبر العصور، و الدارس للقرآن الكريم ليجد نفسه بحق في علٍ مثمر، و أسفل مغدق، و تأخذه طلاوته، و تغمره حلاوته ، حتى ليكاد قلبه ينخلع من صدره ويطير ، تماماً كما حدث للمطعم بن عدي رضي الله عنه حين سمع النبي ﷺ " يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ الطور (35) إلى قوله: ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ الطور (38) — فهجم عليه الجمال و هزته الروعة — فقال : كاد قلبي يطير ¹ كيف لا و جمال هذا الكتاب من جمال منزله ، و يعلو شأن الكلام بالنظر إلى قائله ، و قد قال رسول الله ﷺ : (... فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه و ذاك أنه منه) ² * ، و في ما كتب الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم ما يبين العلاقة التي تربط الباحث مع القرآن الكريم : " و اعتقادي أن أي محاولة من البشر لإظهار عظمة القرآن و قدسيته، إنما هي وليدة رغبة إيمانية مخلصه فيما يشبه التأسّي بموقف نبي الله إبراهيم عليه السلام و هو خليل الله عندما قال بروح الواثق من قدرة الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَكُنَ لِيَظْمَنُ قَلْبِي ﴾ البقرة (260) ³ لا سيما و قد جاء عن ترجمان القرآن عبد

1 — محمد الغزالي : فقه السيرة ، تح ناصر الدين الألباني ، دمشق ، دار القلم ، ط7 ، 1998 ، ص197 .

2 — محمد ناصر الألباني : السلسلة الصحيحة ، ج 3 تح أبو عبيدة مشهور بن الحسين ، مكتبة المعارف ،

الرياض ط1 ، 2004 ص247 .

* رواه الترمذي والدارمي في كتاب "فضائل القرآن"، (موسوعة الحديث الشريف)، الإصدار الثاني شركة صخر لبرامج الحاسب، السعودية 1991.

3 — محمد إسماعيل إبراهيم : القرآن و إعجازه العلمي، مصر، دار الثقافة العربية مصر ، د.ط ، د . ت ، ص4 .

الله بن عباس رضي الله عنهما : " إن القرآن ذو شجون و فنون و ظهور و بطون ، لا تنقضي عجائبه ، و لا تبلغ غاياته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، و من أوغل فيه بعنف هوى ¹ .

و من ذلك المعين الذي لا ينضب نغترف برفق — مجانبين العنف و الهوى — قبساً من النور ، نبتز أنواره ، و نسبر أغواره ، و نستجلي أسرارهِ ، و ذلك القبس بل ذلك النور هو سورة النور التي يقول عنها صاحب الظلال : " هذه سورة النور ... يذكر فيها النور بلفظه متصلاً بنور الله ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، و يذكر فيها النور بآثارهِ و مظاهرهِ في القلوب .

و الأرواح ممثلة هذه الآثار في الآداب و الأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة ...

و المحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية ، التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، و ترق إلى درجة للمساة الوجدانية الرقيقة ... و الهدف واحد في الشدة و اللين هو تربية الضمائر و استجاشة المشاعر ، و رفع المقاييس الأخلاقية للحياة حتى تشف و ترق و تتصل بنور الله ² ، إنها نور من حيث أنارت السبيل للمجتمع الإسلامي ليوافقه أهم مشكلة أخلاقية تقوض أركان المجتمعات ، و تهدم شبكة العلاقات الاجتماعية ، و تتخر دولا و حضارات ، تلکم هي المشكلة الجنسية، و التي أفرزت في عصر الإباحية ما بات يعرف بمرض العصر " الإيدز " .

إنه لا يهمنا و نحن نتأق في الرياض الدمثة لسورة النور إلا تلمس مكامن الجمال، و مظاهر الروعة ، و شواهد الإمتاع و المؤانسة ، و إن تعجب فاعجب لسورة تتناول قضية شائكة خطيرة حساسة، فلا تقع عينك إلا على جمال المعالجة، و حسن التأني للنفس البشرية ، و الروعة في بناء سد منيع بين المجتمع الإسلامي و الرذيلة ، سد لا يُظْهَرُ و لا يُسْتَطَاعُ له نقبا ، سورة النور إذا، سورة كريمة و جوهرة نفيسة من جواهر القرآن الكريم، ترتبها في المصحف الشريف (24) عدد آياتها (64) ، ترتب نزولها (102) ، نزلت بعد سورة الحشر ، و هي سورة

1 — جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، لبنان ، د. ط ، د . ت ، ص 448 .

2 — سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م5 ، ص 247 .

مدنية بإجماع العلماء ، قال البغوي في تفسيره : " ... مدنية كلها بإجماع العلماء.¹ " و تقع السورة في جغرافيا القرآن الكريم بين جبلين شامخين هما سورة المؤمنون و سورة الفرقان ، و كلاهما مكيتان — و لا عجب فقد سطع نور القرآن الكريم من بين جبال مكة — و وجه اتصال سورة النور بهما على ما ذكر السيوطي : " ... وجه اتصالها بسورة قد أفلح [يقصد "المؤمنون"] أنه لما قال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ المؤمنون (05) ، ذكر في هذه [يقصد " النور "] أحكام من لم يحفظ فرجه ... و لا ارتباط أحسن من هذا الارتباط و لا تتاسق أبدع من هذا النسق... — و سر ارتباطها بالفرقان — هو أن النور ختمت بقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور (64) ، ثم فصلت هذه الجملة في سورة الفرقان بداية من ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفرقان (02) ، إلى قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان (02)² ، و بمزيد من التأمل نجد مسحة جمالية فذة في سر هذا الترتيب هو أن "المؤمنون" بحاجة إلى "النور" ليكون لهم "فرقانا" يفرقون به بين الحق و الباطل ، وسميت السورة بالنور لورود قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، والنور لغة " الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار."³ و بهذا يتناسق الاسم مع مضامين السورة من حيث أنها أعانت بانتشار ضوئها على إِبصار حقيقة الأمور في المشكلة الجنسية التي عالجتها، و لعلها سميت بالنور لأن المشكلة الجنسية غالباً ما يتحدث عنها سرا و خفاء ، و الملاحظ أن "النور" كلها حروف مجهورة ، فقد جهرت السورة بما لاكتته الألسن سرا، و كشفت من حيث أراد الناس الخفاء .

و من أجل المعالجة الجمالية و الأسلوبية للموضوع — و هو موضوع الرسالة— من الضروري تقسيم السورة إلى محاور كبرى و أخرى فرعية لسببين

1 - البغوي : معالم التنزيل ، تح محمد عبد الله النمر و آخرون ، ج6 ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، السعودية ، ط4 ، 1997 ، ص7 .

2 - جلال الدين السيوطي : أسرار ترتيب القرآن، تح محمد عبد القادر دار أبو سلامة، تونس، د.ط، 1986 ، ص14 ، بتصرف .

3 - أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية ، المصدر السابق ، ج1 ، ص333 .

رئيسين هما : أولاً ليسهل تناول السورة ، إذ أن كل موضوع يبتغي أسلوباً وذوقاً معيناً ، فغاية آيات الكتاب الكريم هو تهيئة النفوس لحسن التلقي عن الله ، و ثانياً ليسهل التحكم بالسورة فلا تترك جزئية من الجزئيات إلا و للدراسة فيها نصيب .

و هذه المحاور هي :

1 - الترهيب بالعقاب (من الآية : 01 ، إلى الآية : 10) :

— بيان فضل سورة النور ومنزلتها (الآية 01)

— عقاب الزناة (الآيتين 2 — 3)

— عقاب قذف المحصنات (الآيتين 4 — 5)

— معالجة رمي الأزواج (الآيات 6 — 10)

2 - حادثة الإفك (من الآية : 11 ، إلى الآية : 26) :

3 - أساليب الوقاية من الزنا (من الآية : 27 ، إلى الآية : 34) :

— أدب الزيارة و الاستئذان (الآيات 27 — 29)

— ضوابط العلاقة بين الرجال و النساء (الآيتين 30 — 31)

— الزواج و الاستغفار كبديل عن الزنا و البغاء (الآيات 32 — 34)

4 - أثر الإيمان في النفس البشرية (من الآية : 35 ، إلى الآية : 57) :

— الاتصال بالله نور و سكينه (الآيات 35 — 38)

— الابتعاد عن الله ضلال و ظلمة (الآيتين 39 — 40)

— المعين الأكبر للإيمان (الآيات 41 — 46)

— الأدب مع الله (الآيات 47 — 57)

5 - أدب الاستئذان و مخالطة أهل (من الآية : 58 ، إلى الآية : 61) .

6 - أدب المؤمنين مع رسول الله ﷺ (من الآية : 60 ، إلى الآية : 64) .

و قد بدأت السورة بأنواع من الأحكام و الحدود و انتهت بدلائل التوحيد .

— المحاور الأول : الترهيب بالعقاب (من الآية 01 : إلى الآية :

10) : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا... وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

العنصر الأول : بيان فضل سورة النور و منزلتها ، (الآية 01) : ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا... لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

من شأن النفوس التي خبت إلى بارئها و أئنت في حناياها ثمار التوحيد، إذا قرع سمعها وعيد الله و عقابه أن تخشى و تتقي، و الزنا من الفواحش التي تأبأها الطباع السليمة — فطرة الله التي فطر الناس عليها— و تفر من مقرباتها فرار العاري بسوءته ، و قد جاءت فاتحة السورة تهديدا بالعقاب ، وإشهارا للجريمة على رؤوس الأشهاد ، ودعوة للتحقق و التثبت صونا للأعراض و الأحساب ، و قد انفردت النور بافتتاحية لم تشاركها فيها غيرها من سور القرآن الكريم ، قال سيد طنطاوي : " افتتحت سورة النور بافتتاح لم تشترك معها فيه سورة أخرى من سور القرآن الكريم."¹ و إذا علمنا أنه من البلاغة حسن الابتداء من حيث التأنق في الكلام و إخراج مخرجات يتدفق معه الحسن و البهاء ، فإن براعة الاستهلال هنا تسكر الأبواب " ... وبراعة الاستهلال هي أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ، و يشير إلى ما سبق الكلام لأجله "² و قد كانت كلمة ﴿سُورَةٌ﴾ مستهل "النور" ، و كونها نكرة يثير عند السامع استفهاما عن ماهيتها ، و هو المطلوب فالسورة تثير عدة إشكالات ، و السورة لغة " ... اسم للمنزلة الشريفة ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، و منه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة *** ترى كل ملك دونها يتذبذب "³

و ورود كلمة { سورة } هنا يناسب الحال المتكلم فيه و المتعلق بأحكام و آداب يذكر بها ذوو النفوس الشريفة من المؤمنين لينالوا الدرجة الشريفة في الدنيا و الآخرة ، وهي تشير إلى تعلقها بأمر الله للنبي في آخر سورة "المؤمنون" ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاستجيب دعاؤه ﷺ، فأُنزلت سورة النور رحمة

1 — محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط ، مطبعة السعادة ج 1 ، القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ص 3043 .

2 — السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ص 354 .

3 — الشوكاني : فتح القدير ، ج 5 ، مراجعة يوسف الغوش دار المعرفة ، بيروت ، ط 3 ، 1997 ، ص 182 .

* هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، توفي سنة 18 ق هـ. ينظر شرح المعلقات العشر للشيخ أحمد الأمين الشنقيطي، تح محمد الفاضل، المكتبة العصرية، بيروت دت، دط ، ص 219 .

بعباده المؤمنين ، و هنا نكتة أخرى إذا ذهبنا مذهب القائلين بخبرية ﴿سُورَة﴾ وهي " ... هذه { السورة } و أشير إليها بهذه تنزيلاً لها منزلة الحاضر المشاهد ..."¹ و عن خبرية ﴿سُورَة﴾ يقول ابن عاشور " ... يجوز أن يكون ﴿سُورَة﴾ خبر عن مبتدأ مقدر دل عليه ابتداء السورة فيقدر هذه سورة ، واسم الإشارة المقدر يشير إلى حاضر في السمع وهو الكلام المتتالي"² ثم أردفت ﴿سُورَة﴾ بمصدرها و حكمها وصفاتها ، تشويقاً للسامع ، و ترتيباً للأمور في ذهن المتلقي ، و تهيئة للنفوس للتلقي عن الله، فكلمة ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ تسند الإنزال إلى ذات الله تعالى إذ الضمير يعود عليه ، و في ذلك تشريف و تنزيه و رحمة بالخالق على مخلوقه ، و كلمــــة ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ حكم يتعلق بغاية الإنزال و هو التنفيذ تعبداً و تقرباً، و الفرض لغة " الحز في الشيء، و الفرض أيضاً ما أو جبه الله تعالى لأن له عالماً و حدوداً ."³ و من المعلوم كما ذكر في أسباب النزول للسيوطي أن سورة النور لم تنزل جملة واحدة، واستعمال كلمة فرض — وهي الحز في الشيء — مع الإنزال يرسم صورة بيانية مشرقة لاقتطاع النور على حسب الحوادث، و السياق الذي بعدها و تكرار الإنزال يدعم هذا المذهب، و يرى صاحب التحرير و التنوير أن كلمة ﴿فِيهَا﴾ " ... استعارة مكنية بتشبيه آيات هذه السورة بأعلاق نفيسة تكتنز ويحرص على حفظها من الإضاعة و التلاشي كأنها مما يجعل في خزانة و نحوها"⁴ و ﴿آيَاتٍ﴾ جمع آية و هي لغة بمعنى العلامة و هي " ... قطعة من الكلام القرآني دالة على معنى مستقل ..."⁵ فهي بذلك أربع و ستون علامة نورانية في طريق المجتمع الإسلامي اشتملت على الهدى و التوحيد و الحجج و التمثيل، و﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات و هو مجاز عقلي لأن البيّنونة في المعاني و ليست في

1 - الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، ج13 ، دار الفكر ، بيروت ، د. ط ، 1983 ص308 .

2 - الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، ج9 ، دار سحنون للنشر ، تونس ، د. ط ، 1997 ، ص182 .

3 - زين الدين الرازي : مختار الصحاح ، ج1 ، تح مصطفى ديب البغا ، دار الهدي ، الجزائر ، د. ط ، 1990 ، ص238 .

4 - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق، ج9، ص 425 .

5 - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق، ج9، ص 425 .

الآيات ، و لما أوضح الأسلوب القرآني أن السورة من لدن الله و آياتها من عنده، واضحة سافرة ليس عليها نقاب و ليس دون معانيها حجاب، جاءت كلمة ﴿ لَعَلَّ ﴾ لتبرز إشفاق الله على عباده و رحمته بهم، وجاءت ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بصيغة المضارع لتفيد التجدد و الاستمرار فالمرجو من العباد أنه كلما دعت الحاجة تذكروا هذه الأحكام و تلكم الآداب. و هذه الآية الأولى افتتاحية متماسكة جدا دلت على مجموع السورة ابتداء و نوهت بكل جزء منها انتهاء .

و قد عالج المحور الفرعي الأول عقاب الزناة، و ساوى بين الرجال و النساء في العقوبة، و شرع العقاب مائة جلدة تأديبا للفاعل، و ردعا للطامع ، و عبرة للسامع، و طالب بالحزم في تنفيذ العقاب دون رأفة مخلة بدين الله إذ أن في القصاص حياة للمجتمع كله، و طالب أن يكون العقاب على مرأى و مسمع من طائفة من المؤمنين، زيادة مبالغة في صرف الشرفاء و ذوو المروءات عن هذا الإثم، ثم قطع السبيل بين المؤمنين و بين الزناة بان حرم الارتباط بهم .

العنصر الثاني: عقاب الزناة، (من: الآية 02، إلى الآية 03)

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ... وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، بعد تلك الافتتاحية من الآية الأولى انتقل الخطاب القرآني مباشرة إلى الشروع في الإدانة و تحديد العقوبة و كفيئتها ، ذلك أن جريمة الزنا لا تحتاج إلى كثير مقدمات ، و لا تحسم بأنصاف الحلول ، و لا تحتل إرجاء أو تساهلا ، و كأن هذه البداية المتوثبة وحدها تنوّه بضرورة المسارعة بالحسم بكل عزم و مضاء ، و ذلك " ... ابتداء كلام و هو كالعنوان و الترجمة في التبويب فلذلك أتى بعده بالفاء المؤذنة أن ما بعدها في قوة الجواب ، و أن ما قبلها في قوة الشرط ... ¹ ، وجاء تقديم الزانية على الزاني إشارة بديعة ممن يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير؛ فالمرأة هي محرك الشهوة بترجها وخروجها سافرة عارضة نفسها لحما على العيون الجائعة، ولكون العار بها أشنع ، وبدو الجرم بها أسرع ، لدواعي الحمل و المخاض، كما جاءت اللفظتان معرفتان بالألف و اللام ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ ، مما يفيد الاستغراق للجنس ؛ فكل من اقترف

الجريمة زان سواء كان ذكراً أو أنثى، كبيراً أو صغيراً، وجيهاً أو وضيعاً، حراً أو مملوكاً. ولاحظ التوقع المقصود لحرف العطف ﴿فَاجْلِدُوا﴾ ، الذي يفيد الترتيب بدون تراخ، فالجزم إذا اتضح وبان ، كانت المسارعة إلى تنفيذ الحد بغير تراخ ، مسارعة إلى عزل المجتمع عن هذه الرذيلة ، و" في لفظ الجلد ، إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم..."¹ ، وذلك أن الحد هنا مقصود به التأديب و الردع لا القتل ، و ﴿كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا﴾ ، مبالغة في التأكيد على أن يشمل العقاب الصارم و العادل كلا منهما ، و تنكير ﴿كُلٌّ وَاحِدٌ﴾ ، تغليب للمذكر كما يقتضي لسان العرب، غير أنه أيضاً تلويح بإفلاس رجولة الزاني في سوق الرجال ، إذ أن المرأة كونها زانية يجعلها حبيسة بيتها ، من حيث لا يستطيع الرجل الزاني ذلك ، إذ لا بد له من مباشرة الأعمال ليدفع الجوع و الحاجة فبأي وجه يقابل الناس ، و في التقديم و التأخير زيادة جمال ، فتقديم الفعل ﴿فَاجْلِدُوا﴾ ، تنويه على التركيز على إقامة الحد لا على المجلود فيجب إقامة الحد على الجاني كائناً من كان ، و حسبنا في هذا المقام قول الرسول الكريم ﷺ : [..وَأَيُّمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا]* كما أن الجزاء لا يكون إلا خبراً على مذهب النحويين ، و ﴿مِئَّةَ جَلْدَةٍ﴾ تعليق العدد بمحل إيقاع العقوبة و هو الجلد ، فما ينبغي أن تصرف عنه جلدة واحدة أو يزداد عن المائة .

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ﴾ ، بدلاً عن و لا ترأفوا لأن الأخذ " حقيقته الاستيلاء و هو هنا مستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين و امتلاكها إراداتهم بحيث يضعفون عن إقامة الحد " ² و الرأفة لغة "أشد الرحمة وأرقها..."³ و الباء في ﴿بِهِمَا﴾ ، سببية أي لا تأخذهم الرأفة بسبب جلدهما . "...النهى عن أن تأخذكم رأفة كناية عن النهي عن اثر ذلك وهو ترك الحد أو نقصه"⁴ ذلك لأن الرأفة من الطباع الإنسانية والنهى

1 - أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري : الكشاف ، ج4 ، دار الكتاب ، بيروت ، د. ت ، د. ط ، ص375.

* رواه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، رقم الحديث 4373.

2 - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص429 .

3 - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، ج1، المصدر السابق ، ص381 .

4 - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص429 .

عنها تحميل بما لا يستطيع فلا يتعلق بها النهي فما جعل الله علينا في الدين من حرج ، و إذا كانت "... الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ."¹ كما قال الجرجاني فإن عبارة ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، تلاؤمها مع النهي عن الرأفة أثناء إيقاع العقوبة في كون الرأفة في هذا المحل مذمومة كونها تعطيل لدين الله ، ثم أتبعها بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ، و في ذلك منتهى الروعة في استفزاز النفس المؤمنة في عدم التسامح في حدود الله، فالجملة السابقة شرط محذوف الجواب ، إذ أن السياق الذي قبله يشير إليه ، فالمعنى إن كنتم تؤمنون بالله فلا تأخذكم بهما رأفة في دين الله؛ كقول أحدهما وهو يريد دفع مخاطبه للوفاء بعهده دون تردد ، فيجعل رجولته على المحك حين يقول له : إن كنت رجلاً فأنجز وعدك ، و مجيء عبارة ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، نقلة للنفس المؤمنة من إطارها الزماني و المكاني إلى أفق أرحب و أوسع ، فإذ بها ترى العقاب الأليم في الدنيا تطهير للجاني رجاء النعيم المقيم في الدار الآخرة ، فتسارع إلى إيقاع العقاب كمن يسارع في غسل الثوب رجاء تخليصه من انتشار الدنس .

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا ﴾ ، فاللام هنا للأمر و تفيد تأكيد أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، إنها دقة بالغة في وضع الكلمات ، فهو لاء سيشهدون عذاباً لا عرساً أو نحوه ، فلا بد أن يكون الإيمان زادهم في هذا المشهد ؛ إيماناً يرى في الحدود حكمة بالغلة من العزيز الحكيم "... و أوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين لأن الفاسق من صلحاء قومه أخجل "² و الطائفة كما ذكر البقاعي : "... جماعة يمكن إطفائها أي تحلقها و حفوفها بكل واحد منهما "³ فكأن هذه الكلمات القليلة العدد الكثيرة المدد ، ترسم مشهداً ثلاثي الأبعاد ، فالزانية و الزاني في وسط جمع

1 - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، د. ط ، 1991 ، ص 16 .

2 - فخر الدين محمد بن عمر الرازي : مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج11، ص 218 .

3 - إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ج5، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ط ، 1995 ، ص 439 .

يشهدون عقابهما على يد جلاد يرى في جلدهما امتثالاً لأمر الله ، و تطهيراً لنفسيهما من دنس المعصية .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً... عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال الشوكاني : " ... المقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا و هذا أرجح الأقوال ... " ¹ و تقديم الزاني هنا على الزانية — عكس الآية السابقة حين تقدمت الزانية على الزاني — ضرورة يقتضيها السياق ، فالحديث هنا عن النكاح و الرجل هنا هو الأصل ، فهو الذي يطلب ود المرأة ابتغاء نكاحها فانظر كيف يراعى السياق ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ مريم (64) ، و بما أن الحديث هنا أشبه بالتوطئة بين يدي الحكم تكرر ذكر الكلمات المنفرة من الزنا و الشرك ، و كثرت الحروف المجهورة ليكتمل المشهد كأساس متين يبنى عليه حكم تحريم نكاح الزواني ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فالزاني لا يرغب في العفاف ، و الزانية لا يرغب بها الأعداء ، و لا ينبغي للمؤمنين الذين يقولون ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان (74) ، لا ينبغي ارتباطهم بمن أصبح الزنا لهم عادة . و هكذا بدأ هذا المحور الفرعي الأول بإشهار العقاب و انتهى بعزل الجناة عن المجتمع، بل و جعل للزانيات مخرجاً بارتباط الزناة بهن، فانظر إلى آثار رحمة الله بالجناة و التقاة .

العنصر الثالث: عقاب قذف المحصنات ، (من : الآية 04 ، إلى : الآية 05)

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، تناول المحور الفرعي الثاني قضية لا تقل خطورة عن الأولى و تنذر شبكة العلاقات الأسرية والاجتماعية بالتماهي و الفساد ، تلك هي قضية قذف المحصنات ، فالأسرة آية من آيات الله ، وقد أولاه الإسلام عناية فائقة لأنه في صلاحها صلاح الأمة ، و كي لا يظل هذا العش الآمن عرضة لمخالب آكلات الأعراض ، كانت الوقاية أبلغ أسباب العلاج ، فقد رتب الله على القذف دون بيئة من شهداء أربع ، عقاباً لللسان يتلجلج مرات ومرات قبل الجرأة على الشهادة مما يجعل الستر أمن من البوح .

" الرمي حقيقته قذف الشيء من اليد ... و حذف المرمي به في هذه الآية لظهور المقصود بقريئة السياق ... و المحصنات هن المتزوجات من الحرائر ... والمحصن اسم مفعول من أحصن الشيء إذا منعه من الإضاعة و استيلاء الغير عليه ، و حذف متعلق الشهادة لظهور أنهم شهداء على إثبات ما رمى به القاذف¹ فالرمي هنا هو القذف بالقبيح الشنيع ، و هو تشبيهه مليح هنا ، فكأن اللسان تحول إلى منجنيق ، و الكلمات إلى أحجار ، والنساء في خدورهن إلى حصون ، و غاية الرامي أن يحدث في الحصن ثلثة ، و حـ ر ف العطف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد الترتيب مع التراخي تدليل على عدم المسارعة في العقاب حتى التثبت، فليست الأسر و الأعراض طعمة تلوكها الألسن ، و الملاحظ أن الجملة المعطوفة جاءت بصيغة النفي ﴿ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ، إذ لا يمكن في مجتمع يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يشهد أربعة من العدول جريمة الزنا بكل تفاصيلها إلا إذا وقعت في قارعة الطريق ، و هذا محال في مجتمع دينه الحياء ، و الشهداء الأربع زيادة تجسيد للحصن ذي الجهات الأربع ، ثم عطف على الجملة السابقة بحرف العطف ﴿ ف ﴾ — ترتيباً بلا التراخي — فقد تأنى في الأولى للتثبت ، و سارع في الثانية لقطع السبيل على الفضيحة و حماية للحصن من الانهيار ، و كان عقاب شهداء الزور قريباً من عقاب الزناة إذ كلا الأمرين مداره العرض ، مع إسقاط الشهادة في المستقبل ليتحول الشهداء إلى مشهود عليهم، فانظر كيف أدت حروف العطف دوراً حاسماً في تجسيد الصورة ، و اختصرت كلاماً طويلاً ، و أشاحت من الإيجاز وشاحاً جميلاً ، و حصر الفسق في هؤلاء ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، زيادة تنكيل ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا... ﴾ ، و الاستثناء هنا مناسب للفاصلة التي انتهت بها الآية ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فمن رحمته أنه غفر لهم ما تابوا و أصلحوا ، و من رحمته أنه لم يذكرهم بذنبهم ، فاستعمال اسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ ، يعود على ما مضى من رمي المحصنات و الجلد و التفسيق ، و انظر إلى الموقع الحسن لحرف العطف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، كيف صور إسراع الله بالصفح الجميل

عن عباده المذنبين ، و بهذا يكتمل المشهد اكتمال حرب وضعت أوزارها وباشر أهلها بالسلام .

- العنصر الرابع : معالجة رمى الأزواج (من الآية: 06، إلى الآية: 10)

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ... وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ ، إنه لأمر خطير أن تتداعى الأسرة من داخلها ، و بعد أن كانت القذائف من خارج الحصن ، فإذا بأهل الحصن يخربونه بأيديهم و لخطورة هذه القضية و حساسيتها أخذت المساحة الأكبر، و شملت 50 % من المحور الأساس ، لفظة ﴿ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، لها ظلال مؤثرة في الحياة الزوجية ، و لا يمكن تعويضها بكلمة أخرى، كنسائهم مثلاً ، ذلك أن لفظة الزوج تشير إلى شقك الآخر، فالرامي حين يرمي إنما يرمي شقه الآخر ، و بعبارة أخرى يرمي نفسه ، و لأنه في الغالب يتعذر وجود أربعة شهداء على خيانة زوجية، كانت شهادة الزوج معادلة لشهادة الشهداء الأربع زائداً شهادته هو، و حصر الشهادة في أهل البيت لا يخفى ما فيه من الستر و محاصرة الفضيحة فجاءت كلمة ﴿ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ ، على قول النحويين أن المستثنى داخل في المستثنى منه ، كأنهم أخرجوا من جملة الشهداء لتصان الأسرة من اطلاع غير الأمناء عليها " ... ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ ، فإن أنفسهم بدل من شهداء لأن لهم الخبر.¹ و يأتي حرف العطف ﴿ ف ﴾ ، مرة أخرى ليشير إلى سرعة لملمة هذه القضية، و في استخدام الضمير في قوله : ﴿ أَحَدِهِمْ ﴾ ، بدل أحد الأزواج إشارة لطيفة إلى الستر المطلوب في مثل هذه القضايا " و في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، حكاية للفظ اليمين مع كون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة، أي يقول : إني لمن الصادقين فيما ادعيت عليها.² و أن يراعى الضمير في سياق الغيبة إشارة من طرف خفي إلى التثبت ، نزولاً به منزلة الغائب .

1 - أبو عباس محمد بن يزيد المبرد : المقتضب ، تح حسن حمد ، ج 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ،

1999 ص 282 .

2 - الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج 9، ص 439 .

و يسمى اليمين هنا شهادة لما يترتب عن ذلك من العقاب و الفضيحة ، و ليدرك الزوج حجم المسؤولية في ما هو مقدم عليه ، ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ : " الشهادة، قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر"¹.

﴿ وَالْخَامِسَةُ ﴾، مبتدأ خبرها ﴿ أَنْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ، ومجيء اللعنة هنا والغضب في الآية التي تليها ليس اعتباطاً، فاللعن لغة : "ل.ع.ن، اللعن الطرد والإبعاد من الخير"² فمن شأن شهادته هذه — إن صحت — أن تجعل الرجال ينفرون من هذه المرأة و يلعنونها و يبعدونها عن أزواجهم .

"﴿ وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ ، مجازه ، عنها الحد والرجم."³ و يذراً من ذراً وهو لغة كما جاء في اللسان " (ذراً) الذرءُ الدَّفْعُ ذَرَأَهُ يَذْرُؤُهُ ذَرِئاً وَذَرَأَةً دَفَعَهُ"⁴ و يفهم من صاحب تاج العروس أن الذراً هو شدة الدفع أو الدفع الشديد " قال أبو ذؤيب * :

إِذَا نَهَضَتْ فِيهِ تَصَعَّدَ نَفَرُهَا ... كَقَتْرِ الْغَلَاءِ مُسْتَدِرٌّ صِبَابُهَا
استعار الذرّ لشدة دفع السهام⁵ أي يبعد عنها العذاب بشكل قاطع أن تشهد مثله على كذبه و براءتها، و يلاحظ هنا تكرار الطباق — الجمع بين ضدين — ﴿ الصَّادِقِينَ ... الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ليجسد حالة التنازع بين الزوجين ، و لتثبت الزوجة

1 — أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح: محمد سيد كيلاني، دار

المعرفة، بيروت، د.ط، دت، ص 140

2 — فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، المصدر السابق، ج 11، ص 284 .

3 — السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 84 . * هو جويلد بن خالد بن محرت بن زبيد، توفي سنة

67 هـ، ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، للدكتور عفيف عبد الرحمان، دار

المناهل بيروت، لبنان، ط 1 ، 1996، ص 92.

4 — ابن منظور : لسان العرب، مادة (ذراً)، المصدر السابق، ج 2، ص 959 .

5 — أبو فيض محب الدين مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، ج 8، تح علي شيري، دار

الفكر، بيروت،

1994، ص 2819 .

براعتها جاءت كلمة ﴿ غَضَبَ ﴾ ، بدل اللعن في الآية السابقة ، ذلك لأن الغضب "مِنَ اللَّهِ سُخْطُهُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ وَإِعْرَاضُهُ عَنْهُ وَمَعَاقِبَتُهُ لَهُ"¹ .
 و ختم هذا المحور بما يوجب لله الحمد و الثناء ، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ ، و ﴿ لَوْلَا ﴾ معناها امتناع الشيء لوقوع غيره ، فقد امتنع العذاب العظيم الذي كان من الممكن أن يصيب الزوج إن لم تصح شهادته ، أو الزوجة إن صح عليها الجرم و هذا الامتناع بفضل الله و رحمته ، و في الباب كلام نفيس لابن عاشور نقله على طوله لفائدته " وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ ، محذوف لقصد تهويل مضمونه فيدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط الذي كان سبباً في امتناع حصوله ، و التقدير : لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض ، ولولا رحمة الله بكم فقدر لكم تخفيضاً مما شرع من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر ، لما استطاع أحد أن يسكت على ما يرى من مثار الغيرة ، فإذا باح بذلك أخذ بعقاب وإذا انتصف لنفسه أهلك بعضاً أو سكت على ما لا على مثله يغضى ، ولولا أن الله تواب حكيم لما رد على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة و قبول الشهادة ، و في ذكر وصف « الحكيم » هنا مع وصف ﴿ تَوَّابٌ ﴾ إشارة إلى أن في هذه التوبة حكمة و هي استصلاح الناس² ، و حذف جواب لولا هو من باب الرفق ، فالتذكير بالفضل دون ذكر سببه زيادة فضل ، و رب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به ، "ولا يجوز الحذف حتى يكون المحذوف معلوماً بما يدل عليه من متقدم خبر أو مشاهدة حال"³ . و الحذف معروف عند العرب ، يقول عبد الرحمان بن أبي بكر المعروف بجلال الدين السيوطي : "من سنن العرب الحذف و الاختصار ، يقولون : والله أفعلُ ذاك ، تريدُ لا أفعل . وأتانا عند مَغِيبِ الشمس —س— ، أو حين أرادت ، أو حين كادت تَغْرُبُ ، قال ذو الرمة :

1 — ابن منظور : لسان العرب، مادة (غضب)، المصدر السابق ، ج4، ص992 .

2 — الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق ، ج9، ص492 .

3 — المبرد : المقتضب ، المصدر السابق ، ج1 ، ص77 .

فلما لبس الليل أو حين نصبت *** له من خذا أذانها وهو جانح¹ *
و هكذا ينتهي المحور الأول بإعلان توبة الله على عباده ، و إظهار مدى حكمته فيما شرع و قضى ، و يلاحظ في هذا المحور أن أكثر من 60 % من أفعاله جاءت بصيغة المضارعة لتفيد التجدد و الاستمرار ، و هو الأنسب في تقعيد الأحكام ، و لأنها لا تختص بعصر من العصور و لا بزمن من الأزمان ، ولكنها صالحة ما تعاقب الليل و النهار ، و ما ظل في الحياة الدنيا إنسان ، و يعتبر المحور الأول توطئة لما يأتي بعده ، فقد قعدت فيه القواعد ، و المحاور التي بعده بمثابة تطبيقات تلك القواعد.

- المحور الثاني: حادثة الإفك (من: الآية 11 إلى: الآية 26)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ... لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

إن الظاهرة الكبرى التي تتجلى لنا هنا هي تجسيد المعاني و سلخ الشخص من لديها، فالمحور يتحدث عن قصة أو حادثة مروعة حدثت في دنيا الناس ، و قد تتكرر ما بقي الأفاكون على وجه الأرض. و لأن الحادثة المتناولة مست بيتا يفيض الطهر من جناباته ، و يتنزل الوحي في باحاته ، و لأن صاحب هذا البيت قدوة العالمين ، و إمام المتقين ، وخاتم الأنبياء و المرسلين ، و الحادثة المروعة قذف في أحب نسائه إلى قلبه ، و آثرهن عنده ، الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها، و لأن هذه الفرية هزت المجتمع الإسلامي من أعماقه ، لأجل ذلك كله كان تجسيد المعاني أوقع في النفوس ، و أبلغ في كشف الملابس ، و فضح الجناة . و لنتطلع من شرفات المعاني القرآنية على بساتين الجمال ، من الضروري بمكان أن نعرف القصة أولاً من لسان أصحابها ، و ننقل عن الواحدي الحادثة على طولها ليتضح الإعجاز و الإيجاز في الكتاب المبين : " ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت عائشة رضي الله عنها :

1 - عبد الرحمن جلال الدين السيوطي : المزهري في علوم اللغة، ج1 ، ضبط و تصحيح محمد جاد المولى و علي

البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، (د ت) (د ط) ، ص 101 . * هو غيلان بن عقبة كنيته أبوا الحارث ،

توفي سنة 117 هـ . ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص 71.

فأقارع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ و ذلك بعد ما نزلت آية الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل و دنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل ، فقامت حين آنأوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي ، فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون ، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه ، قالت عائشة : و كانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستتكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه و ظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعوا إلي ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فنمت ، و كان صفوان بن المعطل السلمي الذكواني قد عرس من وراء الجيش ، فأدلى فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رأي ، و قد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني . فخرمت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطيء على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، وهلك من هلك في ، و كان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكت حين قدمتها شهراً و الناس يفيضون في قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، ويريني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يحزنني و لا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، و ذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا و أم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف وأما بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضي الله

عنه و ابنها مسطح بن أثاثه بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا و ابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها: بئسما قلت، أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت : أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟ قلت : و ماذا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ﷺ ثم قال : كيف تيكم؟ قلت: تأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت : يا أماه ما يتحدث الناس؟ قالت : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله ، و قد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي ، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله و بالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك و ما نعلم إلا خيراً ، و أما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك ، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ، فقالت : فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، قال : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر قتله، فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتله ، إنك منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان من الأوس

والخروج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها وجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا ما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، {يوسف 18} قالت: ثم تحولت واضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤية يبرئني الله تعالى بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ منزله ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام، وأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشتاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: البشرى يا عائشة، أما والله لقد برأك الله، فقالت لي أمي: قومي

إليه ، فقلت : و الله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه تعالى هو الذي برأني ،
قالت : فأنزل الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ، العشر آيات.¹

هذه هي القصة كما روتها الطاهرة العفيفة الذيل أمنا عائشة رضي الله عنها ،
و سنرى كيف أخرج البيان القرآني هذه القصة ، حتى لنكاد نرى الأشخاص عيانا ،
و نشعر بأحاسيسهم و نألم بآلامهم ، و نرى أصحاب الإفك يخوضون و نستكف من
أقوالهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ... لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، و يبدأ المشهد منذ الوهلة الأولى
مجسدا أمامنا صورة جماعة جاؤوا من بعيد و هم يحملون الإفك ، كأنما
يحملون شيئا له وزن و هيئة و تصويره بهذه الحالة يجسد حالة الافتراء
والبهتان "وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن
يكون له أصل"² بل في الأمر لفظة طريفة : فقولنا جاؤوا بفلان ، قد يوحي إلى أنهم
جاؤوا به من غير رغبته ، و الإفك لغة من "أفك، كضرب وعلم، إفكاً، بالكسر
والفتح والتحريك، وأفوكاً كذب، كأفك فهو أفك وأفيك وأفوك ، و عنه يَأْفِكُهُ أفكاً
صرفه و قلبه ، أو قلب رأيه ، و فلاناً جعله يكذب ، و حرمة مراده."³ فهو ينصرف
إلى الكذب وصراف الناس عن الحق ، و قلب حقائق الأمور، و الإفك أبلغ من
الكذب معنى ومبنى؛ فمن جهة المعنى ذكر أبو هلال العسكري في الفرق بين الإفك
و الكذب : " الفرق بين الكذب و الإفك : أن الكذب اسم موضوع للخبر الذي لا
مخبر له على ما هو به ، وأصله في العربية التقصير³ و منه قولهم كذب عن قرنه
في الحرب إذا ترك الحملة عليه وسواء كان الكذب فاحش القبح أو غير فاحش
القبح ، و الإفك هو الكذب الفاحش القبح مثل الكذب على الله ورسوله أو على
القرآن ومثل قذف المحصنة وغير ذلك مما يفحش قبحه وجاء في القرآن على هذا

1 — علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن: أسباب النزول، ج1، تح الجميلي، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د ط)
ص116 .

2 — الألوسي: روح المعاني، المصدر السابق، ج13، ص361.

3 — الفيروز أبادي: القاموس المحيط، المصدر السابق، ج3 ص18 .

الوجه قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الجاثية (06) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالِإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾¹ فاستعمال الإفك للدلالة على الكذب الفاحش الذي جاءت به تلك العصابة ، أما من حيث المبنى ، فإن أصل الإفك ﴿إِفْكٌ﴾ و به حرفان مهموسان وحرف مجهور ، بينما (كذب) العكس به حرفان مجهوران و حرف مهموس، ذلك أن الإفك مسالكه أكثر خفاء و أشد خطراً من الكذب، و العصابة "...فهي العشرة و ما فوقها قليلاً..."² و إذا كان الأمر إذا جاوز واحداً فشأ، فما ظنك في أكثر من العشر ، و الضمير في كلمة ﴿مِّنْكُمْ﴾ ، دليل على أن هذه العصابة من ذات المجتمع مما يجعل الخطب أفدح إذ أن ظلم ذوي القربى أشدّ على النفس من وقع الحسام المهند كما قالت العرب ، و استعمال عبارة ﴿تَحَسُّبُوهُ﴾، تجسيد بارع ، و كأنما أهل المدينة و قد جاءهم هذا الوفد بهذه البضاعة المأفونة شرعوا في حساب ما تجره عليهم هذه البضاعة من شرور، و قد جاء في " التهذيب حَسِبْتُ الشَّيْءَ أَحْسَبُهُ حِسَاباً "³، و نفي الشر في هذه القضية تسلية للمؤمنين، و إثبات نقيضه بحرف الإضراب ﴿بَلْ﴾ - الإضراب هو الإعراض عن الشيء بعد الإقبال عليه⁴ - زيادة تسلية و تطمين ، و الإثبات بعد النفي أقوى في الدلالة من النفي بإطلاق نحو قولنا : لا إله إلا الله، و تكرار ﴿لَكُمْ﴾ ، بديع من حيث الإشعار بمزيد العناية ، و من حيث علم البديع فيه عكس وتبديل وهو " ...أن يقدم في الكلام جزءاً ثم يؤخر... (و قد) يقع بين لفظين في طرفي جملتين كقوله تعالى: ﴿هَن لِّبَاسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسَ لِهِنَّ﴾ البقرة (187) ⁵.

1 - أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 450 .

2 - أبو هلال العسكري: المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 107 .

3 - ابن منظور : لسان العرب، مادة(حسب) ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 630 .

4 - الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ، ج 1 ، دار الندى ، الاسكندرية ، مصر ، (د ط) 2002 ، ص 8 .

5 - جلال الدين القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، ج 1 ، تعليق محمد عبد المنعم الحفاجي ، دار الجيل ،

بيروت ، ط 3 ، 1985 ، ص 113 .

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ ، و الضمير عائد على العصبه ، والاكْتَسَاب لغة كما يوضح صاحب اللسان " (كسب) الكَسْبُ طَلَبُ الرِّزْقِ وَأَصْلُهُ الْجَمْعُ كَسَبَ يَكْسِبُ كَسْبًا وَ تَكَسَّبَ وَ اكْتَسَبَ قَالَ سَيَبُويه كَسَبَ أَصَابَ وَ اكْتَسَبَ تَصَرَّفَ وَاجْتَهَدَ"¹ ، كأنما كانت العصبه بما جاءت به تبتغي رزقا ، فنال كل واحد منها على قدر بضاعته و على قدر تصرفه و اجتهاده ، و كأنما ﴿الْإِثْمِ﴾ ، هو العملة التي قبضوها ، قال الألوسي: "﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ ، أي من الذي جاؤوا بالإفك ﴿مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ ، أي جزاء ما اكتسب و ذلك بقدر ما خاض فيه فإن بعضهم تكلم وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع وبعضهم أكثر وبعضهم أقل."² ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ "الكِبَرُ: الْعِظَمَةُ. وَ الْإِثْمُ الْكَبِيرُ ، و هي الْكَبِيرَةُ أَيْضًا. وَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: "﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾" قال : عَظُمَ الْقَذْفُ ، وَكِبْرَهُ : يَعْنِي إِثْمَهُ وَخَطَأَهُ."³ فلكل قوم رأس هو المقدم فيهم ، و يذكر أصحاب السير و يرجحون كونه أبي ابن سلول رأس النفاق و عراب الفرقة و الشقاق في المدينة "تَوَلَّى الْأَمْرَ تَوَلَّى إِذَا وَلِيَتْهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، أي وَلِيَ وَزَرَ الْإِفْكَ وَ إِشَاعَتَهُ"⁴ فمعظم شرر هذه الفتنة صناعة سلولية ، و التعبير عنه بضمير الغيبة ﴿كِبْرَهُ... له﴾ محض ازدراء و إبعاد، وفي التعبير بالموصول وتكرير الإسناد وتكثير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطاب ما لا يخفى "⁵. ﴿لَوْ لَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ... إِفْكَ مَبِينٍ﴾ ، بعد رفع الستار عن مشهد العصبه و معصيتها ، وانكشاف عورتهم أمام أعيننا، جاء الاستئناف بـ ﴿لَوْ لَّا﴾ للتوبيخ والتحضيض، و هي هنا بمعنى هلا ، و الظن هنا يفيد اليقين على مجرى كلام العرب "الظن معروف قال و قد يوضع موضع العلم قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

1 — ابن منظور: لسان العرب، مادة(كسب)، المصدر السابق ، ج5، ص254.

2 — الألوسي: روح المعاني المصدر السابق ، ج13 ، ص363 .

3 — صاحب بن عباد : اخیط فی اللغة ، ج2 ، تح آل یاسین محمد حسن ، عالم الکتب ، بیروت ، د. ط ، 1994 ، ص48 .

4 — ابن منظور : لسان العرب، مادة(ولي) المصدر السابق ، ج6، ص988 .

5 — الألوسي: روح المعاني ، المصدر السابق ، ج13 ، ص364 .

فقلت لهم ظنُّوا بِالْأَفِّي مُدَجِّجٍ *** سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ*

أَيِ اسْتَيْقَنُوا وَإِنَّمَا يَخُوفُ عَدُوَّهُ بِالْيَقِينِ لَا بِالشَّكِّ¹، و في الأمر تعميم وتخصيص؛ فقد عمم في السماع و خصص في الظن الذي يفيد قوة المعنى المتولد في النفس حتى بلوغ اليقين، ذلك لأن الكل في السماع يستوون ، و لكن في اليقين المتولد عن هذا السماع يتفرقون ، و لا يظن الظن الحسن إلا من كان له إيمان يمنعه و خشية تردعه ، و أولئك هم ﴿... الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾، و في هذا المقام كلام نفيس للألوسي لا مزيد عليه في بابه : " و النكتة في توسيط معمول الفعل المحضض عليه بينه وبين أداة التحضيض و إن جاز ذلك مطلقاً أي سواء كان المعمول المتوسط ظرفاً أو غيره تخصيص التحضيض بأول وقت السماع و قصر التوبيخ و اللوم على تأخير الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن و التردد فيه ليفيد أن عدم الإتيان به رأساً في غاية ما يكون من القباحة والشناعة أي كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات أن يظنوا أول ما سمعوا ذلك الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلثم و تردد بأهل ملتهم من آحاد المؤمنين والمؤمنات خيراً ﴿وَقَالُوا﴾ في ذلك الآن ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر مكشوف كونه إفكاً فكيف بأم المؤمنين حليمة رسول الله ﷺ بنت المهاجرين رضي الله تعالى عنهما.² و انظر إلى حسن كلمة ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ و بعد ذكر المؤمنين و المؤمنات و كيف سيقى بطريق اللف و النشر— و هو ضرب جميل في علم البديع —... و هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر مالك واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يردده عليه³ أي ظن المؤمنون بأنفسهم خيراً، و ظنت المؤمنات بأنفسهن خيراً ، مما يوحي بأنهم بعضهم من بعض، و في الأسلوب عدول عن صيغة المخاطب ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، إلى صيغة الغائب ﴿بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ و في ذلك تبكيث و تخويف من انصراف العناية

1 — ابن منظور : لسان العرب، مادة(ظن)، المصدر السابق، ج4، ص654 . هو دريد بن الصمة بن الحارث بن

معاوية، توفي سنة 8 هـ، ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص 89.

2 — الألوسي: روح المعاني، المصدر السابق، ج13، ص369.

3 — القزويني: الإيضاح: المصدر السابق، ج1، ص114.

الإلهية عنهم إن لم يتمسكوا بآداب و أحكام الإسلام؛ من ضرورة التثبيت والظن الحسن بالمؤمنين .

﴿ لَوْ لَّا جَاءُوا عَلَيْهِ... هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴾ و يعود التوبيخ و الحض مرة أخرى ، إذ الخطب جل و يخشى فيه من الزلل ، فليست الأعراض بالأمر الهين ، كيف والأمر متعلق بمقام النبوة ، و خبر الآحاد هنا مردود ، و لابد من توافر عدد من العدول ، — وهذا تطبيق للأحكام في المحور الأول — " فالذين جاءوا بالإفك اختلقوه من سوء ظنونهم فلم يستندوا إلى مشاهدة ما أخبروا به ولا إلى شهادة من شاهدوه ممن يقبل مثلهم فكان خبرهم إفكاً " ¹ و قد أفاد اسم الإشارة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ تصوير بعدهم عن الله تعالى ، و حصر الكذب فيهم ، و إنه لأمر خطير أن تكتب كذاباً في ديوان ملك من ملوك الأرض فكيف بملك الملوك ، و سرعة الحكم عليهم و حصر الكذب فيهم الذي أفاده حرف العطف ﴿ فَ ﴾ ردع لكل من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد .

﴿ وَلَوْ لَّا فَضَّلَ اللَّهُ... عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ و تختلف لولا هنا عن سابقتيها ، فليست هنا بمعنى هلاً ، و ليست للتوبيخ و التحضيض ، و لكنها حرف امتناع لوجود ، أي امتناع العذاب العظيم لوجود فضل الله و رحمته ، و لكن تكرار مبناها فيه معنى الاصطحاب ، أي اصطحاب معنى التوبيخ بمعنى فضل الله تعالى ، و ذلك أعظم في استشعار فضل الله و رحمته ، و المس كما ذكر البيضاوي في تفسيره : " المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به " ² و استعارة المس هنا مناسب للعذاب العظيم في الدنيا أي الجلد كما تقدم ، و في الآخرة النار ، وكلاهما محله البشرة ، ولن تجد و لو استعنت بآبن منظور و لسانه ، و الفيروز و محيطه ، و الرازي و صحاحه — و كان بعضهم لبعض ظهيرا — كلمة تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة ﴿ أَفْضُتُمْ ﴾ " (فيض) فاض الماء و الدَّمْعُ و نحوهما يَفِيزُ فَيُضاً و فَيُوضَةً و فَيُوضاً

1 — الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق، ج 9، ص 447.

2 — ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي: أنوار التبريل و أسرار التأويل، ج 1، تح عبد

القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، 1996، د. ط، ص 118.

وَفِيضَانَا وَفِيضُوضَةً أَي كَثْرَ حَتَّى سَالَ عَلَى ضَفَّةِ الْوَادِي¹ فَقَدْ صَوَّرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ كَثْرَتَ اللَّغَطِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، حَتَّى كَادَتْ أَرْجَاءُ الْمَدِينَةِ أَنْ تَضِيقَ بِهِ فَيَسِيلُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فِي الْكَلَامِ نَشَرَ عَلَى تَرْتِيبِ الْفَاءِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَدِيعِ إِذْ يَتَعَلَّقُ الْفَضْلُ بِالْدُّنْيَا بِإِسْقَاطِ الْحَدِّ بِعَفْوِ عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَ الرَّحْمَةُ بِالْآخِرَةِ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ... وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ إِذْ ظَرَفَ مُتَعَلِّقٌ بِأَفْضَتُمْ ، وَ فِيهِ اسْتِدْعَاءٌ لِلْمَشْهَدِ السَّابِقِ ، مَشْهَدُ الْعَصْبَةِ أَوْ رَكْبِ الْإِفْكَ ، وَ تَأْمَلُ رُوعَةَ التَّصْوِيرِ فِي الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ فَالرَّكْبُ يَحْمِلُ بَضَاعَةً - وَ بُئِستِ الْبَضَاعَةُ - وَهُؤُلَاءِ مَتَهَيِّئُونَ لِاسْتِقْبَالِهَا بِأَيْدِيهِمْ² ﴿بِالْأَسْنَتِكُمْ﴾ تَشْبِيهُ الْخَبَرِ بِشَخْصٍ وَ تَشْبِيهُ الرَّائِي لِلْخَبَرِ بِمَنْ يَتَهَيَّأُ وَ يَسْتَعِدُّ لِلْقَائِهِ اسْتِعَارَةُ مَكْنِيَّةٍ فَجَعَلَتْ الْأَلْسُنَ آلَةً لِلتَّلْقِي عَلَى طَرِيقَةِ تَخْيِيلِيَّةٍ بِتَشْبِيهِ الْأَلْسُنِ فِي رَوَايَةِ الْخَبَرِ بِالْأَيْدِي فِي تَنَاوُلِ الشَّيْءِ ، وَ إِنَّمَا جَعَلَتْ الْأَلْسُنَ آلَةً لِلتَّلْقِي مَعَ أَنْ تَلْقِيَ الْأَخْبَارَ بِالْأَسْمَاعِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا التَّلْقِي غَايَتَهُ التَّحَدُّثُ بِالْخَبَرِ جَعَلَتْ الْأَلْسُنَ مَكَانَ الْأَسْمَاعِ مَجَازاً بِعِلَاقَةِ الْأَيْلُولَةِ ، وَ فِيهِ تَعْرِيزُ بِحَرَصِهِمْ عَلَى تَلْقِي هَذَا الْخَبَرِ فَهَمَّ حِينَ يَتَلَقَّوْنَهُ يَبَادِرُونَ بِالْإِخْبَارِ بِهِ بَلَا تَرَوْ وَلَا تَرِثُ ، وَ هَذَا تَعْرِيزُ بِالتَّوْبِيخِ أَيْضاً³ وَ تَأْمَلُ حَسْنَ الْإِيغَالِ - وَ هُوَ الْإِمْعَانُ وَهُوَ خَتَمَ الْكَلَامَ بِمَا يَفِيدُ نَكْتَةً يَتِمُّ الْمَعْنَى بِدُونِهَا⁴ غَيْرَ أَنْ الزِّيَادَةَ لَهَا فَائِدَةٌ تَوْدِيهَا - فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ ، وَ هَلْ لِلْقَوْلِ آلَةٌ غَيْرُ الْفَمِ ؟ غَيْرَ أَنَّ آلَةَ الْقَوْلِ اللِّسَانُ ، وَ الشِّفَاهُ وَ الْأَسْنَانُ لَهُ أَعْوَانُ ، وَ بَتَجَاوَزُ الْآلَةَ إِلَى الْأَعْوَانِ دَلَالَةً عَلَى خَوَاءِ مَا يَقُولُونَ ، "وَكُلُّ قَوْلٍ إِنَّمَا هُوَ بِالْفَمِ إِنَّمَا الْمَعْنَى لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ وَلَا بُرْهَانٌ" إِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ بِالْفَمِ وَلَا مَعْنَى صَحِيحاً تَحْتَهُ⁴ وَ فِي تَعْطِيلِ اللِّسَانِ إِيْعَازُ بِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِمْ لَهُ ، إِذْ اسْتَقْبَلُوا الْإِفْكَ وَ تَنَاقَلُوهُ فِي غَيْرِ رُويَةٍ أَوْ تَثَبَّتْ ، وَ اسْتِهَانَةٌ بِمَا يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ .

1 - ابن منظور : لسان العرب، مادة(فيض)، المصدر السابق ، ج4، ص1154 .

2 - الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 449 .

3 - السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ص14 .

4 - ابن منظور : لسان العرب، مادة(قول)، المصدر السابق، ج5، ص179 .

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ... بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ، و يعود التوبيخ و التنبيه إلى الأولى و الواجب مرة أخرى ، و تلعب لولا في هذا المحور دوراً محورياً ، كأنما تلوى بها أعناق السامعين كل مرة باتجاه الإفك و البهتان المبين ، بينما نبهت لولا الأولى إلى ضرورة حسن الظن بين المؤمنين ، نبهت لولا الثانية لضرورة التثبت و طلب البينة ، فناسب أن تجيء لولا الثالثة بالحوافز لكمال الامتثال ، ثم جاءت لولا الرابعة لمنع تناقل و ترويج الافتراء و الدعاوى الباطلة ، ثم ستأتي لولا خامسة للتأكيد على الحوافز السابقة و ذلك كله من كمال تربية الله لعباده المؤمنين ليتقبلوا بين خوف والرجاء .

"وفصل بين آلة التحضيض و القول المحضض عليه بالظرف لأن الظروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها ، وأنها لا انفكاك لها عنه ، ولأن ذكره منبه على الاهتمام به لوجوب المبادرة إلى المحضض عليه"¹ ، و صدر هذه الآية فيه شبه بصدر الآية (12) كلاهما ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ، و في ذلك حسن تأت للنفس ، فبعد أن تنهياً النفس للتكرار لتشابه الصدرين إذا بالخطاب ينصرف إلى منع الترويج للكاذب ، فحسن الظن لا يكفي وحده ، و إنما على المؤمنين أن يدروا عن أنفسهم ما يחדش في أعراضهم ، و في الآية توجيه لحسن استعمال اللسان فالتعبير هنا ليس ﴿بِأَفْوَاحِكُمْ﴾ ، و لكن ﴿قُلْتُمْ﴾ ، أي القول الحسن المثبت الوثائق "وإنما قال : ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ دون أن يقول : ليس لنا أن نتكلم بهذا ، للتنبيه على أن الكلام في هذا وكيونة الخوض فيه حقيق بالانتقاء ، و ذلك أن قولك : ما يكون لي أن أفعل ، أشد في نفي الفعل عنك من قولك : ليس لي أن أفعل ، ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾"² المائدة (118) وجاء التسبيح في سياق التنزيه ليشيع و يفشي على المحور كله جو البراءة و النزاهة و الطهر ، فكلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ مجاز مكني عن التعجب ، بل و براءة إلى الله من البهتان

1 — البقاعي: نظم الدرر، المصدر السابق، ج5، ص452 .

2 — الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق، ج9، ص451 .

العظيم ﴿بُهْتَانٌ﴾ أي كذب يبهت و يحير سامعه لفظاعته¹ ، و استعمال اسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ يجسد الإفك و كأنه مائل أمام ناظريك تراه و تسمعه و تشم روائحه التي تزكم الأنوف، ﴿يَعْظُكُمُ اللَّهُ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ و يعظكم من الموعظة " (وعظ) الوَعْظُ والعِظَةُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ النَّصْحُ والتذكير بالعواقب قال ابن سيده هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّنُ قلبه من ثواب وعقاب² وفي المضارعة معنى الاستمرار لتكرر تلك الحوادث بتكرر الزمان ، و علو الموعظة ورفعتها في كونها منسوبة إلى الله عز و جل و محل الوعظ...كراهة ﴿أَنْ تَعُودُوا﴾ ، أو في أن تعودوا، من قولك : وعظت فلاناً في كذا فتركه، وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين، و ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه تهيج لهم ليتعظوا ، و تذكير بما يوجب ترك العود ، وهو اتصافهم بالإيمان الصادّ عن كلّ مقبح ، و يبين الله لكم الدلالات على علمه و حكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ، و يعلمكم من الآداب الجميلة ، و يعظكم به من المواعظ الشافية ، والله عالم بكل شيء ، فاعل لما يفعله بدواعي الحكمة.³

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ... وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالجملة استئناف ابتدائي ، واسم الموصول يعم كل من يتصف بمضمون الصلة ... فهو تحذير للمؤمنين و إخبار عن المنافقين و المشركين ... فالمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يجب وقوعه ، و جيء بصيغة الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار ، وأصل الكناية أن تجمع بين المعنى الصريح و لازمه فلا جرم أن ينشأ عن تلك المحبة عذاب الدنيا وهو حد القذف وعذاب الآخرة ...⁴ ، و لاستئناف هنا تفصيل للموعظة في قوله ﴿يعظكم الله﴾ ، و إذا كان التوشيح في البديع هو أن يدل أول الكلام على آخره ، فإن تقديم علم الله عن جهل البشر ، دل عليه تقديم المحبة في صدر الآية ، فإن الأحاسيس العميقة لا يمكن أن يطلع عليها البشر ، غير أن رب البشر لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء.

1 - الألوسي: روح المعاني، المصدر السابق ، ج13 ، ص374 .

2 - ابن منظور : لسان العرب، مادة(وعظ)،المصدر السابق ، ج6 ، ص952 .

3 - الرّمخشري:الكشاف، المصدر السابق ، ج4 ، ص388 .

4 - الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص454 .

﴿وَلَوْ لَا... رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ، و حذف جواب لولا ، لأن ترك التذكير بمحل التوبيخ في معرض الامتنان أبلغ و أجمل ، لاسيما بعد كل ذلك البيان ، و بعد كل تلك التوجيهات الحسان" ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ عطف على ﴿فَضَّلُ اللَّهُ﴾ و إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بإستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة ، و تغيير سبكه و تصديره بحرف التحقيق لما أن المراد بيان اتصافه تعالى في ذاته بهاتين الصفتين الجليلتين على الدوام و الاستمرار لا بيان حدوث تعلقهما بهم" ¹ الرؤوف وهو الرحيم لعباده العُطُوفُ عليهم بِالطَّافَةِ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... سَمِعَ عَلِيمٌ﴾ نداء من الله تعالى و شأن المنادى أن يستجيب على قدر المنادي، و على قدر إيمانه ، و يتلو هذا النداء تصوير بديع إذ يصور الشيطان كالماشي الأمر الناهي و من ورائه ناس ينتظرون أوامره و وصاياه، فيأتي نداء الرؤوف الرحيم لعباده المؤمنين نهياً عن إتباعه ، ثم يستأنف الخطاب القرآني معللاً النهي و هو ارتفاق و لطف بالمؤمنين — و إلا فالامتنال أوجب و إن لم تتبين العلل — و جاءت ﴿مَنْ﴾ الشرطية كأنما تجسد خدمات الشيطان ، أي من أراد أن يتجسس بالفحشاء و المنكر فليتبع خطوات الشيطان و في تكرير كلمة ﴿الشَّيْطَانِ﴾ توجيه و تركيز الانتباه على المتبوع ، فهو بعيد عن الرحمان مبعد عنه ، و أصله كذلك لغوة" الشَّطْنُ مصدر شَطَنَهُ يَشْطُنُهُ شَطْنًا خالفه عن وجهه و نيته و الشيطانُ حَيَّةٌ لَهُ عُرْفٌ و الشاطنُ الخبيث و الشَّيْطَانُ فَيَعَالٍ مِنْ شَطْنٍ إِذَا بَعْدَ فِيمَنْ جَعَلَ النُّونَ أَصْلًا و قولهم الشياطين دليل على ذلك و الشيطان معروف و كل عات متمرّد من الجن و الإنس و الدواب شيطان" ² ، و في استعمال الشيطان بدل الجن زيادة تجسيد ، إذ الجن من الخفاء و منه قلنا الجنين في بطن أمه ، و عدل عن صيغة المخاطبة إلى صيغة الغيبة في معرض ذكر عمله و ماهية أوامره استخفافاً و احتقاراً ، و إن كانت الهاء في ﴿فَإِنَّهُ﴾ ، هاء الشأن فأى شأن لمن أوامره الفحشاء و المنكر ، و تأتي لولا مرة أخرى لتصرف أنظار المؤمنين عن الشيطان المتبوع و أتباعه ، إلى فضل

1 — الألوسي: روح المعاني، المصدر السابق، ج 13، ص 380 .

2 — ابن منظور: لسان العرب، مادة(شطن)، المصدر السابق، ج 3، ص 317

الله ورحمته ، فكما جاءت لولا التوبيخية ثلاثاً ، جاءت لولا الامتناعية ثلاثاً ، لتظل النفس المؤمنة أبداً تحلق في سماء الفضيلة بجناحي الخوف و الرجاء .

إن التوجيهات و الحوادث التي تسرد هنا بأبداع صورة و أجمل حلة غايتها تهذيب النفوس و إصلاحها ، و لا يهذب هذه النفوس و يصلحها كبارئها سبحانه ، فهذه الآيات البينات و أمثالها يزكي الله من يشاء ، و تأمل إلى التمكين —"و هو أن يمهد للفاصلة القرآنية تمهيدات تأتي به الفاصلة متمكنة في مكانها متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً" ¹— في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فتعلق السمع بفحش القول و منكروه، و تعلق العلم بحال المرء و زكاته أي صلاحه .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي يحلف مبالغاً في اليمين ² وقد نزلت هذه الآية لترسم ردة فعل السيد الجليل أبو بكر الصديق بعد براءة ابنته عائشة من الإفك، و قد كان ينفق على قريبه المسكين "مسطح" أحد الذين خاضوا مع الخائضين و هو من المهاجرين فقال الصديق رضي الله عنه عند البراءة: " و الله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، فقال أبو بكر: والله إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه و قال : لا أنزعها منه أبداً" ³ و قد روعي الكمال في ترتيب صفات الموصوف ، لتترك أثرها في نفس السامع و لتهيئته للعفو و الصفح فقدم رابطة الدم ﴿ الْقُرْبَى ﴾ ، ثم العوز و الحاجة ﴿ الْمَسَاكِينَ ﴾ وجاءت جمعا لتثير أكبر قدر من التعاطف ، فهو مسكين من جملة المساكين ، ثم فضيلة كونه من ﴿ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ و إذا الحبيب جاء بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع ، و جمع العفو مع الصفح ليكون العطاء على تمام الرضى" و قال الراغب : الصفح: ترك التثريب ، وهو أبلغ من العفو و قد يعفو الإنسان ولا يصفح ، و قال البيضاوي: العفو ترك عقوبة المذنب ، و الصفح: ترك لومه ، قلت: و يدل عليه قوله تعالى:

1 — السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ص14 ، بتصرف .

2 — البقاعي نظم الدرر، المصدر السابق ، ج5 ، ص455 .

3 — الواحدي : اسباب النزول، المصدر السابق، ج1 ، ص116 .

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾¹ ثم ربط ذلك كله بمقابل ترخص معه الدنيا بأسرها وهو مغفرة الله الغفور الرحيم ، و مع أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، إلا أن تصديرها بـ ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ نقل في الخطاب من الخصوص إلى العموم ، و في عدم التشخيص ستر ، وفيه أيضاً مقابلة بين ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ و بين ﴿المساكين﴾ ، ليعلم أولئك أن الفضل في رفع مسكنة هؤلاء و التوسعة عليهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ استئناف و مزيد تفصيل للموعظة في قوله : ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ...﴾ ، في الأول توعده على محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، و هنا توعده قاذفي الأعراض ، و الملاحظ أنه قرن كلمة المحصنات هنا بالغافلات المؤمنات عكس الآية (4) ، هناك كان الحديث عن طلب الحجة و البرهان و كأن المحصنات هناك في قفص الاتهام ، و هنا المقام مقام توعده لقاذفي البريئات ، و تصويرهن بالغافلات ، فيه تجسيد بليغ فالرماة يرمون من لا يخطر الرمي ببالهن ، و الغافلات لغة من " الغفلة عن الشيء ، هي ألا يخطر ذلك بباله"² و عند صاحب اللسان " (غفل) غَفَلَ عنه يَغْفُلُ غُفُولاً و غَفْلَةً و أَغْفَلَهُ عنه غيره و أَغْفَلَهُ تركه وسها عنه"³ و قال حسان بن ثابت يمدح عائشة رضي الله عنهما :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرَبِيَّةٍ *** و تُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ *

لُحُومِ الْغَوَافِلِ يُرِيدُ الْعَفَائِفَ الْغَافِلَةَ قُلُوبُهُنَّ عَنِ الشَّرِّ ، و قرن الغفلة بالإيمان لبيان غفلتهن عن الشر و ليس عن الله الذي يدافع عن الذين آمنوا ، فرتب على التعرض لهن بالإفك و البهتان اللعنة و العذاب العظيم دنيا و آخرة .

1 — أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، المصدر السابق، ج1، ص362 .

2 — الجرجاني: التعريفات، المصدر السابق، ج1، ص51 .

3 — ابن منظور: لسان العرب، مادة(غفل)، المصدر السابق، ج4، ص1002.* هو حسان بن ثابت بن المنذر

الخزرجي الأنصاري أبو الوليد شاعر مخضرم توفي سنة 54 هـ. ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية

العصر الأموي للدكتور عفيف عبد الرحمن، مصدر سابق، ص71.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ... يَعْمَلُونَ﴾ ، يوم هنا ظرف زمان حدد به موعد العذاب العظيم الذي ذكر آنفاً و مضارعة ﴿تَشْهَدُ﴾ تعطي الإحساس بأن الأمر يتم الآن أو بعد لحظات "و تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل للمسارعة إلى كون الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ... ولا يخلو عن حسن.¹ و نطالع ما في الترتيب من كمال يتفق مع النسق العام للآيات التي سبقت ، فاللسان هو الآلة الرئيسة في القذف و إذا قصر اللسان عن البيان أسعفته اليدان بالإشارة ، و الرجلان مطية القاذف إلى المجالس لترويج إفكه و بهتانه فكان عدلاً أن يشهد الأولى فالأولى ﴿أَلَسِنْتُهُمْ وَأَيَّدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ ، و الانتقال من المضارعة إلى الماضي في قوله : ﴿تَشْهَدُ... كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تبين لتجدد الجرم ما ض وحاضر و مستقبل ، و في الباب نكتة جميلة نوردها هنا" قال بعض الأدباء : العمل مقلوب عن العلم ، فإن العلم فعل القلب ، والعمل فعل الجارحة² فناسب ذكر الجوارح بمتعلقه العمل .

﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ... الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ " ...استئناف بياني لأن ذكر شهادة الأعضاء يثير سؤالاً عن آثار تلك الشهادة فيجاب بأن أثرها أن يجازيهم الله على ما شهدت به أعضاؤهم عليهم فدينهم جزاؤهم ...³ ، يومئذ الظرف الزماني لتوفية الحساب ، و التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عوض عن الجملة ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ...﴾ فقد بان الجرم و شهد الشهود العدول فلهم من العقاب أوفاه و أتمه بالقدر المستحق دون زيادة و هو ما تفيدته عبارة ﴿يُؤْفِقُهُمُ﴾ و ذلك عدل الله الواضح البين .

﴿الْخَبِيثَاتُ... كَرِيمٌ﴾ قالت العرب الطيور على أشكالها تقع ، جاءت هذه الآية لتسدل الستار على هذا المحور ، و لأنه بضدها تتميز الأشياء جاءت المطابقة لترسم صورة مظلمة و أخرى مشرقة ، تعاقب كتعاقب الليل و النهار ، و لأن المحور بدأ بالإفك المأفون ، كان الخبث أولاً و الطيب ثانياً ، لتتفر النفس ثم تخبث للحسن ، و كأن الخطاب فيه تعريض بالعصبة التي جاءت بالإفك بمعنى أنتم الخبيثاء

1 — الألوسي: روح المعاني، المصدر السابق ، ج13 ، ص389 .

2 — أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، المصدر السابق ، ج1 ، ص322 .

3 — الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص460 .

فما جرّأكم على الطيبين ، و ابتدأ بالخبيثات هنا و الطيبات في التي تليها ، لأن الآية تحمل البراءة فابتدأ بالتعريض و ختم بالتبرئة ، و الطيب كل مستحسن مرغوب فيه و عكسه الخبيث " خ ب ث الخبيث ضد الطيب و قد خبث الشيء بالضم خبأته وخبث الرجل بالضم أيضاً خبثاً فهو خبيث أي خب رديء. " ¹ و الخب من الخداع ، " وعطف ﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾ إطناب لمزيد العناية بتقرير هذا الحكم ولتكون الجملة بمنزلة المثل مستقلة بدلالاتها على الحكم وليكون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلًا من أي جانب ابتدأه السامع ، و ذكر ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ ، إطناب أيضاً للدلالة على أن المقارنة دليل على حال القرينين في الخير أيضاً ².

و كلمة ﴿ مبرءون ﴾ على وزن مفعولن للمبالغة لكي لا يبقى أدنى شك في البراءة ، و الإشارة بـ ﴿ أولئك ﴾ توحى أيضاً ببعدهم عن ما يستقبح و يشين ، و المضارعة في قوله: ﴿ يقولون ﴾ فيها استدعاء للأفاكين ، كأنما تعلن البراءة و الكل في مجلس واحد المتهم و المتهم .

و جاءت الخاتمة كما يأتي النسيم بعد حرّ الهجير ، و كما يأتي الربيع بعد الصقيع ﴿ مغفرة و رزق كريم ﴾ " رزق كريم إذا لم يكن فيه امتهان أي كرم صاحبه" ³ ، و تجدر الإشارة أخيراً إلى كثرة الالتفات في هذا المحور و هو كما قال ابن المعتز : " الالتفات ، وهو انصراف المتكلم عن مخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى مخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر" ⁴ و ذلك مناسب لأن الحادثة و وضعت في قالب المحاكمة، و من شأن القاضي كثرة الالتفات بين الخصمين، و ذلك ما فعلته ﴿ لوئاً ﴾ أيضاً ، وقد لمسنا في هذا المحور منتهى البلاغة في إيصال المعنى المراد بأحسن لفظ وأروع ،

1 — زين الدين الرازي: مختار الصحاح، المصدر السابق، ج 1، ص 82.

2 — الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، المصدر السابق، ج 9، ص 462.

3 — أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، المصدر السابق، ج 1، ص 171.

4 — عبد الله ابن المعتز: البديع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. د. ت. ج 1، ص 15.

كما نلمس الإيجاز "الإيجاز أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة".¹ فقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ ، تصوير بليغ موجز لكل تفاصيل المؤامرة ومثلها ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ ، فهناك مجموعة موجهة ، و لها قائد موجه و المؤامرة حيكت خيوطها خارج إطار الإيمان لتقذف في ساحة المؤمنين فتعكر أمانهم و إيمانهم .

- المحور الثالث :

- أساليب الوقاية من الزنا، (من الآية : 27 ، إلى الآية : 34)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ... وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾

إن الإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء مجتمعه النظيف ، إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية ، وهو لا يحارب الدوافع الفطرية ، و لكن ينظمها و يضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة ، و الفكرة السائدة في منهج التربية الإسلامية في هذه الناحية، هي تضيق فرص الغواية، و إبعاد عوامل الفتنة و اخذ الطريق على أسباب التهيج و الإثارة ، مع إزالة العوائق ، دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة .

و من هنا يجعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها، فلا يفاجأ الناس في بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم، و سماحهم بالدخول ، خفية أن تطلع الأعين على خفايا البيوت ، و على عورات أهلها و هم غافلون ، و ذلك مع غض البصر من الرجال و النساء ، و عدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات ، و من هنا كذلك ييسر الزواج للفقراء من الرجال و النساء ، فالإحصان هو الضمان الحقيقي للاكتفاء.. وينهي عن تعريض الرقيق للبغاء، كي لا تكون الفعلة سهلة ميسرة ، فتغري بيسرها و سهولتها بالفحشاء ، فلننظر نظرة تفصيلية في تلك الضمانات الواقعية التي يأخذ بها الإسلام.

العنصر الأول : أدب الزيارة و الاستئناس، (من : الآية 27 ، إلى : الآية 29)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

لقد جعل الله البيوت سكناً ، يفئ إليها الناس ، فتسكن أرواحهم ، و تطمئن نفوسهم و يأمنون على عوراتهم و حرمتهم ، و يلقون أعباء الحذر و الحرص المرهقة للأعصاب، و البيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً، لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله و إذنهم، و في الوقت الذي يريدون ، و على الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس. و من أجل هذا و ذلك أدب الله المسلمين بهذا الآداب العالي ، أدب الاستئذان على البيوت و السلام على أهلها لإيناسهم ، و إزالة الوحشة في نفوسهم قبل الدخول قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا...﴾ ، و يعبر عن الاستئذان بالاستئناس ، و هو تعبير يوحي بلطف الاستئذان ، و لطف الطريقة التي يجئ بها الطارق ، فتحدث في نفوس أهل البيت أنساً به ، و استعداداً لاستقباله ، و هي لفظة دقيقة لطيفة، لرعاية أحوال النفوس ، و لتقدير ظروف الناس في بيوتهم ، و ما يلبسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها و يخرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار.¹

فكلمة بيت : نفهم منها أنه ما أعد للبيتوتة ، حيث يأوي إليه الإنسان آخر النهار و يرتاح فيه من عناء اليوم ، و يسمى أيضاً الدار لأنها تدور على مكان خاص بك ، لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ، يقولون: بيت من بابه ، حيث لا يدخل ولا يخرج عليك احد ، وكان السكن بهذه الطريقة عصمة من الريبة ، لأنه بيتك الخاص بأهلك و حدهم لا يشاركون فيه احد ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ من الأنس والاطمئنان ، فحين تجلس و أهلك في بيتك ، و أقبل عليك غريب لا تعرفه، إذا لم يقدم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لابد أن تحدث منه وحشة و نفور². ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ فيه وجهان . أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2507

2 - ينظر محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ج 16 دار التقوى ، القاهرة ، د.ط، د.ت ، ص 10243

خلاف الاستحاش ، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ ، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس . فالمعنى: حتى يؤذن لكم كقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ {الأحزاب 53} و هذا من باب الكناية و الإرداف.¹ و معنى ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ تطلبوا الأنس بكم ، أي تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت ، و أنسه به بانتقاء الوحشة و الكراهية ، و هذا كناية لطيفة عن الاستئذان أي : أن يستأذن الداخل ، فيطلب إذننا من شأنه أن لا يكون معه استيحاش رب المنزل بالداخل.² لذلك قال تعالى بعدها ، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ ، خير للجميع ، للزائر و للمزور، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شيء يؤذيه ، و هب أن أبا الزوجة أراد زيارتها و دخل عليها فجأة فوجدها في شجار مع زوجها، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه فيتفقم الخلاف.³

وفي قراءة (أبي) : حتى تستأذنوا ﴿ذَلِكُمْ﴾ ، الاستئذان و التسليم ﴿خييراً لكم﴾، من تحية الجاهلية ، و الدمور- و هو الدخول بغير إذن- و اشتقاقه من الدمار و الهلاك كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب،⁴ و قد أجملت حكمة الاستئذان في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ، ذلكم الاستئذان خير لكم ، لأن فيه خير لكم و نفع فإذا تدبرتم علمتم ما فيه من خير لكم كما هو المرجو منكم⁵، ثم تختم الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ، يعني احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تنهأونوا فيها كمن يقولون : نحن أهل أو أقارب لا تكليف بيننا، لأن الله تعالى الذي شرع لكم هذه الآداب أعلم بما في نفوسكم ، و أعلم بما يصلحكم ،⁶ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ، أنزل عليكم، أو قيل لكم هذه إرادة أن تذكروا وتتعضوا و تعلموا بما

1 - ينظر ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل،

ج 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د. ت ، د. ط ، ص 225

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 197

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10245

4 - ينظر الزمخشري : الكشف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 227

5 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 198

6 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10245

أمرتم به في باب الاستئذان¹، و بعد الاستئذان ، إما أن يكون في البيوت أحد من أهلها و لا يكون ، فان لم يكن فيها أحد ، فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان، لأنه لا دخول بغير إذن: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا... ﴾، وإن كان فيها أحد من أهلها فان مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، وإنما هو طلب للإذن ، فان لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك، و يجب الانصراف دون تلكؤ و لا انتظار.² و قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، كيف و الدار ليس فيها أحد ؟ ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد ، تفضل ، فلا بد أن يأذن لك صاحب الدار أو من ينوب عنه في الإذن ، لأنه لا يأذن إلا وقد أمن خلو الطريق مما يؤذيك أو مما يؤذي أهل البيت.³ يحتمل ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾ من الأدنى ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم.⁴ و الغاية في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ لتأكيد النهي بقوله: ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ بمعنى: حتى يأتي أهلها فيأذنوا لكم.⁵ ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ الآية ، ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم ، أو النفرة منكم ، فللناس أسرارهم وأعدارهم ، ويجب أن يترك لهم و حدهم تقدير ظروفهم و ملابساتهم في كل حين.⁶ لأنك إن تمسكت بالدخول بعد أن قال لك: ارجع فقد أثرت الريبة في نفسه، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى و الأفضل ، ألا ترى قول الرسول ﷺ: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك).⁷ ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ لا تلحوا في إطلاق الإذن و لا تلجوا في تسهيل الحجاب ، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ، و يقدر في

1 - ينظر الزمخشري : الكشف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 227

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2508

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10246

4 - ينظر الزمخشري : الكشف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 227

5 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 201

6 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2508

7 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10246. * رواه الترميذي في سننه رقم

الحديث 2448 كتاب، صفة القيامة.

قلوب الناس ، خصوصاً إذا كانوا ذوي مروءة ، و مرتاضين بالآداب الحسنة، و إذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة ، و وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها : من قرع الباب بعنف، و التصييح بصاحب الدار ، و غير ذلك¹، مما يدخل في عادات من لم تتهذب من أكثر الناس، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، فهو المطلع على خفايا القلوب ، وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات²، وهو عالم سبحانه ، بدخائل النفوس و وساوس الصدور، فان قال لك صاحب الدار ارجع فوقفت أمام الباب و لم تتصرف، فانك تثير حولك الظنون و الأوهام ، و ربك عز وجل يريد أن يحميك من الظنون و دخائل النفوس³، و قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، تذييل لهذه الوصايا، بتذكيرهم بأن الله عليم بإعمالهم ، ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالثقل ، و ليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق و نحوها، و هذا تعريض بالوعيد ، لان في ذلك عصيانا لما أمر الله به فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون.⁴ فأما البيوت العامة كالقنادق ، و المثنوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج في الدخول إليها بغير استئذان ، دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية⁵، ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ ، و ﴿ جُنَاحٌ ﴾ ، إثم أو حرج ، و هذه خاصة بالأماكن العامة التي لا يسكنها أحد بعينه، والمكان العام له قوانين في الدخول غير قوانين البيوت و الأماكن الخاصة ، فهل تستأذن في دخول الفندق أو المحل التجاري أو الحمام ؟... الخ هذه الأماكن لا حرج عليك في دخولها دون استئذان. ﴿ غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ ، المقصود ، لقوم مخصوصين ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾، كأن تنام فيها، وتأكل وتشرب و تضع حاجياتك، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه ، إنما مقيد

1 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 228

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2508

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي المصدر السابق ، ج16 ، ص 10246

4 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 201

5 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2508

بما أحله الله و أمر به ، فلا يدخل في المتاع المحرمات¹ ، و ﴿ غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ أنها غير مأهولة على حالة الاستقرار أو غير مأهولة البتة ، و قوله : ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ ، صفة ثانية لـ: ﴿ بُيُوتًا ﴾ ، و المتاع هو الجهاز من العروض والسلع والرحال ، و ظاهر قوله : ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ ﴾ ، أن المتاع موضوع هناك قبل دخول الداخل ، فلا مفهوم لهذه الصفة لأنها خرجت مخرج التنبيه على العذر في الدخول² ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، فالأمر معلق بإطلاع الله على ظاهركم و خافيكم ، و رقابته لكم في سرکم و علانيتكم ، و في هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، و امتثالها لذلك الأدب العالي الذي يأخذها الله به في كتابه ، الذي يرسم للبشرية نهجها الكامل في اتجاه³ ، و يعني: في تحديد الاستمتاع، فلا تأخذه على إطلاقه فتدخل فيه الحرام و الا فالبغياء كثيرا ما يرتادون مثل هذه الأماكن لذلك يحصنك ربك و يعطيك المناعة اللازمة لحمايتك⁴ ، وهي وعيد للذين يدخلون الخربات و الدور الخالية من أهل الريبة⁵ كما أن جملة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، مستعملة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود ، و هي كون البيوت غير مسكونة ، وكون الداخل محتاجا إلى دخولها بله أن يدخلها بقصد التجسس على قاطناتها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم⁶.

العنصر الثاني: ضوابط العلاقة بين الرجال و النساء (من الآية 30 إلى الآية 31)

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيوت ، و هو إجراء وقائي في طريق تطهير المشاعر، و اتقاء أسباب الفتنة العابرة، يأخذ على الفتنة الطريق كي لا تنطلق من عقالها بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة ، و بدافع الحركة المعبرة

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص 10247

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 202

3 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن المصدر السابق، ج4، ص 2508

4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص 10247

5 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 228

6 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 203

الداعية إلى الغواية ، ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الإطلاع على المحاسن و المفاتن في الوجوه و الأجسام ، كما أن فيه إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة ، و الغواية و محاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم ، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ، و يقظة الرقابة و الاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى ، و من ثم يجمع بينهما في آية واحدة ، بوصفهما سببا و نتيجة ، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين ، في عالم الضمير و عالم الواقع كلتاهما قريب من قريب .¹ و مسألة غض البصر التي يأمرنا بها ربنا عز وجل في هذه الآية ، هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ، و يسد الطريق دونها ، لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ... ﴾ ، و حين تتأمل مسألة غض البصر ، تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات :

الأولى: إنما غض هو بصره ولا تبدي هي زينتها، فخط الفتنة مقطوع من المرسل و من المستقبل ، الثانية : أن يغض هو بصره و أن تبدي هي زينتها ، الثالثة : أن ينظر هو و لا تبدي هي زينتها ، و ليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحالات الثلاث ، فإذا توفر جانب أنعدم الآخر ، إنما الخطر في القسمة الرابعة : وهي أن ينظر هو و لا يغض بصره ، و أن تتزين و تبدي زينتها ، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن ﴿ قُلْ... ﴾ ، تدل على أمانة الرسول في البلاغ ، و على أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضا كلام الله المعجز ، لذلك نحافظ عليه و على كل لفظة فيه ، و قوله تعالى: ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ ، فما داموا مؤمنين بالله حكيماً ، و قد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يرغمهم عليه أحد ، فلا بد أن يلتزموا بما أمرهم ربهم به و ينفذوه بمجرد سماعه ، و الغض : النقصان يقال : فلان يغض من قدر فلان

يعني: ينقصه ، فنقص البصر يعني : قصره على ما احل وكفه عما حرم و﴿ مِنْ ﴾ ، في قوله تعالى : ﴿ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ البعض يرى أنها للتبعية: كما تقول : كل من هذا الطعام يعني بعضاً منه فالمعنى : يغضوا بعض البصر أو أن ﴿ مِنْ ﴾ ، هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحل¹ من التبعية ، والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل² ، و الغض: صرف المرء بصره عن التحديق ، و تثبيت النظر، و يكون من الحياء كما قال عنترة *:

و أغض طرفي حين تبدو جارتني *** حتى يوارى جارتني مأواها
و اسم الإشارة إلى المذكور ، أي ذلك المذكور من غض الأبصار و حفظ الفروج .³

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ، فهو اظهر لمشاعرهم ، و اضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية ، في غير موضعها المشروع النظيف ، و عدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط وهو اظهر للجماعة ، و أصون لحرمتها و أعراضها وجوها الذي تتنفس فيه ،⁴ و أظهر و أسلم و أدعى لراحة النفس ، لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً و يلج في أعراض الناس ، و إما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطبيق⁵ ، و اسم التفصيل بقوله : ﴿ أَزْكَى ﴾ ، مسلوب المفاضلة و المراد تقوية تلك التزكية لان ذلك جنة من ارتكاب ذنوب عظيمة⁶ ، والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية ، و هو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري ، الخبير بحركات نفوسهم و جوارحهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10248

2 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 229* . هو عنترة بن عمرو بن شداد بن معاوية العبسي ، أحد أشهر شعراء العرب من أصحاب المعلقات ، توفي سنة 22 ق هـ ، ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي ، مصدر سابق ، ص 230 .

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 204

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2512

5 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10253

6 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 204

بِمَا يَصْنَعُونَ¹، فهو سبحانه و تعالى ، خالق هذه النفس البشرية ، و واضح مسألة الشهوة و الغريزة ، ليربط بين الرجل و المرأة ، وليحقق بها عملية النسل و بقاء الاستخلاف في الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة، لزهّد الكثيرون في الزواج و في الإنجاب و ما يترتب عليه من تبعات²، ثم أخبر أنه ﴿خَبِيرٌ﴾ بأفعالهم و أحوالهم ، وكيف يجيلون أبصارهم ؟ وكيف بسائر حواسهم وجوارحهم ؟ فعليهم، إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة و سكون³، وذيل بجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ، لأنه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض و الحفظ، لأن المقصود من الأمر الامتنال⁴، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ، فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب ، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف ، لا يخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع و الحياة⁵، فالنساء مأمورات أيضا بغض الأبصار ، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته ، وإن اشتتهت غضت بصرها رأسا ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك ، وغضها بصرها من الأجانب أصلا أولى بها و أحسن⁶، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ و الزينة حلال للمرأة ، تلبية لفطرتها فكل أنثى مولعة بان تكون جميلة و أن تبدو جميلة والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها في الفطرة وأحد، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكمالها ، وتجليته للرجال⁷، من رحمة الله بالنساء أن قال : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...﴾ ، و قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ يعني الأشياء الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأن تمشي في

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدر السابق، م4، ص 2512

2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص 10253

3 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 229

4 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9، ص 204

5 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2512

6 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 229

7 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2512

الشارع فتظهر عينيها و ربما فيها كحل مثلاً ، و تظهر يدها و فيها خاتم أو حناء فلا مانع أن تظهر مثل هذه الزينة الضرورية ، و نلاحظ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا.. ﴾ ، و المراد تغطية الزينة ، فالجراحة التي تحتها من باب أولى¹ ، و الزينة ما تزين به المرأة، من حلى أو كحل أو خضاب فما كان ظاهراً منها كالخاتم و الفتحة ، أي - حلقة من فضة لا فص فيها - والكحل و الخضاب ، فلا بأس بإبدائه للأجانب و ما خفي منها كالسوار و الخلخال و الدمج و القلادة... الخ فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين² ، ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ما كان موضوعة مما لا تستره المرأة و هو الوجه و الكفان و القدمان³ ، فأما ما ظهر من الزينة في الوجه و اليدين ، فيجوز كشفه لأن كشف الوجه و اليدين مباح لقوله : ﷺ ، لأسماء بنت أبي بكر (يا سماء إن المرأة إذا بلغت المحيض - لم يصلح أن يرى منها إلا هذا - و أشار إلى وجهه وكفيه)* ، ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، و الجيب فتحة الصدر في الثوب ، و الخمار غطاء الرأس و النحر و الصدر ليداري مفاتنهن: فلا يعرضنها للعيون الجائعة ، و لا حتى لنظرة الفجاءة التي يتقي المتقون إن يطيلوها أو يعاودوها، و لكنها قد تترك كميناً في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة⁴ ، إذن راعى الشارع الحكيم زي المرأة من أعلى فقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، و من الأدنى فقال: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ... ﴾ الأحزاب (59) ، ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجهن ، لأن الزينة جعلت من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ، أبو الزوج إلا أن يخاف منه الفتنة ، فلا تبدي الزوجة زينتها أمامه، ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ ، أي النساء اللاتي يعملن معها في البيت، كالوصيفات و الخادמות، ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ و المراد: هنا أيضاً ملك اليمين من النساء ،

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10256

2 - ينظر الزمخشري: الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 230

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 205

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2513 . * رواه أبو داود في سننه كتاب

دون الرجال¹ ، كما يجوز أن يراد بالجيوب: الصدر تسمية بما يليها ويلابسها² ، والباء في قوله : ﴿ بِخُمْرِهِنَّ ﴾ لتأكيد اللصوق مبالغة في أحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل ﴿ يَضْرِبْنَ ﴾ ، و قوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ، أعيد لفظ ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ المتقدم و ليبيني عليه الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ الذي مقتضى ظاهره أن يعطف على ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ، لبعد ما بين الأول والثاني، و البعولة : جمع بعل وهو الزوج و سيد الأمة ، كما أن الإضافة في قوله: ﴿ نِسَائِهِنَّ ﴾ ، إلى ضمير ﴿ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إن حملت على ظاهر الإضافة ، كانت الإضافة دالة على أنهم النساء اللاتي لهن بهن مزيد اختصاص ، فقل المراد نساء أمهاتهن ، أي المؤمنات ، مثل الإضافة في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ، البقرة (281) أي من رجال دينكم³ ، واستثني ﴿ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ ، وهم الذين لا يشتهون النساء ، لسبب من الأسباب ، كالجلب و العنة و البلاهة و الجنون، و سائر ما يمنع الرجل أن تشتهي نفسه المرأة ، لأنه لا فتنة هنا ولا إغراء، و يستثني ﴿ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، وهم الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس ، فإذا ميزوا وثار فيهم هذا الشعور ، ولو كانوا دون البلوغ فهم غير داخلين في هذا الاستثناء⁴.

نلاحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وصف بالجمع ﴿ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، مع أن المراد الأطفال ، لكن قال: ﴿ الطِّفْلَ ﴾ ، لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، و ليس له هوى فكل الأطفال إذن كأنهم طفل واحد ، حيث لم يتكون لكل منهم فكره الخاص به ، الجمع يحب اللهو و اللعب ، ولا شيء وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة ، لوجود التوحيد في الغرائز و في الميول، و قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، يظهر على كذا لها معنيان في اللغة ،

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10257

2 - ينظر الزمخشري: الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 231

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 209

4- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2514

الأولى : بمعنى يعلم و الثاني ، بمعنى يعلو يغلب و يقهر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ الكهف (93) أي السد الذي بناه ذو القرنين فالمعنى ما استطاعوا أن يعلوه و يرفعوا عليه¹ ، و الإربة : الحاجة قيل هم الذين يتبعونكم ليصيوا من فضـل طعامكم ، و لا حاجة لهم إلى النساء لأنهم بله ، لا يعرفون شيئاً من أمرهن و قرئ ﴿ غَيْرِ ﴾ بالنصب على الاستثناء ، أو الحال و الجر على الوضعية ، وضع الواحد موضع الجمع ، لأنه يفيد الجنس و يبين ما بعده أن المراد به الجمع ، ونحوه ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ ، الحج 5 ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، إما من ظهر على الشيء ، إذا اطلع عليه أي : لا يعرفون ما العورة و لا يميزون بينها وبين غيرها² ، ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، أي لم يطلعوا عليها و هذا كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء و ذلك ما قبل سن المراهقة.³

ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذا الإجراء ، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة ، و تهيج الشهوات الكامنة ، و توقظ المشاعر النائمة ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ ، و إنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية ، وانفلاتها وانسحاباتها ، فان الخيال ليكون أحياناً أقوى في إثارة الشهوات من العيان ، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو حليها ، أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته⁴ ، و معلوم أن طريقة مشي المرأة تبدي الكثير من زينتها التي لا يراها الناس و تسبب كثير من الفتنة ، لذلك يقول تعالى ، بعدها ، و في ختام هذه المسائل : ﴿ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، لم يقل الحق

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10258

2 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 232

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 212

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2514

تعالى: يا من أذنبتم بهذه الذنوب التي سبق الحديث عنها، إنما قال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ، فحث الجميع على التوبة¹.

فما معنى هذه التوبة ؟ قلت : أراد بها ما يقوله العلماء : إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه يلزمه كلما تذكره أن يجدد عنه التوبة ، لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقي ربه ، و قرئ أيضاً المؤمنون ، يضم الهاء و وجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين ، اتبعت حركتها حركة ما قبلها²، ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، و وقع التفات من خطاب الرسول ﷺ إلى خطاب الأمة ، لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل ، وليس استئناف تشريع ، ونبه بقوله : ﴿ جَمِيعًا ﴾ ، على أن المخاطبين هم المؤمنون و المؤمنات ، و إن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب ، و أن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابوا.³

و بذلك يثير الحساسية برقابة الله ، و عطفه ، و رعايته، و عونته للبشر ، في ضعفهم أمام ذلك الميل الفطري العميق ، الذي لا يضبطه مثل الشعور بالله وبتقواه .

العنصر الثالث: الزواج والاستغفاف كبديل عن الزنا والبيغاء(من الآية 32

إلى الآية 34)

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ... وَمَوْعِظَةُ الْمُتَّقِينَ ﴾

و إلى هنا كان علاج المسألة علاجاً نفسياً و وقائياً، و لكن ذلك الميل حقيقة واقعية ، لا بد من مواجهتها بحلول واقعية أجابية ، هذه الحلول الواقعية هي تيسر الزواج و المعاونة عليه ، مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية ، أو إغلاقها
١٠٠ هـ أنكحوا الأيامي منكم و الصالحين من عبادكم و إمائكم... من بعد إكراههن

- و هو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة- فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجري الحياة على طبيعتها و بساطتها ، لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، و الأيامي هم الذين لا أزواج لهم من الجنسين، و المقصود هنا الأحرار. و قد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك : ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾.

و كلهم ينقصهم المال، كما يفهم من قوله بعد ذلك: ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾، و هذا أمر للجماعة بتزويجهم ، و الجمهور على أن الأمر هنا للندب¹، و نلاحظ هنا أن الأمر في ﴿ وَأَنْكِحُوا ... ﴾ ، جاء هكذا بهمزة القطع ، مع أن الأمر للواحد ﴿ أَنْكِحْ ﴾ بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا ﴿ وَأَنْكِحُوا ﴾ ، ليس للمفرد الذي يستنكح الأيم ، إنما لغيره أن ينكحه ، و في الحديث الشريف: (إذا جاءكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد كبير) * .

و قوله تعالى: ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ... ﴾ ، و قوله ﷺ: (تنكح المرأة لأربع: لمالها و جمالها و حسبها و دينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)² ، و المراد: انكحوا من تأيم منكم من الأحرار و الحرائر، و من كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريككم. و قرئ : من عبيدكم ، و هذا الأمر للندب ، لما علم أن النكاح أمر مندوب إليه ، و قد يكون للوجوب في حق الأولياء ، عند طلب المرأة ذلك.³ ووزن أياى عند الزمخشري ، أفاعل لأنه جمع أيم بوزن فيعل ، و فيعمل لا يجمع على فعالي، فأصل أياى أياىم ، فوقع فيه قلب مكاني قدمت الميم للتخلص من ثقل الياء ، بعد حرف المد ، و فتحت الميم للتخفيف فقلبت الياء ألفا

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2514. * رواه الترميذي في كتاب النكاح،

رقم الحديث 1005.

2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص10261. * رواه مسلم في كتاب الرضاع،

رقم الحديث 2661.

3 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص234.

و ﴿الْأَيَامِي﴾ صيغة عموم لأنه جمع معروف باللام فتشمل البغايا، و جملة :
﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ..﴾ الخ استئناف بياني ، لأن عموم الأيامى و العبيد و الإماء في
صيغة الأمر، يثير سؤال الأولياء ، و الموالى أن يكون الراغب في تزوج المرأة
الأيمة فقيراً، فهل يرده الولي؟ ، و أن يكون سيد العبد فقيراً لا يجد ما ينفقه على
زوجته ، و كذلك سيد الأمة يخطبها رجل فقير حر أو عبد ، فجاء هذا البيان إرادة
العموم في الأحوال.¹ ولا يجوز أن يكون الفقر عائقاً عن التزويج- متى كانوا
صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً و نساء- فالرزق بيد الله ، و قد تكفل الله
بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف : ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ﴾ و قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل
الله ، المكاتب الذي يريد الأداء ، و الناكح الذي يريد العفاف)² ، فالفقر قد يكون
سبباً في عدم الإقبال على البنت ، أو عدم أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى
الله عنا ، و نحن نتقيه ونقصد الإعفاف و الطهر؟³

و لا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة و ما كان مصلحة و نحوه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ
اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾⁴ {الطلاق 3.2} ، و في انتظار
قيام الجماعة بتزويج الأيامى، يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج:
﴿وَلَيْسَتَعْقِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ...﴾ ، لا يضيق على من يبتغي العفة و هو يعلم نيته و صلاحه⁵، فعطاء الله
دائم لا ينقطع، لأن خزائنه لا تنفذ و لا تنقص ، و الإنسان يمسك عن الإنفاق لأنه
يخاف الفقر ، أما الحق - تبارك و تعالى - فيعطي العطاء الواسع لأن ما عنده لا

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، السابق ، ج 9 ، ص 215

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م 4، ص 2515. * رواه الترميذي في سننه في كتاب فضائل الجهاد، رقم الحديث 1579.

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج 16 ، ص 10263

4 - ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج 3، ص 235

5 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م 4، ص 2515

ينفذ.¹ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ ، أي غني ذو سعة لا يبرزوه إغناء الخلائق ، و لكنه ﴿عَلِيمٌ﴾
 يبسط الرزق بمن يشاء و يقدر،² و صفة الله ﴿وَاسِعٌ﴾ مشتقة من فعل وسع ،
 باعتبار أنه وصف مجازي لأن الموصوف بالسعة هو إحسانه ، و ذكر ﴿عَلِيمٌ﴾ بعد
 ﴿وَاسِعٌ﴾ إشارة إلى أنه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة ، في مقدار
 الإعطاء³ ، و هكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية ، فيهيئ لكل فرد صالح
 للزواج أن يتزوج ، ولو كان عاجزا من ناحية المال ، و المال هو العقبة الكؤود
 غالبا في طريق الإحصان من الآية ﴿وَلَيْسَتَعْفَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ..... مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في حالة إذا لم ننكح الأيامي،
 و لم نعنهم على الزواج ، و لم يقدرُوا هم على القيام بنفقاته، يصف لهم الحق -
 سبحانه و تعالى - العلاج المناسب و هو الاستعفاف، و قوله تعالى:
 ﴿وَلَيْسَتَعْفَى...﴾ يعني يحاول العفاف و يطلبه و يبحث عن أسبابه ، و يجاهد أن
 يكون عفيفا، و أول أسباب العفاف أن يَغْضُ بصره حين يرى ... و لم يقل :
 و ليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه و ليسع إليه⁴ ، و ليجتهد في العفة
 و ظلف النفس ، كأن المستعفف ، طالب من نفسه العفاف و حاملها عليه⁵ ،
 ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا...﴾ أي: بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة وقوله كذلك :
 ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى،
 لان الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
 مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق 2.3) فمن هذا الباب يأتيه غنى
 الله⁶ . و يجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ..﴾ ، ترجية

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج16، ص 10263

2- ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ، ص 237

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9، ص 217

4 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه، ج9، ص217

5 - ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج3، ص237

6 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج16، ص 10265

للمستعفين، و تقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى¹، و السين و التاء في قوله: ﴿وَلَيْسَتَعْقِفَ...﴾، للمبالغة في الفعل، وليعف الذين لا يجدون نكاحاً، ووجه دلالة على المبالغة أنه في الأصل استعارة، جعل طلب الفعل، بمنزلة طلب السعي فيه ليدل على بذل الوسع، و ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ لا يجدون قدرة على نكاح ففيه حذف مضاف²، و حتى تنهياً الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله، أوجب عز وجل إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبه على حريته، و ذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته، ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾³ الكتاب: معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة في ورق، و المراد هنا المكاتبه، و هي أن تكتب عقداً بينك و بين العبد المملوك، تشترط فيه أن يعمل كذا أو كذا، بعدها يكون حراً، إن أدى ما ذكر في عقد المكاتبه، ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا...﴾ يعني: إن كانت حريتهم ستؤدي إلى خير كأن ترفع عنهم ذلة العبودية، و تجعلهم ينشطون في الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم.⁴ ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾، مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ كقولك: زيدا فاضربه، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط، و الكتاب و المكاتبه، كالعتاب و المعاتبه: و هو أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم، فإن أداها عتق، و خيراً ﴿قدرة على أداء ما يفارقون عليه، و قيل: أمانة و تكسبا، ﴿وَآتَوْهُمْ﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب⁵ و قال بعض المفسرين: الخطاب في قوله: ﴿وَآتَوْهُمْ﴾ للمسلمين أمرهم الله بإعانة المكاتبين. و الموصول في قوله: ﴿الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يجوز أن يكون وصفاً لـ ﴿مَالِ اللَّهِ﴾ و يكون العائد محذوفاً تقديره: آتاكموه، و يجوز أن يكون وصفاً لاسم الجلالة، فيكون امتناناً و حثاً على الامتنان،

1 - ينظر الزمخشري: تفسير الكشاف، المصدر السابق، ج3، ص 237

2 - ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، المصدر السابق، ج9، ص 218

3 - ينظر سيد قطب: في ظلال القرآن، المصدر السابق، م4، ص 2516

4 - ينظر الشعراوي: تفسير الشعراوي، المصدر السابق، ج16، ص 10265

5 - ينظر الزمخشري: تفسير الكشاف، المصدر السابق، ج3، ص 238

بتذكير أنه ولي النعمة ويكون مفعول ﴿آتَاكُمْ﴾ محذوفا للعموم ، أي آتاكم على الامتثال بتذكير أنه و لي النعمة، و يكون مفعول ﴿آتَاكُمْ﴾ محذوفا للعموم، أي آتاكم نعماً كثيرة كقوله ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾¹، إبراهيم (34) وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة ، احتراف بعض الرقيق للبغاء ، و كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، و جعل عليها ضريبة يأخذها منها- و هذا هو البغاء في صورته ، التي ما تزال معروفة حتى اليوم - فلما أراد الإسلام تطهير البيئة الإسلامية حرم الزنا بصفة عامة ، وخص هذه الحالة بنص خاص: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾² فهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر، و وبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا، من هذا الوجه الخبيث، و وعد المكروهات بالمغفرة و الرحمة ، بعد الإكراه الذي لا يد لهن فيه.² يقال للملوك فتى ، وللمملوكة فتاة ، فقد نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل: (عبدى و أمتى، إنما يقول: فتاتى و فتاتى ، فهذه التسمية أكرم لهؤلاء و أرفع)* ، فالفتى من الفتوى و القوة كأنك تقول: هذا قوتي الذي يساعدنى و يعيننى على مسائل الحياة، فالنبي ﷺ - يريد أن يرفع من شأنهم.³، والبغاء: مصدر البغي- فإن قلت لم أقحم قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ، قلت: لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، و أمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرها ، و لا أمره إكراها ، وكلمة ﴿إِنْ﴾ و إثارها على (إذا) ، إيذان بأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة طوعية منهن ، و ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم أو لهن ، أو لهم و لهن إن تابوا و أصلحوا،⁴ و البغاء مصدر باغت الجارية. إذا تعاطت الزنى بالأجرة حرفة لها، فالبغاء الزانى بأجرة ، و اشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة و التكرير ، و لذلك لا يقال إلا: باغت الأمة، و لا يقال:

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق، ج9، ص221

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2516.* رواه أبو داود في سننه، كتاب

الأدب، رقم الحديث 4975.

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج16، ص 10267

4 - ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج3، ص 239

بغت. وهو مشتق من البغي بمعنى الطلب. و تسمى المرأة المحترفة بغيا بوزن
 فعول بمعنى فاعل و لذلك لا تقترن به هاء التأنيث، فأصل بغي بغوي، فاجتمعت
 الواو والياء، و سبقت أحدهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء.
 ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما، تنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
 تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ النساء (43) توطئة لتحريم الخمر البتة.¹ و قوله
 تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿تُكْرَهُوا﴾ ، أي لا
 تكرهوهن لهذه العلة . ذكر هذه العلة لزيادة التبشيع كذكر ﴿إِنْ أَرَدَنْ
 تَحَصُّنًا﴾ ، و ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ﴾ ، هو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمامهم ، وهو
 ما يسمى بالمهر أيضا و الذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان جانب المكرهين وجانب
 المكرهات (بفتح الراء) فأما جانب المكرهين فلا يخطر بالبال إن الله غفور رحيم
 لهم، بعد أن نهاهم عن الإكراه ، وأما الإمام المكرهات فإن الله غفور رحيم
 لهن.² وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، فالفاء رابطة الجواب - و حرف (إن) في
 هذا المقام يفيد التعليل، و يغني غناء لام التعليل.³ وقيل غفور لهن وقيل غفور لهم
 وقيل غفور لهن و لهم،⁴ ثم يقول الحق تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ
 وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، المعنى: لا عذر لكم لأن الله
 تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة ، التي تضمن لكم شرف الحياة و طهارتها،
 ونقاء نسل الخليفة لله في الأرض، إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات
 الكونية التي تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، و على المعجزات التي تأتي لتثبت
 صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات
 القرآن الكريم.⁵ وقوله تعالى ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ،

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 222

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص227

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه، ج9 ، ص228

4 - ينظر محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج4 دار إحياء التراث،

بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص 112

5 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10269

جعلنا لكم موعظة و عبرة بالأأمم السابقة عليكم ، والتي بلغت شأوها في الحضارة، ومع ذلك لم تمتلك مقومات البقاء، ولم تصنع لنفسها المناعة التي تصونها فانهارت¹، ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ هي الآيات التي بينت في هذه السورة و أوضحت في معاني الأحكام و الحدود ، و يجوز أن يكون الأصل مبيناً فيها فاتسع في الظرف ، و قرئ بالكسر أي بينت هي الأحكام و الحدود ، جعل فعل لها على المجاز ، أو من (بين) بمعنى تبين ، و منه المثل " قد بين الصبح لذي عينين" ﴿وَمَثَلًا مِنْ﴾ أمثال ، من ﴿قَبْلَكُمْ﴾ أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف و مريم، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما وعظ به في الآيات ، و المثل من نحو قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾²، و ﴿مِنْ﴾ ، في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ، ابتدائية ، أي مثلاً ينشأ ويتقوم من الذين خلوا ، و المراد نشأة المشابهة ، وفي الكلام حذف مضاف يدل عليه السياق تقديره: من أمثال الذين خلوا من قبلكم³، ففي الآية وجهان معروفان أحدهما: ، قوله : مبينات اسم فاعل بين المتعدية، و عليه فالمفعول محذوف أي مبينات الأحكام و الحدود .

و الثاني: أن قوله: مبينات ، وصف من بين اللازمة و هو صفة مشبهة ، و عليه فالمعنى آيات مبينات بينات واضحات و يدل لهذا الوجه الأخير قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ النور(1)⁴ ، و يعقب هذا الشوط بصفة القرآن التي تناسب موضوعه و جوه: فهو آيات مبينات ، لا تدع مجالاً للغموض و التأويل، و الانحراف عن النهج القويم ، و هو عرض لمصائر الغابرين الذين انحرفوا عن نهج الله ، فكان مصيرهم النكال ، وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتخشى و تستقيم .

إن الميل الجنسي يجب أن يظل نظيفاً بريئاً ، موجهاً إلى إمداد الحياة بالأجيال الجديدة ، و على الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية ، بحيث يكون كل فرد

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي، المصدر نفسه، ج16، ص 10270

2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر نفسه، ج16، ص 10270

3 - ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 240

4 - ينظر الشنقيطي : أضواء البيان، المصدر السابق، ج4، ص 115

منها ، في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة ، و بالزواج . فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة ، عولجت هذه الحالات علاجاً خاصاً ، و بذلك لا نحتاج إلى البغاء ، وإلى إقامة مقادر استثنائية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات تحت سمع الجماعة و بصرها ، إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج ، بحيث لا تخرج مثل هذا النتن.

- المحور الرابع:

- أثر الإيمان في النفس البشرية (من الآية : 35 ، إلى الآية : 57)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾

إن اسم هذه السورة مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وبعد أن بينت آيات سورة النور هذه الأحكام ، و شرعت التشريعات الاجتماعية و بينت ضرورتها للناس لتزكية نفوسهم وتطهير مجتمعاتهم، أضافت بياناً آخر يحتاج إليه الناس أيضاً كحاجتهم إلى بيان الأحكام أو اشد وهو الهداية والتوفيق إلى التزام هذه الأحكام و تطبيقها على مستوى الأفراد والمجتمعات ، فالمعرفة و حدها لا تكفي و لا بد أن يكون معها انقياد و استسلام و التزام ، و لما كانت الهداية من الأمور المعنوية غير المحسوسة ، المستمدة من الله تعالى قربتها الآيات إلى الأذهان .

فضربت لها هذا المثال الرائع بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، و لا بد بعد هذا المثال العجيب المتقن المحكم أن يسأل سائل نفسه : أين هؤلاء المنتفعون بهذه الأمثال و المهتدون بما فيها من أنوار؟ هؤلاء هم المهتدون بنور الله تعالى المنتفعون بآياته الملتزمون بأحكام شريعته ، و أما الضالون هم المحجوبون عن أنوار هدايته فإنهم يضربون في بيداء الحياة على غير نور و هدى دون أن يدركوا حكمة وجودهم و جوهر حياتهم. فوضوح الأدلة و ظهورها لا يكفي وحده، فلا غنى للإنسان عن هدايته تعالى بتوفيقه إلى طاعته، و الحق واضح أبلج لا لبس فيه و لا غموض و مع ذلك تجد أكثر الناس لا ينفادون للحق و لا يذعنون له، ثم أعلنت الآيات حقيقة علمية كبيرة ما كان أحد يعلمها عند نزول القرآن الكريم فكشفت عن وحدة الأصل للبنية المادية لجميع المخلوقات الحية في الأرض و إن

كثيراً من الناس تحيط بهم أنوار الهداية من كل جانب و مع ذلك اعرضوا و لم يهتدوا لأنهم حرموا من توفيق الله تعالى و هاديته .

- العنصر الأول : الاتصال بالله نور و سكينه، (من الآية : 35 ، إلى

(الآية : 38)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾
إن التعليم والتهديب والتوجيه ، يعالج الكيان البشري ، حتى أشرق بالنور،
وتطلع إلى الأفق الوضيء ، واستشرف النور الكبير في أفق السماوات و
الأرض، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل . الغامر في عالم كله إشراق و كله
نور، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، و ما يكاد هذا النص العجيب يتجلى حتى
يفيض النور الهاديء الوضيء ، فيغمر الكون كله ، و يفيض على المشاعر
والجوارح و ينسكب في الحنايا و الجوانح ، و حتى يسبح الكون كله في فيض
النور الباهر، و حتى تعانقه و ترشفه العيون و البصائر فالنور الذي منه
قوامها ومنه نظامها ، فهو الذي يهبها جوهر وجودها ويودعها ناموسها ، و لقد
أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله ﷺ ففاض بها وهو عائد من الطائف ،
نافض كفيه من الناس ، عائد بوجه ربه يقول : (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت
به الظلمات ، و صلح عليه أمر الدنيا والآخرة) ، و فاض بها في رحلة الإسراء
والمعراج . فلما سألته عائشة : هل رأيت ربك قال (نور، أنى أراه)¹ والنور :
حقيقته الإشراق والضياء ، وهو اسم جامد لمعنى ، فهو كالمصدر لأننا وجدناه أصلاً
لاشتقاق أفعال الإنارة و بذلك كان الإخبار به بمنزلة الأخبار بالمصدر،
أو باسم الجنس في إفادة المبالغة لأنه اسم ماهية من المواهي ، فهو و المصدر سواء
في الاتصاف ، فمعنى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إن منه ظهورهما ،
و النور هنا صالح لعدة معان تشبه بالنور ، و إطلاق اسم النور عليها مستعمل في
اللغة، فالأخبار عن الله تعالى بأنه نور، إخبار بمعنى مجازي للنور لا محالة

بقريئة ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهرًا أو عرضاً .. و قال الغزالي في رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار : " النور هو الظاهر الذي به كل ظهور " ، أي الذي تتكشف به الأشياء و تتكشف له و تتكشف منه وهو النور الحقيقي و ليس فوقه نور ، و جعل اسمه تعالى النور دالا على التنزه عن العدم فال إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار في الخلق والإرشاد والتشريع" وتبعه بن برجان الإشبيلي : في شرح الأسماء الحسنى فقال : "إن اسمه النور آل إلى صفات الأفعال".¹ و أما وصف النور هنا فيتعين أن يكون ملائماً لما قبل الآية من قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ ، وما بعدها في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ ، والتزم حكماء الإشراق من المسلمين و الصوفية الحكماء معاني من إطلاقات النور ، و أشهرها ثلاثة و هي : البرهان العلمي والكمال النفساني ، وما به مشاهدة النورانيات من العوالم و إلى ثلاثتها أشار شهاب الدين يحي السهر وردي في أول كتابه (هياكل النور) بقوله " يا قيوم أيدنا بالنور. وثبتنا على النور واحشرنا إلى النور " ، فأحسن ما نفسر به قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور و خاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي و السفلي ، وهو من استعمال المشترك في معانيه ،² و المعنى نور السماوات و الأرض الحق ، شبهه بالنور في ظهوره و بيانه كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ البقرة (257) (أي من الباطل إلى الحق ، وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات و الأرض ، وإما أن يراد أهل السماوات والأرض و أنهم يستضيئون به ،³ لكن الكيان البشري لا يقوى طويلاً على تلقي ذلك الفيض الغامر دائماً ولا يستشرق طويلاً ذلك الأفق البعيد، فبعد أن جلى النص هذا الأفق المترامي، عاد يقارب مداه و يقربه إلى

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 231-232

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : المصدر نفسه، ج 9 ، ص من 232-233

3 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 240-241

الإدراك البشري المحدود في مثل قريب محسوس ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ... نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ ، وهو مثل يقارب الإدراك المحدود صور غير المحدود، و يرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس حين يقصر عن تملي الأصل و هو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه و آفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير.

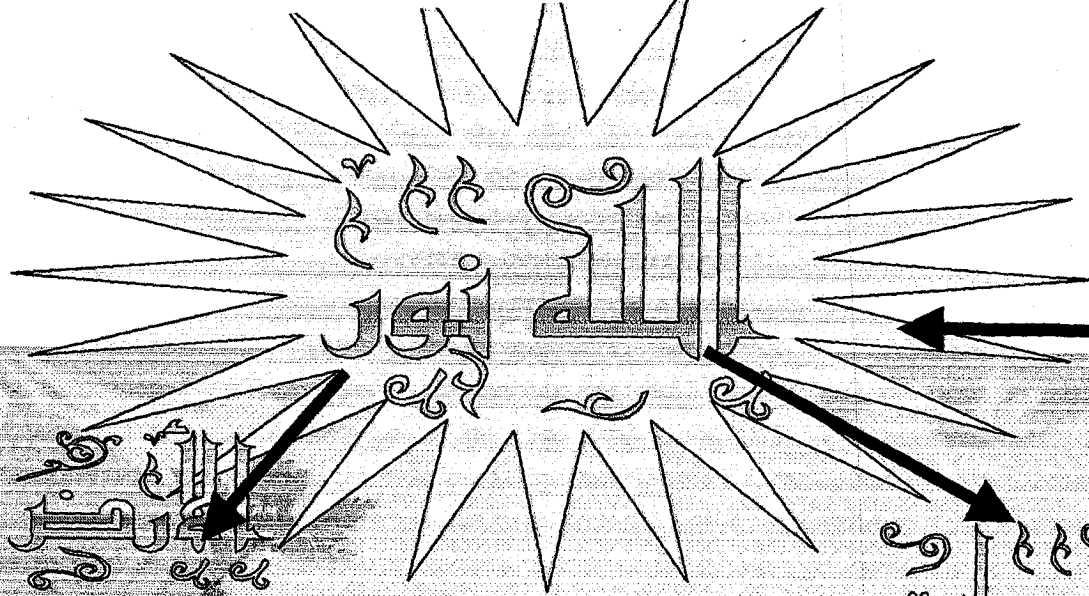
و من عرض السماوات و الأرض إلى المشكاة. و هي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة يوضع فيها المصباح فتحصر نوره و تجمعه، فيبدو قويا متألقا ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ... الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ...﴾ تقيه الريح و تصفي نوره فيتألق و يزداد... ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...﴾ فهي بذاتها شفافة راتقة سنية منيرة ... هنا يصل بين المثل و الحقيقة ، بين النموذج و الأصل . حين يرتقي من الزجاجاة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير¹ والمثل تشبيه حال بحال وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ، فمعنى ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ شبيه هديه حال مشكاة... فلا حاجة إلى تقدير كنور مشكاة ، لان المشبه به هو المشكاة وما ينتبعها.² و قد اختلف العلماء في تحديد المقصود بـ ﴿نُورِهِ﴾ إلى أي شيء يرجع ضمير الهاء ؟ قيل : إن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه (السياق) سياق الكلام وتقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن ، و ما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستمد به من القرآن الكريم والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف.³ وقيل : إن الضمير عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن كمشكاة.⁴ و قال كعب: يرجع

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2519

2- ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 235

3 - ينظر إسماعيل بن كثير: تفسير الحافظ ابن كثير ، ج 5 ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، د. ت ، د. ط ،

4 - ينظر إسماعيل بن كثير: المصدر نفسه ، ج 5 ص 101



الله نور
الله نور

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ
نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الرسول

العباد

المؤمنون

الصالحون

قلب المؤمن

العلماء

الضمير إلى محمد - ﷺ¹ ، ويرى أبو السعود : أنه القرآن الكريم كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالإنزال و التبیین وقد صرح بكونه نورا أيضا في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ المائدة (174).²، إذن فالضمير في لفظ ﴿نُورِهِ﴾ يحتمل الأقوال كلها : المؤمن - الله عز وجل - الرسول ﷺ ، القرآن الكريم ، وأولى الأقوال في ذلك فيما ترجح القرآن الكريم جاء في (زاد المسير) ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم فآمنوا به و صدقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مثل مشكاة.³ ، و هذا الرأي يتماشى مع مقدمة السورة خصوصا و مقاصدها عموما فالمقدمة كما رأينا فيها إشارة إلى أهمية الأحكام الواردة في السورة و هي لذلك فرضت ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وأغراض السورة تتمحور حول موضوع التربية الأسرية خاصة و هي الخلية التي يتم بها بناء المجتمع و لاشك أن هذه الأحكام كالمصباح تنير فترشد و تهدي إلى الذي هو خير، و كما اختلف في تحديد مقصود الضمير في ﴿نُورِهِ﴾، فقد وقع الاختلاف أيضا في تعيين وجه الشبه فقد قيل : انه شبه القرآن بالمصباح يستضاء به ولا ينقص ، و الزجاجة قلب المؤمن و المشكاة لسانه وفمه و الشجرة المباركة شجرة الوحي ، تكاد حججه تتضح و إن لم تقرأ ، شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح ، فالمشكاة قلبه و المصباح نور الإيمان فيه ، و الزجاجة قلبه ، فكأنه مما فيه من القرآن و الإيمان كوكب مضيء من شجرة وهي الإخلاص ، فمثل الإخلاص عنده كشجرة ، تصيبها الشمس ، فكذلك هذا المؤمن قد احتسرس من أن تصيبه الفتن ، فان أعطي شكر وإن ابتلي صبر و إن قال صدق و إن حكم عدل فقلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى كما يكاد هذا الزيت يضئ ولو لم

1 - ينظر ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ج 6، دار

المكتب الاسلامي، بيروت، ط3، 1984، ص 40

2 - ينظر ابو السعود محمد بن محمد : تفسير أبي السعود ، ج4 ، دار المصحف ، القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ص

3- ينظر ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد السير في علم التفسير، المصدر

تمسسه نار فإذا مسته اشتد نوره.¹، و قيل في قوله تعالى: ﴿كَمْشَكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾، المقصود: كمصباح في مشكاة و انه قدم المشكاة في الذكر لان المشبه به هو مجموع الهيئة فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله: ﴿كَمْشَكَاةٍ﴾، و المنتهي بقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فلذلك كان دخول كاف التشبيه على كلمة مشكاة دون لفظ مصباح لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبه بها، دون لفظ مصباح، بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني في تصور الهيئة المتخيلة حين يلح الناظر إلى انبثاق النور، ثم ينظر إلى مصدره فيرى مشكاة ثم يبدو له مصباح في زجاجة.²، و جملة ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، مستأنفة إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلي هنا، هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها، قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة و المصباح و الزجاج الخالص و الزيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة و شعاعه منحصراً فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها مما لو كان في بيت.³، إن ذلك النور الطليق الشائع في السماوات و الأرض الفائض يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه و تذكره و تخشاه، و تتجرد له و تؤثره على كل مغريات الحياة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ أَذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ... بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، هناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك، و مشهداً لبيوت هنا على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب، و هناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة و القلوب المشرقة بالنور في بيوت الله، بدأت الآية بالجار و المجرور ﴿فِي بُيُوتِ...﴾ و لا بد أن نبحت له عن متعلق فالمعنى: هذا النور الذي سبق الحديث عنه، في بيوت أذن الله أن ترفع.⁴، و ﴿فِي بُيُوتِ﴾ يتعلق بما قبله،

1 - ينظر ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد السير في علم التفسير، المصدر نفسه،

ج 6، ص 45

2 - ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، المصدر السابق، ج 9، ص 235

3 - ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، المصدر نفسه، ج 9، ص 242

4- ينظر الشعراوي: تفسير الشعراوي، المصدر السابق، ج 16، ص 10275

أي كمشكاة في بعض بيوت الله ، و هي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت.¹، تلك البيوت ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ و إذن الله هو أمر للنفاذ فنتهياً بالرفعة و الارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ﴿ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ و تتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة المسبحة الواجفة المصلية الواهبة ، قلوب الرجال الذين ﴿ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ... ﴾²، ثم يقول سبحانه وتعالى في صفات هؤلاء الرجال ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ، ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى واخلد.³ و تتقلب القلوب والأبصار: إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول و الفرع و تشخص كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾، الأحزاب (10) ، إما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها ؛ لا تفقه و تبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر⁴، ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، و الرزق كل ما ينتفع به و كل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق و العلم رزق و الحلم رزق ... الخ.² ، و الأظهر عند الطاهر بن عاشور : أن قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ ظرف مستقر هو حال من ﴿ نُورِهِ ﴾ في قوله: ﴿ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾، و يجوز أن يكون ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ غير مرتبط بما قبله وانه مبدأ استئناف ابتدائي وان المجرور متعلق بقوله. ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ و تقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت و للتشويق إلى متعلق المجرور وهو للتسبيح وأصحابه ، و التقدير يسبح الله رجال في بيوت و يكون قوله: ﴿ فِيهَا ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ لزيادة الاهتمام بها ، و في ذلك تنويه بالمساجد و إيقاع الصلاة و الذكر فيها ، كما في الحديث (صلاة أحدكم في المسجد - أي مع الجماعة - تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة)*. والمراد بالغدو: وقت الغدو وهو

1 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 242

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 2521

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10281

4 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 243.* رواه البخاري في صحيحه، كتاب صلاة

الصباح ، لأنه وقت خروج الناس في قضاء شؤونهم ، و الأصل جمع أصيل و هو آخر النهار ، و المراد بالرجال أصحاب رسول الله ﷺ ، و من كان مثلهم في التعلق بالمساجد.¹ كما أن تخصيص التسييح بالرجال هنا لأنهم الغالب على المساجد ، و التحقيق أن البيوت المذكورة هي المساجد ، إذا علمت ذلك فاعلم أن تخصيصه من يسبح له فيها بالرجال في قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ... ﴾ ، يدل بمفهومه على أن النساء يسبحن له في بيوتهن لا في المساجد ، و قد يظهر للناظر أن مفهوم قوله : رجال مفهوم لقب.² ، و يجوز عند ابن عاشور أن يكون ﴿ في بُيُوتٍ ﴾ خبراً مقدماً و ﴿ رِجَالٌ ﴾ مبتدأ ، و الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ .

و معنى ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ ، أنهم لا تشغلهم تجارة و لا بيع عن الصلوات و أوقاتها في المساجد . فليس في الكلام أنهم لا يتجرون ولا يبيعون بالمرة ، و التجارة : جلب السلع للربح في بيعها ، و البيع أعم وهو أن يبيع أحد ما يحتاج إلى ثمنه . كما أن جملة ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ و جملة ﴿ يَخَافُونَ ﴾ صفتان لـ ﴿ رِجَالٌ ﴾ . ﴿ وَإِقَامِ ﴾ ، مصدر على وزن الأفعال و هو معتل العين فاستحق نقل حركة عينة إلى الساكن الصحيح قبله و انقلاب حرف العلة ألفاء ، و تقلب القلوب و الأبصار : اضطرابها عن مواضعها من الخوف و الوجل كما يتقلب المرء في مكانة³ .

كما ذكر عز وجل في هذه الآية الكريمة ، أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو و الأصل إلى آخر ما ذكر من صفاتهم ، أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب و الأبصار ، وهو يوم القيامة لشدة هولها ، و تأثيره في القلوب و الأبصار ، و معنى تقلب القلوب و الأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير ذكرها القرطبي وغيره وأظهرها الشنقيطي : أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف كما قال تعالى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ غافر (18) ، و إن

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 246

2 - ينظر الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 117

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 249

تقلب الأبصار هو زيغوغتها و دورانها بالنظر في جميع الجهات من شدة الخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ، الأحزاب (19).¹ و جملة ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، تذييل لجملة ﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ ﴾ و الحساب هنا بمعنى التحديد كما في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، مريم (37)

- العنصر الثاني: الابتعاد عن الله ضلال و ظلمة،(من الآية : 39 ، إلى

(الآية : 40)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ... فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

في مقابل ذلك النور المتجلي في السماوات و الأرض ، المتبلور في بيوت الله ، المشرق في قلوب أهل الإيمان ... يعرض السياق مجالا آخر مظلم لا نور فيه ، مخيفاً لا أمن فيه ، ضائعاً لا خير فيه ، ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيه الكفار : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ... وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ و التعبير يرسم لحال الكافرين و مآلهم مشهدين عجيبين ، حافلين بالحركة و الحياة ، في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتهم التماعاً كاذباً ، فيتبعه ، صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الري غافلاً عما ينتظره هناك وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة - فهذا السائر وراء السراب ، الظامئ الذي يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك يصل - فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال ، المرعبة التي تقطع الأوصال ، و تورث الخبال : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ الله الذي كفر به و جده ، و خاصمه و عاداه ، وجده هنالك ينتظره ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروعه ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغته و الفجاءة ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ...² فإياك أن تستبعد الموت أو البعث ، فالزمن بعد الموت و إلى أن تقوم الساعة زمن لا يحسب لأنه يمر عليك دون أن تشعر به كما

1 - ينظر الشنقيطي : أضواء البيان ، المصدر السابق ، ج4 ، ص122

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص2521

قال سبحانه : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، النازعات (46) والله تعالى أخفى الموت أسبايا و ميعادا ، لأن الإيهام قد يكون غاية البيان ، و بإيهام الموت تظل ذاكرًا له عاملاً للآخرة¹ ، و الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، مبتدأ و خبره جملة ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ .. الخ - فتشبيه الكافرين و أعمالهم تشبيه تمثلي : فشبّه ذلك بحالة ظمآن يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء ، لم يجد ماء و وجد هنالك غريماً يأسره و يحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة -² ، و السراب : ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة³ ، و قوله تعالى : ﴿ بَقِيْعَةٍ ﴾ الباء بمعنى في ، و ﴿ وَقِيْعَةٍ ﴾ ، أرض ، و الجار و المجرور وصف لـ ﴿ سَرَابٍ ﴾ ، وهو وصف كاشف لأن السراب لا يتكون إلا في قيع ، و قوله : ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ يفيد وجه الشبه و يتضمن أحد أركان التمثيل و هو الرجل العطشان وهو مشابه الكافر صاحب العمل . و ﴿ حَتَّى ﴾ ابتدائية فهي بمعنى فاء التفریع و قوله : ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ أي لم يجد ما كان يخيل إلى عينه انه ماء ، لم يجده شيئاً ، و الشيء : هو الموجود وجوداً معلوماً للناس ، و السراب موجود و مرئي ، فقلوه : ﴿ شَيْئًا ﴾ أي شيئاً من ماء بقرينة المقام و هذا التمثيل كقلوه تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ، الفرقان (23) و إذا هنا ظرف مجرد عن الشرطية ، و المعنى : زمن مجيئة إلى السراب أي وصوله إلى الموضع ، وقلوه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ ﴾ هو من تمام التمثيل أي لم يجد الماء و وجد في مظنة الماء الذي ينتفع به ، وجد من إن اخذ بناصيته لم يفلته ﴿ فَوَقَاهُ حِسَابَهُ ﴾ أي أعطاه جزاء كفره وافيًا و جملة ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تذييل والسريع ضد البطيء و المعنى انه لا يماطل الحساب و لا يؤخره عند حلول مقتضيه فهو عام في حساب الخير و الشر و لذلك كان تذييل⁴ - و دلت هذه الآية الكريمة على

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ، ص 10286

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 251

3 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 243

4 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 253

بطلان أعمال الكفار و أنها لاشيء لأنه قال في السراب الذي مثلها به ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ ﴾¹، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ... نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾، في هذا المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي موج من فوقه موج ، من فوقه سحب و تتراكم الظلمات بعضها فوق بعض حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب و الظلام² - و البحر اللجي : الواسع الكبير الذي تتلاطم فيه الأمواج بعضها فوق بعض و فوق هذا كله سحب إذن فالظلام مطبق لأنه طبقات متتالية و في أعماق بعيدة و قد بلغت هذه الظلمة حدا لا يرى الإنسان معها حتى يده التي هي جزء منه³ - أنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون ، و مخافة لا امن فيها و لا قرار ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ و نور الله هدي في القلب ، و تفتح في البصيرة فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها وفي مخالفة لا امن فيها ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك و العذاب لأنه لا عمل بغير عقيدة، و لا صلاح بغير إيمان ، إن هدى الله هو الهدى و أن نور الله هو النور⁴، إن شأن ﴿ أَوْ ﴾ إذا جاءت في عطف التشبيهات أن تدل على تخيير السامع أن يشبه بما قبلها و بما بعدها، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ البقرة الآية (19) ، أي مع اتحاد وجه الشبه. - وعلى الوجهين فقوله ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ عطف على ﴿ كَسْرَابٍ ﴾ و التقدير و الذين كفروا أعمالهم كظلمات و هذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة كما يقال : شاهدت سواد الكفر في وجه فلان ، و الظلمات : الظلمة الشديدة و الجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدة فالجمع كناية لان شدة الظلمة تحصل من تظاهر عدة ظلمات⁵، و اللجي منسوب إلى اللجة و اللج هو معظم ماء البحر ، أي في بحر عميق فالنسب مستعمل في التمكن من

1 - ينظر الشنقيطي : أضواء البيان ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 123

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2521

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10287

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2521

5 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 255

الوصف ، و قوله : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ استئناف والتقدير هي ظلمات و المراد بالظلمات التي هنا غير المراد بقوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ لان الجمع هنا جمع أنواع و هناك جمع أفراد من نوع واحد ، و قوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ هو من قبيل قوله ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾¹ البقرة (71) ، و في ﴿ أَخْرَجَ ﴾ ، ضمير الواقع فيه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ ، مبالغة في لم يراها: أي لم يقرب أن يراها : فضلا عن أن يراها.² كما أن جملة ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ تذييل للتمثيل.

– العنصر الثالث : المعين الأكبر للإيمان، (من: الآية 41، إلى : الآية

(46)

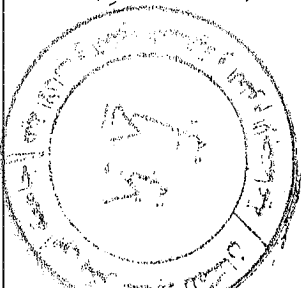
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

إن مشهد الكفر والظلام في عالم الناس، يتبعه مشهد الإيمان و الهدى و النور في الكون الفسيح، مشهد يتمثل في الوجود كله بمن فيه و ما فيه شاخصا يسبح لله إنسه و جنه ، أملاكه وأفلاكه أحياءه و جماده ... و إذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه في مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، إن الإنسان ليس مفردا في الكون الفسيح ، فإن من حوله وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه و من تحته ، إخوان له من خلق الله لهم طبائع شتى و صور شتى و أشكال شتى كلهم يلتقون في الله و يتوجهون إليه ، و يسبحون بحمده : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، و القرآن يوجه الإنسان إلى النظر في ما حوله من صنع الله و إلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائفة في الفضاء تسبح بحمد الله.³ ، و عجيب أن تسمع من يقول أن ﴿ مَنْ ﴾ ، في الآية للعاقل فهو الذي يسبح أما السماوات و الأرض فلا دخل لهما في هذه المسألة ﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه ، ج9، ص 256

2 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 244

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4، ص 2521



صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴿١﴾ ، و آخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحقيقة إنما هو تسبيح دلالة و حال لا مقال ، يعني هذه المخلوقات تدل بحالها على تسبيح الله و تنزيهه، و أنه واحد لا شريك له .
على حد قول الشاعر:

و في كل شيء له آية *** تدل على أنه الواحد

﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ﴾ ، فلماذا خص الطير بالذكر مع أنها داخلة في ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قالوا خصها ، لأن لها خصوصية أخرى و عجيبة لأن الله تعالى يريد أن يجعل الطير مثلاً و نموذجاً لشيء أعظم فخذ من المشهد الذي تدركه دليلاً على ما لا تدركه لكن من الفاعل في ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ، يمكن أن يكون الفاعل الطير و كل ما في الوجود ¹.

فتسبيح العقلاء حقيقية ، و تسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه ، و فيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته و مجازه ، و لذلك خولف بينهما في الجملة الثانية ، فعبّر بالصلاة و التسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين : فريق العقلاء و فريق الطير و أن جمعتهم كلمة "كل" فأطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء ، وليس في أحول الطير ما يستقيم إطلاق الدعاء عليه على وجه المجاز و أبقى لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازاً على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق و ذلك على التوزيع ولولا إرادة ذلك لقليل : كل قد علم تسبيحه ، أو كل قد علم صلاته.

و الخطاب في قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنبي ﷺ و المراد من يبلغ إليه ، أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله .

و الاستفهام مستعمل كناية عن التعجب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ، و مع ذلك قد حرّموا الهدى لما لم يجعله الله فيهم ².

و الصافات : يصفن أجنحتهن في الهواء و الضمير في ﴿عَلِمَ﴾ ، لكل ، أو لله و كذلك في ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ¹.

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المرجع السابق ، ج16 ، ص 10290-10293 .

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 258

و الرؤية هنا بصرية لأن تسبيح العقلاء مشاهد لكل ذي بصر ، و تسبيح الطير مشاهد باعتبار مسماه ، فما على الناظر إلا أن يعلم أن ذلك المسمى جدير باسم التسبيح ، و على هذا الاعتبار كان الاستفهام الإنكاري مكين الواقع ، وان شئت قلت: أن جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا التفات فيها إلى معنى الرؤية ، و قيل : الرؤية هنا قلبية ، و أغني المصدر عن المفعولين ، و جملة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تذييل وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال، و الإتيان بضمير العقلاء تغليب وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ... ﴾ ، البقرة (243) ² . ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ، فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه و إلى الله المصير، و مشهد آخر من مشاهد هذا الكون الذي يمرّ عليها الناس غافلين ، و فيها متعة للنظر ، و عبرة للقلب ومجال للتأمل في صنع الله و آياته ، و في دلائل النور و الهدى و الإيمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا.... يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ .

و المشهد هنا يعرض على مهل و في إطالة ، و تترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقي و تتجمع كل أولئك لتؤدي الغرض من عرضها في لمس القلب و إيقاظه ، و بعثه إلى التأمل و العبرة ، و تدبر ما وراءها من صنع الله ، إن يد الله تزجي السحاب و تدفعه من مكان إلى مكان ، ثم تؤلف بينه و تجمععه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض ، فإذا ثقل خرج منه الماء و الوبل الهائل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيه قطع البرد الثلجية الصغيرة و مشهد السحب كالجبال لا يبدو وكما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذي يحكم الكون وفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء و يصرفه عن يشاء ، و تكملة المشهد الضخم ³ ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ _ أي الضوء الشديد الذي يحدثه السحاب

1 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 245

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 259

3 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2533

يكاد أن يخطف الأبصار ، و في البرق تتولد النار من الماء لذلك حينما يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾¹ ، التكوير(6) فصدق هذه الآية الغيبية لأنك شاهدت نموذج لها في مسألة البرق ، ﴿يُزْجِي﴾ يسوق ، و منه البضاعة المزجاة التي يزجها كل أحد لا يرضاها ، و السحاب يكون و أحدا كالعماء و جمعا كالرباب و هو سحاب أبيض² ، وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتى يصير سحابا كثيفا ، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ..﴾ الخ ، دخلت ﴿بَيْنَ﴾ على ضمير السحاب ، لأن السحاب ذو أجزاء كقول : امرئ القيس³:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *** بسقط اللوى بين الدخول فحومل*

أي يؤلف بين السحابات منه .

و ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ على زيادة الباء كقوله : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة (195) و هذا من تعديد الدلائل على ربوبيته ، و ظهور أمره ، حيث ذكر تسبيح من في السماوات و الأرض و كل ما يطير بين السماء و الأرض ، و دعاؤهم له ، و ابتهاهم إليه ، و أنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه ، و ما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه ، و أنه يقسم رحمته بين خلقه ، و يفيضها و يبسطها على ما تقتضيه حكمته ، و يريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ، ليعتبروا و يحذروا و يعاقب بين الليل و النهار ، و يخالف بينهما بالطول و القصر ، و ما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده و ثباته⁴.

ثم مشهد كوني آخر: مشهد الليل و النهار: قال تعالى : ﴿يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ، و التأمل في تقلب الليل و النهار بهذا النظام الذي لا يختل ، و لا يفتر، يوقظ في القلب الحساسية ، و تدبر الناموس الذي

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص10297

2 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص245

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9، ص260* هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي شاعر جاهلي توفي سنة 565م. ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة، ط2، 1986، ص58.

4 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص246

يصرف هذا الكون ، و التأمل في صنع الله¹ و العبرة هنا ، لمن ؟ ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ، و المراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التي تدرك فقط ، إذن : المراد الأبصار التي تنقل المبصر إلى العقل ليحلله و يستنبط ما فيه من أسباب لعله يستفيد منها بشيء ينفعه².

و التقلب تغير هيئة إلى ضدها ، و منه ﴿فَأَصْبَحَ يُغْلِبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا...﴾ الكهف (42) أي يدير كفيه من ظاهر إلى باطن ، فتقلب الليل و النهار ، تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء ، و من حالة النهار إلى حالة الظلمة ،³ و يمضي السياق في عرض مشاهد الكون و استثارة تطلعا إليها ، فيعرض نشأة الحياة ، من أصل واحد ، وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة،⁴ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و المشي: هو انتقال الموصوف بالمشي ، من حيز مكاني إلى حيز مكاني آخر ، و الناس تفهم أن المشي ما كان بالقدمين ، لكن يوضح لنا سبحانه أن المشي أنواع : فمن الدواب ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ لذلك قال بعدها ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ لأن الآية لم تستقص كل ألوان المشي إنما تعطينا نماذج و تحت ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ، تتدرج مثلاً (أم أربعة و أربعين) و غيرها من الدواب....⁵

و قرئ : (خالق كل دابة) ، و لما كان اسم الدابة موقعا على المميز و غير المميز ، غلب المميز ، فأعطى ما وراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم مميزون ، فمن ثمة قيل فمنهم و قيل : من يمشي في الماشي على بطنه ، و الماشي على أربع قوائم، فان قلت لم نكر الماء في قوله : ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾؟ قلت : لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء ، مختص بتلك الدابة أو خلقها من ماء مخصوص وهو

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2523

2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10298

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 264

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2523

5 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10300

النفطة ، ثم خالف بين المخلوقات من النفطة ، فمنها هوام ، و منها بهائم ، و منها ناس.¹ لما كان الاعتبار بتساوي أجناس الحيوان في اصل التكوين من ماء التناسل مع اختلاف في أول أحوال ، تلك الأجناس في آثار الخلقة و هو حال المشي ، إنما هو باستمرار ذلك النظام بدون تخلف ، و كان ذلك محققا ، كان إفراغ هذا المعنى بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، مفيدا لأمرين : التحقق بالتقديم على الخبر الفعلي ، و التجدد بكون الخبر فعليا ، و إظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتتوية بهذا الخلق العجيب ، و اختيار فعل المضى للدلالة على تقرير التقوى ، بأن هذا شأن متقرر منذ القدم ، مع عدم فوات الدلالة على التكرير، حيث عقب الكلام بقوله : ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ، و تتكير ﴿مَاءٍ﴾ لإرادة النوعية على اختلاف صفات الماء ، لكل نوع من الدواب و ﴿مِنْ﴾ ، ابتدائية متعلقة بـ ﴿خَلَقَ﴾ ، و جملة ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ زيادة في العبرة ، أي يتجدد خلق الله ما يشاء أن يخلقه مما علمتم ، و ما لم تعلموا ، فهي جملة مستأنفة، و جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل و تذييل و وقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كلاما مستقلا بدانته ، لأن شأن ، التذييل أن يكون كالمثل ،² و قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، يعني من ملك هذا الملك وحده ، و خلق لكم هذه العجائب ، أنزل لكم آيات بينات ، تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل و وفر لكم ما يخدمكم في الكون ، سمائه و أرضه ، فأدوا انتم ما عليكم نحو منهجه و أحكامه ، و اتبعوا هذه الآيات البينات ، و معنى ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي لاستقامة حركة الحياة لأن حركة الحياة تحتاج لأن يتحرك الجميع ، و يؤدي كل مهمته حتى تتساند الحركات ، و لا تتعاند ، فالذي يتعب الدنيا أن تبني و غيرك يهدم ،³ فأيات الله مبينة كاشفة تجلو نور الله و تكشف عن ينابيع هداه ، و تحدد الخير و الشر ، و الطيب و الخبيث ، و تبين منهج الإسلام في الحياة كاملا دقيقا ، لا لبس فيه ، و لا غموض ، و تحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة و لا

1 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص242

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9، ص265

3 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص10301

إبهام ، فإذا تحاكم الناس إليها ، فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة ، لا يخشى منها صاحب حق على حقه ، و لا يلتبس فيها حق بباطل ، و لا حلال بحرام ، ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .. و المشيئة مطلقة لا يقيد بها قيد غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقاً من وجه نفسه إليه و جد فيه هدى الله و نوره فاتصل به و سار على الدرب حتى يصل - بمشيئة الله - و من حاد عنه و أعرض فقد النور الهادي ولج في طريق الضلال حسب مشيئة الله في الهدى و الضلال¹.

هنا في الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ... ﴾ تدليل للدلائل و العبر السالفة و هو نتيجة الاستدلال و لذلك ختم بقوله ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلال فذلك لأن الله لم يهدهم لأنه يهدي من يشاء، و المراد بالآيات هنا آيات القرآن كما يقتضيه فعل ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ و لذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابق ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾، و قرأ نافع و ابن كثير و أبو عمر و أبو جعفر و يعقوب ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بفتح الياء على صيغة اسم المفعول أي بينها الله و وضحها ببلاغتها و قوة حجتها ، و قرأ الباقر بكسر الياء على صيغة اسم الفاعل فإسناد التبيين إلى الآيات على هذه القراءة مجاز عقلي لأنها سبب البيان ، و المعنى أن دلائل الحق ظاهرة و لكن الله يقدر الهداية إلى الحق لمن يشاء هدايته².

- العنصر الرابع: الأدب مع الله ، (من الآية : 47 ، إلى الآية : 57)

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ... وَمَاوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

بعد تلك الجولة في مجالي النور في مشاهد الكون الكبير .. يعود سياق السورة إلى موضوعها الأصيل ، موضوع الآداب التي يربي عليها القرآن الجماعة المسلمة لتتطهر قلوبها و تشرق و تتصل بنور الله في السماوات و الأرض ، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا... بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، إن هؤلاء كانوا يقولون ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ يقولونها بأفواههم ولكن مدلولها

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2525

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 267

لا يتحقق في سلوكهم.¹، يقولون كلاماً جميلاً لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملي والإيمان يقتضي أن تجيء الأعمال على وفق منطوق الإيمان.²

﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائِلين آمنا واطعنا أوالى الفريق المتولي إنما كان ادعاء باللسان من غير مواطأة القلب لأنه لو كان صادراً عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولي والإعراض.³، ففي قوله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، الحجرات (14) والإشارة في قوله ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ﴾ إلى ضمير ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم ولا يصح جعله إشارة إلى ﴿فَرِيقٍ﴾ من قوله : ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لأن إعراضهم كاف في الدلالة على عدم الإيمان.⁴، والتعريف في قوله : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت وهم الثابتون والمستقيمون على الإيمان ، الموصوفون في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...﴾⁵، الحجرات (15) لقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان ويخافون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ على الشريعة الإلهية التي جاء بها، ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ .

وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطبق العدل ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ و يأبون أن يجيئوا إليه .⁶، وقوله : ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ..﴾ أي الرسول ﷺ .⁷، ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4، ص 2525

2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16، ص 10306

3 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3، ص 247

4 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9، ص 268

5 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3، ص 247

6 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4، ص 2526

7 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9، ص 270

مرض قلوبهم وتتعجب من ربيتهم وتستنكر تصرفهم الغريب ، ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۖ ﴾ .

- والسؤال الأول : للإثبات فمرض القلب جدير بأن ينشيء مثل هذا الأثر ، و ما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة إنما هو المرض الذي تحتل به فطرته عن استقامتها فلا تتذوق حقيقة الإيمان و لا تسير على نهجه القويم .

- السؤال الثاني : للتعجب فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين !

- السؤال الثالث : للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ وانه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان فالله خالق الجميع، فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه وهو العادل؟!¹، والحق تبارك وتعالى، حينما يعاقب الظالم فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى في ظلمه ويجر على نفسه جزاء شر بعد أن كان يمينه بجزاء خير². واتبع بعض الاستفهامات بعضها بحرف أم المنقطعة التي هي هنا للإضراب الانتقالي كشأنها إذا عطفت الجمل الاستفهامية فإنها إذا عطفت الجمل لم تكن لطلب التعيين كما هي في عطف المفردات لان المتعاطفات بها حينئذ ليست مما يطلبه تعيين بعضه دون بعض وأما معنى الاستفهام فملازم لها لأنه يقدر بعد ﴿ أَمْ ﴾³. في هذه الآية والتي قبلها حديث عن المنافقين وصفاتهم . هؤلاء المنافقون الذين ينتسبون إلى الإيمان قولاً . ويرفضون تنفيذ مقتضاه عملاً . وبذلك يسيئون إلى المؤمنين الصادقين بعد إساءتهم إلى أنفسهم⁴. وجاء في المصحف الميسر : ﴿ بَلْ ﴾ حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده . أي أن الحال لهم على الإعراض عن حكمه - ﷺ - ليس شيئاً مما تقدم .

1 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2526

2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 16 ، ص 10307

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 271

4 - ينظر حسن أيوب : مع الله في صفاته و أسمائه الحسنى ، دار الشهاب باتنة الجزائر د.ت ، د.ط ، ص 25

بل هو شدة ظلمهم لأنفسهم وللحق بإصرارهم عن العناد و المكابرة.¹ و يرى القاسمي رحمه الله ، أن ﴿ بَلْ ﴾ تقيد الإضراب الانتقالي ، لا لنفي ما قبلها وإثبات ما بعدها حيث يقول :

(الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة و﴿ أَمْ ﴾ من الأمور الثلاثة. بل هو منشئيتها له، كأنه قيل : أذلك أي إعراضهم المذكور ، لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم أم لأنهم ارتابوا في أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيقتها؟ أم لأنهم يخافون الحيف ممن يستحيل عليه ذلك؟ إشارة إلى استجماعهم تلك الأوصاف الذميمة التي كل واحد منها كفر و نفاق ، ثم بين اتصافهم مع ذلك بالوصف الأسوأ وهو الظلم لأنفسهم و لغيرهم ، فالإضراب انتقالي و المعنى : دع هذا كله . فإنهم هم الكاملون في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف)²، و يؤيد هذا الرأي ابن عاشور رحمه الله حيث يقول : ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر .. و ليست ﴿ بَلْ ﴾ هنا للإبطال لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة.³ و معنى هذا أن الانتقال في الآية تدرج في عد أخلاقهم⁴ فهم من النفاق إلى الشك في صدق النبوة إلى الخوف من الظلم من الحكم إلى الظلم لأنفسهم و لغيرهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الآية 51 سورة النور.

و في الانقياد المطلق لأوامر الله دون تردد ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، أي سمعنا قولك و أطعنا أمرك.⁵ و هذا هو أدبهم مع الله دائماً لا غير كما هو مقتضى لفظ : ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي تقيد التوكيد و الحصر، فهم إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله ليحكم بينهم

1 - ينظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، دار الشروق ، بيروت ، ط 5 ، 1391 هـ ، ص 466

2 - محمد جمال الدين القاسمي : تفسير القاسمي ، م 7 ، ج 11 ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، 1978 م ، ص 226

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 272

4 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه ، ج 9 ، ص 271

5 - ينظر الشيخ طنطاوي جوهرى : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، ج 12 ، دار الفكر للطباعة و النشر و

التوزيع بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1350 هـ 1930 م ، ص 98

و بين خصومهم أن يقولوا سمعنا ما قيل و أطعنا من دعانا إلى ذلك.¹ و هذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾²، و يستفاد من هذا أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله و رسوله لا أحد غير الله و رسوله فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله و من دعا عند النزاع إلى حكم غير الله و رسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله³، وقال السيوطي في الإكليل فيها وجوب الحضور على من دعي لحكم الشرع و تحريم الامتناع واستحباب أن يقال سمعنا و أطعنا⁴، و قال سيد قطب فهو السمع و الطاعة بلا تردد و لا جدال و لا انحراف، السمع و الطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله و رسوله هو الحكم وما عداه الهوى⁵، فإذا أراد المسلمون اليوم أن يحقق لهم مرادهم فليقولوا سمعنا واطعنا بالقول و الفعل و لا يكونوا كالذين نافقوا، فأخزاهم الله . قوله الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾⁶، في الآية التي وردت قبل هذه الآية . كان الحديث عن صفات المؤمنين الصادقين ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾⁷، وفي هذه الآية حديث مقارب لذلك ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾، ففي الكلام إطناب وذلك (ليحصل تعميم الحكم).⁸ و قد جيء في الآية بصيغة الحصر للتعريض بالذين

1 - ينظر أبو جعفر محمد بن جرير : مختصر تفسير الطبري ، اختصار و تحقيق ، محمد علي الصابوني و صالح

احمد رضا ، م8 ، مكتبة رحاب الجزائر ، ط2 ، 1987 ، ص 120

2 - النساء الآية 59

3 - ينظر محمد جمال الدين القاسمي : تفسير القاسمي ، م7 ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، 1978 م ، ص 226

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2527

5 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر نفسه ، م4 ، ص 2527

6 - النور الآية 52

7 - النور الآية 49

8 - الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 275

أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله وهي على أوزان صيغة القصر التي تقدمتها ¹، إن الإيمان الذي يصدقه عمل ، هو الإيمان الذي يأخذ بأصحابه إلى الفوز ، و طاعة المؤمن لربه شيء يعبر عن مدى إشراق القلب بنور الله واتصاله به ، وشعوره بهيبته ، كما ينبىء بعزة قلب المؤمن واستعلائه بكل طاعة لا ترتكن إلى طاعة الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هي ذلة يأبأها الكريم وينفر منها طبع المؤمن ²، وإذا كان المنافقون الذين يقولون سمعنا و أطعنا بأفواههم ويعرضون بأفعالهم عن حكم الله و حكم رسوله، لا قيمة و لا وزن لما قالوا، و أولئك هم الخاسرون ، فإن المؤمنين الذين قالوا ، سمعنا واطعنا بأفواههم ، ثم اتقوا الله فأتبعوه بأفعالهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ واستعمل اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبهم و بعد منزلتهم في الفصل ³، إن الإيمان ليس مجرد ادعاء بالقول ، بل الإيمان تصديق و تطبيق استسلام لأمر الله واحتكام لشرعه ، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِئْ أَمْرَتَهُمْ لَيَخْرُجَنَّ قُلُ لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ النور (53) ، القسم : هو اليمين و الحلف و الإنسان يقسم ليؤكد المقسم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسم عليه حق و هؤلاء لم يقسموا بالله سرا في أنفسهم إنما ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ ، يعني بالغوا و أتوا بمنتهى الجهد في القسم فلم يقل أحدهم : و حياة أُمي أو أبي إنما أقسموا بالله، و ليس هناك قسم أبلغ من هذا القسم لذلك يقول النبي ﷺ : (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت).⁴، جهد يمينه: مستعار من جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها و ذلك إذا بالغ في اليمين و بلغ غاية شدتها و وكادتها ⁵، جهد : الجهد المبالغة و الغاية ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي بالغوا في اليمين و اجتهدوا فيها⁶، و في

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه ، ج 9 ، ص 276

2 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2527

3 - ينظر أبو الفضل محمود الألوسي: تفسير روح المعاني، 6م، دار الفكر، بيروت، لبنان د.ت، د.ط، ص 198

4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 10310. * رواه البخاري في صحيحه كتاب الشهادات، رقم الحديث 3104.

5 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 250

6 - ينظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة(جهد)، المصدر السابق، ج 1، ص 521.

(صفوة التفاسير) : ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نهاية الأيمان المغلظة¹ و في التفسير الميسر: بالغين غاية جهدهم في تأكيد أيمانهم²، ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾: طاعة معلومة لا يشك فيها و لا يرتاب أو طاعة معروفة أمثل و أولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة³ و في المصحف الميسر: المراد طاعتكم طاعة معروفة أي أنها قولية لا فعلية⁴ و في تفسير سورة النور: 5 ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾: - هناك معنيان الأول طاعتكم طاعة معروفة أي إن الله يعلم حقيقة طاعتكم إنما هي قول لا معنى له ، و الثاني إن الطاعة المعروفة المطلوبة من أهل الإيمان إنما هي طاعة معروفة و هي الطاعة التي تكون فوق كل شبهة و لا تكون معها حاجة إلى حلف و لا قسم⁵، وقال الطبري رحمه الله: " لا تحلفوا فان هذه طاعة معروف منكم فيها التكذيب"⁶، فالمنافقون بلغوا الغاية في قسمهم بالله تعالى زاعمين بأنهم من الطائعين لله ، وليردوا تهمة إعراضهم عن حكم الله وحكم رسوله و لكن قسمهم كقسم إبليس لآدم وحواء عليهما السلام ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾⁷، أما كون الآية تحوي صورة بيانية (الاستعارة المكنية) فان : جهد : منصوبا على المفعول المطلق الواقع بدلا من فعل ، و التقدير : جهدوا أيمانهم جهدا . و الفعل المقدر في موضع الحال من ضمير ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ و التقدير : اقساموا يجهدون إيمانهم جهدا ، و إضافة "جهد" إلى إيمانهم على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله جعلت الأيمان كالشخص الذي له جهد . ففيه استعارة مكنية ، و رمز إلى المشبه به بما هو من روافده و هو أن أحدا يجهد ، أي يستخرج منه طاقته فان كل إعادة لليمين هي كتكليف لليمين بعمل متكرر كالجهد له فهذا أيضا استعارة⁸، و في صفوة التفاسير

1 - ينظر محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، ج2 ، شركة الشهاب الجزائر ، ط5 ، 1990 م ، ص 347

2 - ينظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، المرجع السابق ، ص 466

3 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 250

4 - ينظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، المرجع السابق ، ص 466

5 - ينظر أبو الأعلي المودودي : تفسير سورة النور ، دار الشهاب باتنة الجزائر ، د.ت ، د.ط ، ص 212.

6 - ينظر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري ، المصدر السابق ، م2 ، ص 102.

7 - الأعراف - الآية: 21.

8 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 277.

﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ ، شبه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة و التوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه ، و يبذل أقصى و سعه و طاقته بطريقة الاستعارة.¹ هكذا المنافقون يجهدون أنفسهم و يبذلون أقصى ما يملكون من طاقة 'حالفين بالله أنهم من الطائعين لأمر الرسول ﷺ و ما هم كذلك إنهم لكاذبون . فالصادق في إيمانه ، لا يحتاج في طاعته لربه و إتباع أمر نبيه إلى قسم ، بله تأكيد القسم ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إن في قسمهم هذا و تأكيده ، دليل على نفاقهم المخبوء في قلوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾² ، إن القرآن ليس كتاب أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ،

و الأصل فيه أنه معجز ، و مع ذلك أدخلت فيه بعض الأصول والأحكام ، و ترك البعض الآخر لبيان الرسول و توضيحه في الحديث الشريف و جعل له ﷺ حقا في التشريع بنص القرآن الكريم: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا... ﴾³ ، و القرآن حين يورد الأحكام يوردها أجمالا ثم يفصلها رسول الله ، فالصلاة مثلا أمر بها الحق تبارك و تعالى و فرضها لكن تفصيلها جاء في السنة النبوية المطهرة⁴ ، و يختلف في الآية الكريمة معنى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، بين معنى الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم ، و أعيد الأمر بالقول للاهتمام بهذا القول فيقع كلاما مستقلا غير معطوف.⁵ و نلاحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا، وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة ، كما في الآية السابقة ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾ ، و في : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾ الأنفال (20) . و في ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ

1 - ينظر محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، المرجع السابق ، ج2 ، ص352.

2 - النور : الآية 54.

3 - الحشر : الآية 07.

4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص10313.

5 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص208.

أَطَاعَ اللَّهَ ﴿ النساء (80) ، أي أن طاعتها واحدة ¹ ، و قوله ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ يجوز أن يكون تفريعا على فعل ﴿ أَطِيعُوا ﴾ فيكون فعل ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ من جملة ما أمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم و يكون فعلا مضارعا بتاء الخطاب ، و أصله تتولوا بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف ² ، فالأمر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسوله كالصلاة مثلا ... ففي مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله و الرسول ، لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحدة ³ ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ⁴ ، في هذه الآية الكريمة بيان لشروط النصر والتمكين في الأرض ، و بيان لحال المؤمنين بعد التمكن . كما ذكرت أن الله يعد ، و أن وعده حق ، لقد وعد الله جيل الصحابة و تحقق و عده حيث أظهر الله نبيه على جزيرة العرب ثم أن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر و عثمان حتى و قعوا فيما و قعوا فيه ⁵ ، شرطان أساسيان لتحقيق النصر و بلوغ المجد ، و التمتع بالأمن و الطمأنينة بالإيمان و العمل الصالح ﴿ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ ، و قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ فيه (تفسير للوعد ومبين له) ⁶ ففي الآية و عد و بيان للموعد ، جاء في الكشف (و عدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر و يورثهم الأرض و يجعل فيها خلفاء ، و أن يمكن الدين المرتضى و هو دين الإسلام) ⁷ .

1 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10312 .

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 281 .

3 - ينظر تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10313 .

4 - النور الآية 55

5 - ينظر اسماعيل بن كثير : تفسير ابن كثير ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 120

6 - الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 173 .

7 - الزمخشري : الكشف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 273

إذا جاءت الأرض هكذا مفردة غير مضافة لشيء فتعني كل الأرض،¹ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لَبِئْسَ إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ الإسراء (10).² والآية تشمل جميع الناس . في كل زمن فوعد الله عام شامل محيط فمن امن وعمل صالحا استخلف و مكن له في الأرض ، و قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إياه و في هذه الحال إيدان بان ذلك الوعد جزاء لهم ، أي و عدتهم بهذا الوعد الشامل لهم و الباقي في خلفهم لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الشرك ، و عبر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضاً بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.³ ، و إذا كانت الآية فيها تعريض بالمنافقين الذين لا يثبتون على إيمان وصلاح ، فإنها تشمل جميع المسلمين إن هم انتصروا ثم انقلبوا ، فان الله خاذلهم ، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ النور (56) ، في الآية الكريمة بيان للاتصال بالله ، و تقويم القلب بإقامة الصلاة و الاستعلاء على الشح و تطهير النفس و الجماعة بإيتاء الزكاة و طاعة الرسول والرضى بحكمه ، و تنفيذ شريعة الله في الصغيرة و الكبيرة ، و تحقيق النهج الذي أراده للحياة،⁴ و إن كانت أركان الإسلام خمسة ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، و لأهمية الصلاة و مكانتها في الإسلام ، اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففي الصلاة تتكرر الشهادة لا اله إلا الله محمد رسول الله ، و في الصلاة و الزكاة فرع العمل ، و العمل فرع الوقت ، و الصلاة تأخذ الوقت نفسه⁵ ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوف على ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ، و ليس ببعيد إن يقع بين العطف و المعطوف عليه فاصل ، وإن طال : لأن حق المعطوف أن

1 - ينظر الشعراوي : الشعراوي ، ج17، المصدر السابق، ج17، ص10323

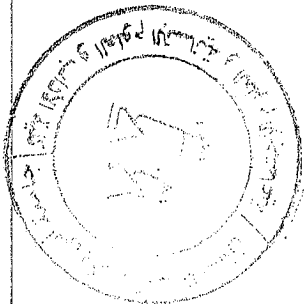
2 - الإسراء الآية 104

3 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 288

4 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2530

5 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10325

يكون غير المعطوف عليه و كررت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها ، ¹ و هنا في الصلاة و الزكاة خص الرسول بالإطاعة ، لأنه صاحب البيان و التفصيل لما أجمله الحق سبحانه في فرضية الصلاة و الزكاة ، حيث تفصيل كل منهما في السنة المطهرة.² ثم يقول الحق سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ، في الآية الكريمة يبين الله أنه إذا استقمتم على النهج ، فلا عليكم من قوة الكافرين فماهم بمعجزين في الأرض وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق ، و أنتم أقوياء بإيمانكم أقوياء بنظامكم ، أقوياء بعدتكم التي تستطيعون و قد لا تكونوا في مثل عدتهم من الناحية المادية ، و لكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق و الأعاجيب ،³ يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني : لا تظنن ، و الشيء المعجز هو الذي يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً معجزاً لفلان يعني: لا يستطيع الإتيان بمثله ،⁴ و في الكشف يعني لا يحسبن الذين كفروا أحد يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك.⁵ و في التحرير و التنوير : استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه قوله : ﴿وَلَيَبْذُلْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فقد كان المشركون يومئذ لم يزالوا في قوة وكثرة ، و كان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم ، فربما كان الوعد بالأمن من بأسهم متلقى بالتعجب و الاستبطاء الشبيه بالتردد فجاء قوله : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ، تطيناً و تسلياً،⁶ فإياك أن تظن أن الكافرين مهما علت مرتبتهم ومهما استشرى طغيانهم يفلتون من عقاب الله فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، و لن يعجزوه... إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات و لا بد أن يبحث



- 1 - ينظر الزمخشري : الكشف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 252
- 2 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10327
- 3 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2530
- 4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 10327
- 5 - ينظر الكشف : الكشف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 252
- 6 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير المصدر السابق ، ج9 ، ص 290

عن مصداقها في تاريخ البشرية و هو يدرك شروطها على حقيقتها قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات، انه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله و حكمت هذا النهج في الحياة و ارتضته في كل أمورها ... إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف و التمكين و الأمن، و ما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة ، و ذلت و طرد دينها من الهيمنة على البشرية و استبد بها الخوف و تخطفها الأعداء ، إنا لنجد نور الله هناك ، فالله نور السموات و الأرض نجده في الأفاق و في أنفسنا و في ذات اللحظة التي نشهد فيها هذا الوجود بالحس البصير و القلب المتفتح ، و إن هذا الوجود لجميل و باهر و إن فطرتنا لمتوافقة مع فطرته ، مستمدة من النبع الذي يستمد منه ، فالاتصال بضمير هذا الوجود يهبنا أنسا وطمأنينة و صلة و معرفة ، و فرحة كفرحة اللقاء بالقرب الغائب و ما علينا إلا التأمل الواصل إلى حقيقة التدبير، و لهذا يوقظنا القرآن المرة بعد المرة ، و يوجه حسنا و روحنا إلى شتى مشاهد الوجود الباهرة ، كي لا نمر عليها غافلين مغمضي الأعين ، فنخرج من رحلة الحياة على ظهر هذه الأرض بغير رصيد أو برصيد قليل هزيل، قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد (24) ، فالكون سر الله مفتاحه القرآن الكريم الجامع المانع .

- المحاور الخامسة

- أدب الاستئذان ومخالطة الأهل (من: الآية 58 إلى: الآية 61)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

إن الإسلام منهاج متكامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعاً ويتجه بها إلى الله في النهاية.

و في هذه السورة نموذج من ذلك التنسيق ، لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت ، و إلى جانبها جولة عظيمة في مجالي الوجود ، ثم عاد

السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله ، وسوء أدب المنافقين ، إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين ، بالاستخلاف و الأمن و التمكين ، و ها هو ذا في هذا المحور يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت ، إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله ﷺ و ينظم علاقة الزيارة و الطعام بين الأقارب و الأصدقاء ، إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول و دعائه ، فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنظم بها علاقاتها ، و القرآن يربيهها في مجالات الحياة الكبيرة و الصغيرة على السواء .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ.... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

تعلمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة ، المكونة من الأبوين و الأبناء ثم الأتباع ، مثل الخدم و غيرهم ، و الحق تبارك و تعالى يريد أن ينشئ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، و يخص بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعني يا من آمنتم بي رباً حكيماً مشرعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الآداب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ... ﴾ .

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتي على صورتين : فعل الأمر و فعل المضارع المقترن بلام الأمر فقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ... ﴾ يعني علموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم مثل : ﴿ وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا... ﴾ يعني : استغفوا لأن اللام هنا لام الأمر ¹ .

و قد ذكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة، و من هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت ، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ ، و هو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص عموم و قوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ الآيات لأن ذلك عام في الأعيان والأوقات فكان قوله: ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ تشريعاً لاستئذانهم في هذه الأوقات و هو يقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة فصار المفهوم مخصصاً لعموم النهي في قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ ، و أيضاً هذا الأمر مخصص بعموم ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ، و عموم ﴿ الطُّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ... ﴾ الخ المتقدم أنفاً¹. قوله تعالى: ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ مرة في الأصل مصدر و قد استعملت ظرفاً فعلى هذا ينتصب ﴿ ثَلَاثَ ﴾ على الظرف ، و العامل ليستأذن ، و على هذا في موضع ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ ثلاثة أوجه : أحدهما : نصب بدلاً من ثلاث و الثاني : جر بدلاً من مرات و الثالث : يرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي من قبل و تمام الثالث معطوف على هذا².

فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان، إلا في ثلاث أوقات تتكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها ، هذه الأوقات هي : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها و يلبسون ثياب الخروج ، ووقت الظهيرة عند القيلولة حيث يخلعون ملابسهم في العادة و يرتدون ثياب النوم للراحة ، وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك و يرتدون ثياب الليل³ .

وسمي كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تسترهم و تحفظهم فيها⁴.

و العورة في الأصل : الخلل و النقص و فيه قيل لمن فقدت عينه اعور وعورت عينه ، و منه عورة الحي و هي الجهة غير الحصينة ، منه بحيث يمكن الدخول منها كالشجر¹ .

1 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 291

2 - ينظر أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر ،

بيروت ، د. ط ، 2001 م ، ص 255

3 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2532

4 - ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 253 .

و سماها ﴿ عَوْرَاتٍ ﴾ لانكشاف العورات فيها ، و في هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم و أن يستأذن الصغر المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهلهم و هو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية و العصبية و الخلقية.

ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة ، و أن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر².

ثم يقول سبحانه و تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ... ﴾ ، يعني : بعد هذه الأوقات لا إثم و لا حرج عليكم ، و لا علي المماليك أو الصغار أن يدخلوا عليكم ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مستعداً لممارسة حياته العادية ، و لا مانع لديه من استقبال الخدم أو الأطفال الصغار دون استئذان لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء و خروجهم باستمرار³. و هنا في القول تصريح بمفهوم الظروف ، في قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ ، و ما عطف عليه أي بعد تلك الأوقات المحددة ، و ما بعد صلاة العشاء من الحصاة التي تسع في العرف تصرف الناس في التهيؤ إلى النوم .

و لك أن تجعل ﴿ بَعْدَ ﴾ بمعنى (دون) أي في غير تلك الأوقات الثلاثة كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ ، الجاثية (23) و ضمير ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ عائد إلى ثلاث عورات أي بعد تلك الأوقات⁴.

ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات و بين وجه العذر في قوله : ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، يعني أن بكم و بهم حاجة إلى المخالطة و المداخلة : يطوفون عليكم للخدمة و تطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدى إلى الحرج⁵

1 - ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9، ص 294 .

2 - ينظر سيد قطب: في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص2532

3- ينظر الشعراوي: تفسير الشعراوي، المصدر السابق، ج17، ص 10332

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9، ص 294

5- ينظر الرمخشري : الكشف ، المصدر السابق، ج3 ، ص 253

و هنا خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم طوافون يعود على ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ .

و الكلام استئناف بياني ، أي أنما رفع الجناح عليهم و عليكم في الدخول بدون استئذان بعد ، تلك الأوقات الثلاثة ، لأنهن طوافون عليكم فلو وجب أن يستأذنون كان ذلك حرجاً عليهم و عليكم .

و في كلام اكتفاء تقديره و انتم طوافون عليهم دل عليه قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ ، و قوله عقبه ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾¹، أي بعضكم يطوف على بعض فيجوز أن تكون الجملة بدلا من التي قبلها ، و أن تكون مبينة مؤكدة². فما محل ليس عليكم ؟ ، إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف ، و المعنى : هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان و إذا نصبت : لم يكن له محل و كان كلاماً مقراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة : فان قلت بم ارتفع ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ، ؟ قلت بالابتداء و خبره ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ ، على معنى طائف على بعض و حذف لأن طوافون يدل عليه و يجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة³ .

و يعقب على الآية بقوله : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ ، أي بياناً واضحاً حتى لا يحدث تناقضا فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ، بكل ما يصلح الخلافة في الأرض ﴿حَكِيمٌ﴾ ، في تشريعاته و أوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمه⁴ .

و التعريف في ﴿الْآيَاتِ﴾ تعريف الجنس و المراد بالآيات القرآن فان ما يقع فيه إجمال منها يبين بآيات أخرى فالآيات التي أولها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ، جاءت بياناً لآيات ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمَّا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ، و جملة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ معترضة و المعنى يبين الله لكم الآيات

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص235

2- ينظر العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، المصدر السابق، ص 255

3- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3، ص253

4- ينظر الشعراوي : الكشاف ، المصدر السابق، ج17 ، ص 10333

بياناً كاملاً ، وهو عليم حكيم ، فبيان به بالغ غاية الكمال لا محالة¹، ثم يقول سبحانه و تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فالطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحلم كان يدخل دون استئذان في غير هذه الأوقات فان بلغ الحلم فعليه أن يستأذن ، لا نقول : أنه تعود الاستئذان في هذه الأوقات فقط ، لا ، إنما عليه أن يستأذن في جميع الأوقات فقد شب و كبر ، و انتهت بالنسبة له هذه الحالة ، و بلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نضجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله فهذه علامة اكتمال تكوينه ، و هذا لا يتأتى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التي هي سبب النسل و الإنجاب ، و مثلنا ذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نضجها فان تركتها بعد النضج سقطت من نفسها ، و هذه آية من آيات الله لبقاء النوع فلو أكلنا الثمرة قبل نضجها لا تثبت بذرتها وينقرض نوعها فمن حكمة الله في الخلق ألا تحلو الثمرة إلا بعد النضج .

و جاء بالطفل بصيغة المفرد ، لان الأطفال في هذا السن لم تتكون لديهم الغريزة ، و ليست لديهم هذه الميول أو المأرب ، فكأنهم واحد ، أما بعد البلوغ و تكون الميول الغريزية قال : ﴿ الْأَطْفَالُ ﴾ لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله و شخصيته و شطحاته²، و ﴿ الْأَطْفَالُ مِنْكُم ﴾ أي من الأحرار دون المماليك ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد : الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال ، أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ ، الآية : و المعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن ، إلا في العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السن التي يحكم فيها بالبلوغ ، و جب أن يפטّموا عن تلك العادة و يحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول إلا بإذن³ . فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب الذين

1- ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج 9 ، ص 295

2- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج 17، ص 10333

3- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج 3، ص 254

يجب أن يستأذنوا في كل وقت ، حسب النص العام الذي مضت به آية الاستئذان¹.
و وقع قوله ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ﴾ ، في موقع التصريح بمفهوم الصفة في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ ، ليعلم أن الأطفال إذا بلغوا الحلم تغير حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، الآيات ، فالمراد بقوله : ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، فيما ذكر من الآية السابقة أو الذين كانوا يستأذنون من قبلهم وهم كانوا رجالاً قبل أن يبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال .

و قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، القول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفاً وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام و الامتنان ، و إنما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة تفننا و لتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ ، و تأكيد الوصفين ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي هي آيات من لدن من هذه صفاته و من تلك صفات بيانه².

لقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء ، منعاً لإثارة الفتن و الشهوات ، فعاد هنا يستثني من النساء القواعد اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال، و فرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات قال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية ، على ألا تتكشف عوراتهن ولا يكشفن عن زينة و خير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة ، و سمي هذا استعفاً أي طلباً للعفة و إثارة لها لما بين التبرج و الفتنة من صلة و بين التحجب و العفة من صلة و ذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير سبيل للعفة تقليل فرص الغواية ، و الحيلولة بين المثيرات و بين النفوس³ ، و القواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أما القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذي قعد عن دورة الحياة ، و لم

1- ينظر السيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م 4، ص 2532

2- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج 9، ص 296

3- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م 4، ص 2532

يعد له مهمة الإنجاب ، و مثل هؤلاء لم يعد فيهن إربة ، ولا مطمع ، لذلك لا ما
نع أن يتخفف بعض الشيء من اللباس الذي فرض عليهن حال وجود الفتنة ، و لها
أن تضع طرحتها مثلاً ، لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك - نسبياً - يعني فمن
النساء من ينقطع حيضها ويدركها الكبر ، لكن مازال فيها جمال وفتنة ،
لذلك ربنا تبارك و تعالى، وضع لنا الحكم الاحتياطي ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ ۱ ﴾ وَالْقَوَاعِدُ ، واحدتهن قاعد ، و هذا إذا
كانت كبيرة ، أي قاعدة عن النكاح و من القعود قاعدة للفرق بين المذكر و المؤنث
وهو مبتدأ ، و القاعد التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها ﴿ لا يرجون نكاحاً ﴾ ،
لا يطمعن فيه ، و المراد بالثياب : الثياب الظاهرة كالمحففة و الجلباب الذي فوق
الخمار ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، غير مظهرات زينة ، ² فلا يجوز للمرأة أن
تضع ثيابها أخذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة و تتبرج ³ . فهذه الآية مخصصة
لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى
جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، و مناسبة هذا التخصيص
هنا ، أنه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال و النساء فيها
ثيابهم على أجسادهم ، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها ، وهو
وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن ، فاستثنى من عموم النساء المتقدّمات في
السن ، بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخصن لهن أن لا يضربن بخمورهن
على جيوبهن ، و أن لا بدنين عليهن من جلابيبهن ، و القواعد : جمع قاعد بدون
هاء تأنيث مثل حامل وحائض لأنه وصف نقل لمعنى خاص بالنساء وهو القعود
عن الولادة عن المحيض ⁴ ، ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ، حال و ﴿ اللَّاتِي ﴾ صفة ، و الخبر :
﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ ﴾ و دخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط لأن الألف

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 10335

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 255.

3- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج 17 ، ص 10335

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 297

و اللام بمعنى الذي ¹، وقوله: ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ، و صف كاشف لـ ﴿الْقَوَاعِدُ﴾ ، و ليس قيداً ، و اقتران الخبر بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَ جُنَاحٌ﴾ لان الكلام بمعنى التسبب والشرطية ، لأن هذا المبتدأ يشعر بترقب ما يرد بعده ، فشابه الشرط كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ ، ولا حاجة إلى ادعاء أن (الـ) فيه موصولة إذا لا يظهر معنى الموصول لحرف التعريف و إن كثر ذلك في كلام النحويين و ﴿أَنْ يَضَعْنَ﴾ متعلق بـ ﴿جُنَاحٌ﴾ بتقدير (في) ² و معنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ....﴾ ، أي يحتفظن بملابسهن لا يضعن منها أشياء فهذا أدعى للعفة ³. و الاستعفاف من الوضع خير لهن لما ذكر الجائر عقبه بالمستحب بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال و أحسنها. كقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ البقرة (237) ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ البقرة (280) فما حقيقة التبرج ؟ إذن هو ، تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم = سفينة بارج ، لا غطاء عليها و البرج سعة العين . يرى بياضها محيطا بسوادها كله ، لا يغيب منه شيء ، إلا أنه اختص بان تتكشف ، المرأة للرجل بإبداء زينتها و إظهار محاسنها ⁴ ، و الاستعفاف: التعفف ، فالسين و التاء فيه للمبالغة مثل استجاب ، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ، و لذلك قيد هذا الإذن بالحوال و هو ﴿غَيْرَ مُتَّبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ ، أي وضعا لا يقارنه تبرج بزينة و التبرج التكشف، و الباء في ﴿بِزِينَةٍ﴾ للملابسة فيؤول إلى أن لا يكون وضع الثياب إظهارا لزينة كانت مستورة ، فالتبرج بالزينة التحلي بما ليس من العادة التحلي به في الظاهر ، من تحمير و تبيض و كذلك الألوان النادرة قال بشار * :

و إذا خرجت تقنعي *** بالحرر إن الحسن أحمر

1- ينظر العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، المصدر السابق، ص256.

2- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 297

3- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17، ص 10336

4- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ، ص 255. * هو بشار بن برد العقيلي أبو معاذ فارسي

الأصل، توفي سنة 167هـ، ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة، مصدر سابق، ص 513.

و قيل : إن المعنى بقوله : ﴿ غَيْرَ مُتَّبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، غير متكشفات من منازلهن بالخروج في الطريق ، أي أن يضعن ثيابهن في بيوتهن ، فإذا خرجت فلا يحل لها ترك جلبابها ، فيؤول المعنى إلى أن يضعن ثيابهن في بيوتهن ، و يكون تأكيداً لما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ ، أي كونهن من القواعد ، لا يقتضي الترخيص لهن إلا في وضع ثيابهن وضعا مجردا عن قصد ترغيب فيهن¹ ، و جملة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع و يعلم ، و يطلع على ما يقوله اللسان ، و ما يوسوس في الجنان ، و الأمر هنا أمر نية و حساسة في الضمير² . و هذه الجملة مسوقة مساق التذييل ، للتحذير من التوسع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا ، فوصف (السمع) تذكيرا بأنه يسمع ما تحدثن به أنفسهن من المقاصد ، ووصف (العليم) تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب ، و تبرجهن و نحوها³ ، ثم يمضي عز و جل في تنظيم العلاقات و الارتباطات بين الأقارب و الأصدقاء ، ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ... ﴾ ، و الحرج : هو الضيق كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام (125) ، و الحرج بمعنى الإثم فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضيق ، أو الإثم الذي يتعلق بالحكم الآتي في مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ... ﴾ ، و الأعمى يتخرج أن يأكل مع الناس ، لأنه لا يرى طعامه ، و ربما امتدت يده إلى أطيب الطعام فيأكله و يترك أدناه ، و الأعرج يحتاج إلى راحة خاصة في جلسته و ربما ضايق بذلك الآخرين ، و المريض قد يتأفف منه الناس ، فرفع الله تعالى عن عباده هذا الحرج و قال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا... ﴾⁴ ، و لأن الآية آية تشريع فإننا نلاحظ فيها دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي و الصياغة

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9، ص 298

2- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، 4م، ص 2533

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9، ص 299

4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17، ص 10336

التي لا تدع مجالاً للشك و الغموض ، كما نلمح فيها ترتيب القربات فهي تبدأ ببيوت الأبناء و الأزواج ولا تذكرهم ، بل تقول الآية : ﴿ مِنْ بِيُوتِكُمْ ﴾ ، فيدخل فيها بيت الابن ، و بيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، و بيت الزوج بيت لزوجته، و تليها بيوت الآباء ، فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات ، إلى غير ذلك، و يضاف إلى هذه القرابة الخازن على مال الرجل ، فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف و لا يزيد على حاجة طعامه و يلحق بها بيوت الأصدقاء ، ليلحق صلتهم بصلة القرابة عند عدم التأذي و الضرر ، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقائهم من طعامهم بدون استئذان¹ ، كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء و ذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم ، و أولادهم ، و إلي بيوت قراباتهم، و أصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين و الطعمين رغبة في ذلك ، و خافوا أن يلحقهم فيه حرج ، و كرهوا أن يكون أكلاً بغير حق لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ ، فقيل لهم ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ ، ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ يعني : عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك² ، اختلف في أن قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ... ﴾ ، منفصل عن قوله : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، و أنه في غرض غير غرض الأكل في البيوت ، فيكون من تمام آية الاستئذان ، أو هو متصل بما بعده في غرض واحد ، فقال بالأول الحسن و جابر بن زيد وهو مختار الجبائي و ابن عطية و ابن العربي و أبي حيان ، و قال ابن عطية : أنه ظاهر الآية و هو الذي نختاره تفادياً من التكلف الذي ذكره مخالفوهم لبيان اتصاله بما بعده في بيان وجه الرخصة لهؤلاء الثلاثة الأصناف في الطعام في البيوت المذكورة و لان في قوله : ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بِيُوتِكُمْ ﴾ ، إلى آخر المعدادات لا يظهر اتصاله بالأعمى و الأعرج و المريض فتكون هذه الآية نفياً للحرص عن هؤلاء الثلاثة فيما تجره ضرارتهم إليهم من الحرج من الأعمال فالحرص مرفوع عنهم في كل ما تضطربهم إليه . أعذارهم ، فتقتضي نيتهم الإتيان فيه بالإكمال و يقتضي العذر أن يقع منهم . فالحرص منفي عن

1- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م 4 ، ص 2533

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 256



الأعمى في التكليف الذي يشترط فيه البصر و عن الأعرج فيما يشترط فيه المشي و الركوب ، و عن المريض في التكليف الذي يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة و الغزو ، و لكن المناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان أن المقصد الترخيص للأعمى انه لا يتعين عليه استئذان لانتفاء السبب الموجبة ، ثم ذكر الأعرج و المريض إدماجاً و إتماماً لحكم الرخصة لهما للمناسبة بينها وبين الأعمى ¹، إذن لأعرج عليك إن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أختك أو أخيك أو أختك أو عمك و عمتك أو خالك و خالتك ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ يعني يعطيك صاحب البيت مفاتيح بيته و في هذا إذن لك بالتصرف و الأكل من طعامه إن أردت ²، و معناها كذلك أموال الرجل إذا كان له عليها قيم و وكيل يحفظها له أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته ، وملك المفاتيح كونها في يده وقيل : بيوت الممالك لأن مال العبد لمولاه وقرئ مفاتيحه ³. و ملك المفاتيح أريد حفظها بقرينة إضافته إلى المفاتيح دون الدور أو الحوائط والمفاتيح : جمع مفتاح وهو اسم آلة الفتح و يقال فيها مفتاح و يجمع على مفاتيح . و هذه رخصة للوكيل والمختزن للطعام أن يأكل كل منهم مما تحت يده بدون إذن و لا يتجاوز شيع بطنه وذلك للعرف بأنه ذاك كالإجازة فلذلك قال الفقهاء إذا كان لواحد من هؤلاء أجره على عمله لم يجزله الأكل مما تحت يده ⁴. ﴿ أَوْ صَدِيقَكُمْ... ﴾ ، نلاحظ في هذه أنها الوحيدة التي وردت بصيغة المفرد في هذه الآية فقبلها: بيوتكم، آبائكم، أمهاتكم... الخ إلا في الصديق فقال ﴿ أَوْ صَدِيقَكُمْ... ﴾ ، و لم يقل أحد أصدقائكم. ذلك لان كلمة صديق مثل كلمة عدو وتستعمل للجميع بصيغة المفرد كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي... ﴾ الشعراء (77) ، لأنهم حتى إن كانوا جماعة لا بد أن يكونوا على قلب رجل واحد و إلا ما كانوا أصدقاء و كذلك في حالة العداوة

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 299

2- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10339

3- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ، ص 257

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 302

نقول عدو وهم جمع لان الأعداء تجمعهم الكراهية فكأنهم واحد¹، ﴿أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾ معناه : أو بيوت أصدقاؤكم والصديق يكون واحداً و جمعا وكذلك الخليل والقطين و العدو يحكى عن الحسن بن علي رضي عنهما أنه دخل داره و إذا حلقة من أصدقاؤه و قد استلوا سلاطات من تحت سريره فيها أطايب الأطعمة و هم مكبون عليها يأكلون فتهللت أساير وجهه سروراً و ضحك و قال : هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم² يريد الصحابة رضي الله عنهم¹ ، و﴿صديق﴾ ، هنا مراد به الجنس الصادق بالجماعة بقريظة إضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين و هو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليها إن كان وصفاً أو خبراً في الأفراد و التنثية و الجمع و التذكير والتأنيث و هو الأصل والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال تعالى : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الشعراء (100) و(101) و مثله الخليل و القطين ، و الصديق: فعيل بمعنى فاعل و هو الصادق في المودة و قد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء و سئل بعض الحكماء أي الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال إنما أحب أخي إذا كان صديقي³ . فإذا انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها بين الحالة التي يجوز عليها الأكل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ، فقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام فرفع الله هذا الحرج المتكلف ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد و أباح أن يأكلوا أفرادا أو جماعات⁴ ، فيصبح أن تأكلوا معاً لان الحق سبحانه و تعالى يريد أن يجعل التكامل في الذوات لا في الأعراض و أيضاً إنك إن رأيت شاباً مؤوفا يعني به آفة ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحته شعوره حتى إن كان ما به أمراً خلقياً من الله لا يتأباه و البعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها، ثم يقول سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا....﴾ ﴿جَمِيعًا...﴾ سويّاً بعضكم

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10339.

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3، ص 257

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 302

4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17، ص 10337

مع بعض ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا ۚ ۞ ﴾ متفرقين نزلت في بني بليث بن عمرو من كنانة كانوا يتخرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة¹، وأعيدت جملة ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ۙ ﴾ تأكيداً للأولى في قوله ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ۙ ﴾ إذا الجناح والخرج كالمترادفين وحسن هذا التأكيد بعد ما بين الحال وصاحبها وهو واو الجماعة في قوله تعالى ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ۙ ﴾ ولأجل كونها تأكيداً فصلت بلا عطف. و الجميع: المجتمعون على أمر. والأشتات: الموزعون فيما الشأن اجتماعهم فيه قال تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ۙ ﴾ الحشر (14) والأشتات : جمع شت وهو مصدر شتت إذا تفرق وأما شتى فجمع شتيت، و المعنى: لا جناح عليكم أن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاعوا للأكل مثله أو أن يأكل وحده متفرقاً عن مشارك لئلا يحسب أحدهم إنه إن وجد من سبقه للأكل أن يترك الأكل حتى يخرج الذي سبقه أو أن يأكل الواحد منكم مع أهل البيت أو أن يأكل وحده². فإذا انتهى من بيان الحالة التي يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ۙ ۞ ﴾.. وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين و التحية التي يليقها عليه هي تحية من عند الله تحمل ذلك الروح و تفوح بذلك العطر و تربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها³، لأنك حين تسلم على غيرك كأنك تسلم على نفسك، لأن غيرك هو أيضا سيسلم عليك، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيماني وحدة متماسكة فحين تقول لغيرك السلام عليكم سيرد ، عليكم السلام ، فكأنك تسلم على نفسك ، أو أن المعنى إن دخلتم بيوتا ليس فيها أحد فسلموا على أنفسكم ، و إذا دخلوا المسجد قالوا السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قالوا: تسمع الملائكة وهي ترد ، والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةٌ... ۙ ﴾ والشيء المبارك: الذي يعطي فوق ما ينتظر منه⁴، ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ

1 - ينظر الزمخشري : الكشاف، المصدر السابق، ج3 ، ص257

2 - ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 303

3 - ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2534

4- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج17 ، ص 10340

بُيُوتًا ﴿١﴾، من هذه البيوت لتأكلوا فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ، أي ثابتة بأمره ، مشروعة من لدنه أو لان التسليم و التحية طلب سلامة و حياة للمسلم عليه و المحيا من عند الله و وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق ¹ ، فالتحية مصدر فعل مشتق من الجملة المشتمة على فعل (حيا) مثل قولهم جزاه إذا قال له : جزاك الله خيراً كما تقدم في فعل ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ أنفاً، وكان هذا اللفظ تحية العرب قبل الإسلام تحية العامة قال النابغة*:

حياك ربي فإننا لا يحل لنا *** لهو النساء وإن الدين قد عزمنا

وكانت تحية الملوك (عم صباحاً) فجعل الإسلام التحية كلمة (السلام عليكم) و هي من جوامع الكلم لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه و باللفظ له إن كان معروفاً ²، و قوله تعالى : ﴿تَحِيَّةٌ﴾ ، مصدر من معنى سلموا لأن سلم و حيا بمعنى واحد، و انتصب ﴿تَحِيَّةٌ﴾ على الحال من التسليم الذي يتضمنه ﴿فسلموا﴾ نظير عود الضمير على المصدر في قوله : ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ³، المائدة (08) ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ، أي يكن سلامكم تحية ثابتة مشروعة شرعها الله تعالى ، مباركة الثواب طيبه الأثر ففي الحديث الشريف عن انس رضي الله عنه قال - قال رسول الله ﷺ (يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك و على أهل بيتك) ⁴، و المباركة : المفعولة فيها البركة ، و البركة وفرة الخير وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة و حسن اللقاء و المخالطة و ذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية والطيبة : ذات الطيب ، و هو طيب مجازي بمعنى النزاهة و القبول في نفوس

1- ينظر العكبري التبيان : المصدر السابق، ص 256.* هو زياد بن عمرو بن معاوية يكنى أبا أمامة توفي سنة 18 قبل الهجرة، ينظر شرح المعلقات العشر لأحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق محمد الفاضل، المكتبة العصرية، بيروت، دت، دط، ص 219.

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج 3، ص 257

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق، ج 9، ص 304

4- ينظر عبد الحميد طهماز : من موضوعات سورا لقرآن الكريم، دار القلم، دمشق، 1996، ط 1، ص 95

* رواه الترمذي في كتاب كيفية السلام، رقم الحديث 2622.

الناس، و وجه طيب التحية ، إنها دعاء بالسلامة وإيدان بالمسالمة و المصافاة ووزن ﴿ طَيِّبَةً ﴾ فلعله مبالغة في الوصف، و تقدم في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾¹، آل عمران (38) و هكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة الكبيرة: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، و تدركون ما في المنهج الإلهي من حكمة و من تقدير²، وكذلك أي كما بين الأحكام السابقة يبين لكم ﴿ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أي إن الذي كلفكم بهذا الأحكام رب يحب الخير لكم ، و هو غني عن هذه إنما يأمركم بأشياء ليعود عليكم نفعها عليكم فإن أطعتموه فبما أمركم به انتفعتم بأوامره في الدنيا ثم ينتظركم جزاؤه و ثوابه في الآخرة³، كما أن جملة ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، تكرير للجملتين الواقعتين قبلها في آية الاستئذان لأن في كل ما وقع قبل هذه الجملة بياناً لآيات القرآن اتضحت به الأحكام التي تضمنتها و هو بيان يرجى معه إن يحصل لكم الفهم و العلم بما فيه كمال شأنكم⁴، و هكذا تختم الآيات بتعليق القلوب و الأبصار بالله و تذكيرها بخشيته و تقواه ، فهذا هو الضمان الأخير ، و هذا هو الحارس لتلك الأوامر و النواهي ، وهذه الأخلاق و الآداب التي فرضها الله في هذه السورة جعلها كلها سواء ، و بعد ما عادت الآيات في آخر سورة النور إلى بيان أحكام التشريع أنارت سبلاً جديدة وشرعت أحكاماً أخرى ، لضبط بناء العلاقات الفردية و الجماعية ، كما أن هذه الآيات وحدة متكاملة بينها و بين ما سبق من تشريع الأحكام في صدر السورة و هي نسج فني بديع من صنعة حكيم خبير .

المحور السادس

– أدب المؤمنين مع رسول الله : (من : الآية 62 إلى : الآية 64)

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 305

2- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدر السابق ، م4، ص 2534

3- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق، ج17، ص 10340

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 305

إن البناء العام للسورة جاء متماسكا يخدم الجوهر العام، و هو الأدب مع الله و رسوله ، و قد تسلسلت المواضيع مشكّلة وحدة عضوية متميزة في نسق منطقي، يؤدي إلى بناء قناعات راسخة حول الحياة الجنسية السليمة في المجتمع الإسلامي؛ فقد أسس المحور الأول من السورة الأحكام ، و جسّد المحور الثاني صورة مقززة لقذف الأعراض و ما يخلفه من اضطراب و بلبلة في المجتمع المحافظ، ليؤكد على ضرورة الأخذ بالأحكام التي أسس لها المحور الأول ، و قد شكل المحوران ما نسبته 40 % من منظومة السورة ، و جاءت النسبة المتبقية 60 % لبناء مجموعة من الآداب تسند الأحكام السابقة ، ليتضح لنا أن حل المشكلة الجنسية له طرفان حل قانوني و حل اجتماعي تحت مظلة الإيمان بالله و طاعة رسول الله ﷺ .

المحور السادس و الأخير موضوعه الأدب مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذلك ترتيب منطقي للأسباب التالية :

— النبي ﷺ هو المبلّغ لتلك الأحكام و الآداب، فمن المنطقي أن يأتي الأدب مع المبلّغ ﷺ بعد عرض المبلّغ به ، كالشكر و الامتتان بعد المعروف .

— أن أواخر الكلام في الغالب هو الأكثر علوقاً بالنفس ، و إذا تعلقت النفس بالأدب مع رسول الله ﷺ قادها ذلك إلى كل خير، و جنبها كل شر .

— لا يخفى على عاقل أن مراد ﴿ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ ، النيل من رسول الله ﷺ لاسيما ﴿ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ ، رأس النفاق في المدينة أبي بن سلول ، فجاء المحور الأخير ليعلي مقام النبي ﷺ فوق هامات النجوم ، و ليوضح للمنافقين أن شمس الضحى لا يضيرها عبور الغيوم .

المحور السادس هو أصغر المحاور من حيث عدد الآيات، كبير من حيث الدلالات إذ لا يستقيم إيمان و لا تنفذ أحكام إلا بمقتضى ما في النفس البشرية من أدب و حب لرسول الله ﷺ ، و قد ختم هذا المحور بكمال التوحيد و إحاطة علم الله عز و جل بالدقيق والجليل ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ،

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، بعد أن بين الله أدب الدخول إلى البيوت و المجالس بقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أوضح في هذه الآية و بين

أدب الخروج و الانصراف من البيوت و المجالس — فالآيات تأخذ بعضها برقاب بعض — و استعمال صيغة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ لتوضيح أن كمال الإيمان بعد اعتقاد الله ربا و محمدا رسولا هو مراعاة الأدب مع الحضرة النبوية ، و أن يأتي الاستئذان ثالثا بعد الإيمان بالله و رسوله فيه تشريف و تعظيم لرسول الله ﷺ ، و موضع المجاز العقلي — " المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأول إفادة للخلاف ، لا بوساطة وضع ، قولك : أنبت الربيع البقل وشفى الطبيب المريض وكسا الخليفة الكعبة."¹ — في وصف الأمر بالجمع حتى لكان الأمر إنسان عاقل يجمع ، للمبالغة و تتضح الحكمة من هذه المبالغة إذا علمنا ماذا يعني الأمر الجامع عند أرباب اللغة ، ذكر صاحب اللسان " أمرٌ جامعٌ يجمع الناسَ وفي التنزيل ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ ، قال الزجاج : قال بعضهم : كان ذلك في الجمعة ، قال : هو و الله أعلم أن الله عز وجل أمر المؤمنين إذا كانوا مع نبيه ﷺ فيما يحتاج إلى الجماعة فيه نحو الحرب وشبهها مما يحتاج إلى الجمع فيه لم يذهبوا حتى يستأذنوه"² ، و عند مرتضى الزبيدي " أمرٌ جامعٌ : يجمع الناسَ ، قال الراغب : أمرٌ جامعٌ أي أمرٌ له خطرٌ اجتمع لأجله الناسُ فكان الأمر نفسه جمعهم . " فالمبالغة هنا ضرورية جدا إذ لا يعقل في الاجتماعات المهمة و الخطيرة أن ينصرف كل على هواه ، مؤثرا حاجاته الشخصية على ضرورات الأمة ، لذلك كان الإذن صمام أمان في مجالس ذاك شأنها " ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ ﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله و الإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له و البساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ..."³ ثم أكد على الاستئذان بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، و يحسن التكرار هنا للتأكيد و المبالغة و التخصيص فليس قولنا المحسن زيد مثلا كقولنا زيد المحسن ، الأول تخصيص لزيد بالإحسان ،

1 — الخطيب القرطبي : الإيضاح في علوم البلاغة، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 8 .

2 — ابن منظور : لسان العرب، مادة (جمع)، المصدر السابق ، ج 1، ص 498 .

3 — الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 429 .

و الثانية صفة قد تستبدل بغيرها . " و جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، إلى آخرها تأكيد لجملة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، الآية ، و قد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسنداً إليه في الثانية و المسند إليه في الأولى مسنداً في الثانية ومآل الأسلوبين وأحد لأن مآل الإخبار بأن هذا هو ذلك على حد: شعري شعري، تنويهاً بشأن الاستئذان ... و وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله :

﴿ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، تشريعاً للرسول ﷺ بهذا الخطاب.¹ و قد كرّرت صيغ الاستئذان أربع مرات ثلاث على وجه المضارعة و وأحد على وجه الأمر ، فالمضارعة تنقلك من مقام السامع إلى مقام المشاهد المعين إذ ليس الخبر كالمعاينة ، و تفيد التأكيد باستمرار ليأتي الأمر ﴿ فَأَذَنْ ﴾ قاطعاً بالتنفيذ . " ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ ، ما يعرض لهم من المهام ، و فيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر² التبعض هنا لتضييق الأمر ، و اقترانه بـ ﴿ شَأْنِهِمْ ﴾ حصر للأسباب الموجبة للانصراف من اجتماع له أهميته و خطره ، إذ الشأن لغّة " (شأن) الشأن الخطب و الأمر و الحال و جمعه شؤون و شأن³ ، و في هذا الاقتران تضمين ، أي إذا لم يكن الشأن ضرورة قصوى فليس من الأدب الاستئذان به ، و قطع المجلس لسبب تافه يُنم عن أنانية تكدر صفاء الإيمان ، و الضرورات تقدر بقدرها ، و قد استعمل حرف العطف (ف) ﴿ فَأَذَنْ ﴾ ، لترتيب الأول على الثاني بسرعة و دون تراخي ، أي إذا كان العذر الموجب للاستئذان ضرورة قصوى فلك يا محمد ﷺ أن تأذن له إن شئت، أي بحسب تقديرك للأمور، و رغم ذلك العذر القوي إلا أنه ﷺ أمر بالاستغفار للمستأذن " فإن الاستئذان و إن كان لعذر قوي لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة⁴ ، و إذا كان التمكين كما ذكر السيوطي في الإتيان في

1 — ابن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 38 .

2 — البيضاوي : أنوار التنزيل ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 391 .

3 — ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شأن)، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 258 .

4 — الألوسي : روح المعاني ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص 20 .

و الثانية صفة قد تستبدل بغيرها . " و جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، إلى آخرها تأكيد لجملة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، الآية ، و قد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسنداً إليه في الثانية و المسند إليه في الأولى مسنداً في الثانية ومآل الأسلوبين وأحد لأن مآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حد: وشعري شعري، تنويهاً بشأن الاستئذان ... و وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله :

﴿ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، تشريفاً للرسول ﷺ بهذا الخطاب.¹ و قد كرّرت صيغ الاستئذان أربع مرات ثلاث على وجه المضارعة و واحد على وجه الأمر ، فالمضارعة تنقلك من مقام السامع إلى مقام المشاهد المعين إذ ليس الخبر كالمعاينة ، و تفيد التأكيد باستمرار ليأتي الأمر ﴿ فَأَذَنْ ﴾ قاطعاً بالتنفيذ . " ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ ، ما يعرض لهم من المهام ، و فيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر² التبعض هنا لتضييق الأمر ، و اقتترانه بـ ﴿ شَأْنِهِمْ ﴾ حصر للأسباب الموجبة للانصراف من اجتماع له أهميته و خطره ، إذ الشأن لغّة " (شأن) الشأن الخطب و الأمر و الحال و جمعه شؤون و شئان³ ، و في هذا الاقتران تضمين ، أي إذا لم يكن الشأن ضرورة قصوى فليس من الأدب الاستئذان به ، و قطع المجلس لسبب تافه يُبْم عن أنانية تكدر صفاء الإيمان ، و الضرورات تقدر بقدرها ، و قد استعمل حرف العطف (ف) ﴿ فَأَذَنْ ﴾ ، لترتيب الأول على الثاني بسرعة و دون تراخي ، أي إذا كان العذر الموجب للاستئذان ضرورة قصوى فلك يا محمد ﷺ أن تأذن له إن شئت، أي بحسب تقديرك للأمور، و رغم ذلك العذر القوي إلا أنه ﷺ أمر بالاستغفار للمستأذن " فإن الاستئذان و إن كان لعذر قوي لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة⁴ ، و إذا كان التمكين كما ذكر السيوطي في الإتيان في

1 - ابن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 38 .

2 - البياضوي : أنوار التبريل ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 391 .

3 - ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شأن)، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 258 .

4 - الألوسي : روح المعاني ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص 20 .

علوم القرآن في معرض حديثه عن الفواصل القرآنية هو — أي التمكين — " ائتلاف القافية و هي أن يمهد للقرينة أو القافية تمهيدات تأتي به القرينة أو القافية متمكنة في مكانها ... متعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً ¹ ، فإن الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ممكنة في مكانها بشكل مستوفٍ لمضامين الآية (62) ، فتأكيد مغفرة الله لهفوات عباده المؤمنين ، رحيم إذ قدّر ضروراتهم التي أملت عليهم الاستئذان ، ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ ... عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، و بين يدي هذه الآية الكريمة كلام نفيس الجوهر جميل المظهر ذكره البقاعي في تفسيره : " و لما أظهرت هذه السورة بعمومها ، و هذه الآيات بخصوصها ، من شرف الرسول ﷺ ما بهر العقول ، لأجل ما وقع للمنافق من التجرؤ على ذلك الجنب الأشم ، و المنصب لأتم ، و علم منه أن له ﷺ في كل أمره و جميع شأنه خصوصية ليست لغيره ، صرح بذلك تفخيماً للشأن ، و تعظيماً للمقام ، ليتأدب من ناضل عن المنافق ، أو تواني في أمره فقصر عن مدى أهل السوابق ، فقال منبهاً على أن المصائب سبب لإظهار المناقب أو إشهار المعاييب ﴿ لَا تَجْعَلُوا ﴾ ، أي أيها الذين آمنوا ﴿ دُعَاءَ الرَّسُولِ ﴾ ، أي لكم الذي يوقعه ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ ، ولو على سبيل العموم ، في وجوب الامتنثال ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فإن أمره عظيم ، و من خالفه استحلالاً كفر ، ولا تجعلوا أيضاً دعاءكم إياه كدعاء بعضكم لبعض بمجرد الاسم ، بل تأدبوا معه بالتفخيم و التبجيل و التعظيم كما سن الله بنحو : يا أيها النبي ، ويا أيها الرسول ، مع إظهار الأدب في هيئة القول الفعل بخفض الصوت و التواضع ² ، و تأمل روعة الإيجاز في أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة في صدر الآية ، فقد تضمنت معنى غزيراً على إيجازها ، فاستعمال عبارة ﴿ دُعَاءِ ﴾ بصيغة النكرة جعل منها خزانة لمعانٍ ثلاث : الدعاء و هو طلب الحاجة من الله و أصل الدعاء الصلاة ، الدعوة و هي استدعاء لأمر ذي بال كالدعوة للصلاة أو الشهادة و نحوه ، و قولنا دعا الرجل دعاءً أي ناداه ، فجمعت هذه الآية آداباً ثلاثة ، أدب في انقاء دعوة الرسول ، و أدب في إجابة دعوته ،

1 — السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، المصدر السابق ، ص 14 .

2 — البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص 495 .

و أدب في مناداة الرسول يقول ابن عربي في أحكامه: "إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِضَافَةِ هَاهُنَا إِضَافَةُ الْمَصْدَرِ إِلَى الْفَاعِلِ ، وَ يَكُونُ لَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ مَعَانٍ: أَحَدُهَا: لَمَّا تَجَعَّلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ بَيْنَكُمْ ، فَإِنَّ إِجَابَتَهُ وَاجِبَةٌ ، وَ لَيْسَتْ إِجَابَتُكُمْ وَاجِبَةً ، يَعْنِي عَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا تَجِبُ إِجَابَةُ الْخَلْقِ بِقَرَائِنٍ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ، أَوْ مِنْ حُقُوقِ الدَّاعِي ... وَ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ اخْذَرُوا أَنْ تَتَقَرَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَدْعُو عَلَيْكُمْ ، وَلَيْسَ دُعَاؤُهُ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُ مُجَابَةٌ ... الْمَعْنَى الثَّلَاثُ: أَنَّ مَعْنَاهُ لَمَّا تُسَوُّوا بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَكُمْ فِي الدَّعْوَةِ، كُلُّ أَحَدٍ يُدْعَى بِاسْمِهِ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُدْعَى بِخُطْبَتِهِ وَهِيَ الرِّسَالَةُ ...¹

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، من معاني ﴿ قَدْ ﴾ مع المضارع التحقيق ، و هو تعريض بالمنافقين ، فهم لا يخفون عن الله و إن استخفوا عن الناس، و في الآية على قلة ألفاظها تصوير بليغ لمشهد المنافقين و هم ينسحبون في مكر و استخفاء من مجلس رسول الله ، فالتسلل لغة : " (سَلَّ) السَّلُّ انْتِرَاعُ الشَّيْءِ وَ إِخْرَاجُهُ فِي رِفْقٍ سَلَّهُ يَسْلُهُ سَلًّا وَ اسْتَلَّهُ فَاَنْسَلَّ وَ سَلَّلْتُهُ أَسْلُهُ سَلًّا ... وَ تَسَلَّلَ انْطَلَقَ فِي اسْتِخْفَاءٍ ... وَ فِي حَدِيثٍ عَائِشَةُ فَاَنْسَلَّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَيِ مَضَيْتُ وَخَرَجْتُ بَتَّانٌ وَتَدْرِيجٌ.² و معنى ﴿ لِوَاذًا ﴾ ، لغة : " (لَوِذٌ) : لَازِبٌ بِهِ يَلُودُ لَوِذًا وَ لَوِاذًا وَ لَوَاذًا وَ لِيَاذًا : لَجَأٌ إِلَيْهِ وَ عَاذَ بِهِ ، وَ لَوِذٌ مُلَاوِذَةٌ وَ لَوَاذًا وَ لِيَاذًا : اسْتَتَرَ . وَ قَالَ ثَعْلَبٌ: لُذْتُ بِهِ لَوَاذًا احْتَضَنْتُ ، وَ لَوِذٌ الْقَوْمُ مُلَاوِذَةٌ وَ لَوَاذًا أَيِ لَازِبٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ... معنى يتسللون منكم لواذاً يلوذ هذا بدا و يستتر ذا بدا... و في خطبة الحجاج : و أنا أرميكم بطرفي و أنتم تتسللون لواذاً أي مستخفين و مستترين بعضكم ببعض وهو مصدر لاوِذٌ يُلَوِذُ مُلَاوِذَةً وَ لَوَاذًا... و قال الطرماح :

1 - أبو بكر محمد بن عبد الله بن عربي : أحكام القرآن ، مراجعة وتعليق محمد عبد القادر عطا ، ج 6 ، دار

الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، دت ، ط 1 ، ص 142 .

2 - ابن منظور : لسان العرب، مادة (سلل)، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 188

يُلَاوِذُ مِنْ حَرٍّ كَأَنَّ أَوَّارَهُ *** يُذِيبُ دِمَاجَ الضُّبِّ وَهُوَ خَدُوْعٌ.¹

و ﴿ مِنْكُمْ ﴾ ظُفْرٌ لِلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ، فَهَؤُلَاءِ التَّعَسَاءُ يَنْتَزِعُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فِي دِهَاءٍ، وَ هَكَذَا تَتَضَحَّ الصُّورَةُ فَالْمَنَافِقِينَ يَنْسَحِبُونَ مِنْ مَجْلَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دُونَ إِذْنِهِ بِرَفْقٍ وَ تَدْرِيجٍ بِحَيْثُ يَنْسَحِبُونَ شَيْئًا فَشَيْئًا يَسْتَخْفِي وَ يَسْتَتِرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لِيَصِلُوا إِلَى الْبَابِ حَتَّى إِذَا آنَسُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ غَفْلَةً عَنْهُمْ فَرُّوا وَ أَعْطَوْا سَيِّقَانَهُمُ لِلرَّيْحِ ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تَهْدِيدٌ وَ وَعِيدٌ لِلزَّجَرِ، وَ الْحَذَرُ أَصْلُهُ تَجَنَّبَ مَا يُولَدُ الْخَوْفُ وَ الْفَزَعُ ، ﴿ الَّذِينَ ﴾ فَاعِلٌ وَ فَعْلُهُ ﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ وَ مَجِيئُهُ بِصِغَةِ الْمَضَارَعَةِ يَفِيدُ الْإِسْتِمْرَارَ ، فَالدَّعْوَةُ لِلْحَذَرِ لِكُلِّ الْمَخَالِفِينَ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَ مِنْ عَلَيْهَا ، وَ إِعَادَةُ فَعْلٍ ﴿ يُصِيبُهُمْ ﴾ مَرَّتَيْنِ لِتَأْكِيدِ التَّهْدِيدِ وَ التَّحْذِيرِ، "و حَذَفَ الْمَفْعُولُ [فَعْلُ الْمَخَالَفَةِ] لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ الْمُخَالَفِ وَ الْمُخَالَفِ عَنْهُ"²، وَ تَأْمَلُ إِلَى رُوعَةِ انْتِقَاءِ الْكَلِمَاتِ، فَكَلِمَةُ ﴿ تُصِيبُهُمْ ﴾ لُغَةٌ : " (صَوَّبَ) الصَّوْبُ نَزُولُ الْمَطَرِ صَابَ الْمَطَرُ صَوْبًا وَ أَنْصَابٌ كِلَاهُمَا أَنْصَبَ وَ مَطَرٌ صَوْبٌ وَصِيبٌ وَصِئُوبٌ... وَكُلُّ نَازِلٍ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ فَقَدْ صَابَ يَصُوبُ "³ ، وَ الْفِتْنَةُ لُغَةٌ : " (فِتْنٌ) الْأَزْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ جِمَاعٌ مَعْنَى الْفِتْنَةِ الْإِبْتِلَاءُ وَالْإِمْتِحَانُ وَ الْإِخْتِبَارُ وَ أَصْلُهَا مَأْخُذٌ مِنْ قَوْلِكَ فَتَنْتُ الْفِضَّةُ وَ الذَّهَبُ إِذَا أَذْبَتَهُمَا بِالنَّارِ لِتَمِيزِ الرَّدِيِّ مِنَ الْجَيِّدِ... وَ الْفِتْنَةُ الْفَضِيحَةُ وَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾، الْمَائِدَةُ (41) ، قِيلَ مَعْنَاهُ فَضِيحَتُهُ... وَ الْفِتْنَةُ الْعَذَابُ ... وَ الْفِتْنَةُ الْقَتْلُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، النِّسَاءُ (101) ⁴ ثُمَّ انْظُرْ إِلَى مَوْقِعِ ﴿ أَوْ أَوْ ﴾ بَيْنَ فِتْنَةٍ وَ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، فَمِنْ مَعَانِي ﴿ أَوْ ﴾ التَّخْيِيرُ وَ الشُّكُّ وَ الْإِبْهَامُ ، فَكَأَنَّهُمْ مَخِيرُونَ بَيْنَ خِيَارَيْنِ أَحْلَاهُمَا مَرِّ إِمَّا الْفِتْنَةِ أَوْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَ إِمَّا أَنْ الْمَعْنَى فِتْنَةٌ فِي الدُّنْيَا

1 - ابن منظور : لسان العرب، مادة (لوذ)، المرجع السابق ، ج5 ، ص410 . *الطرماح بن حكيم من طي

شاعر إسلامي ولد ونشأ في الشام توفي سنة 125هـ، (الشعر والشعراء لابن قتيبة)، مصدر سابق، ص393.

2 - البيضاوي: أنوار التنزيل ، المصدر السابق، ج4 ، ص391 .

3 - ابن منظور: لسان العرب ، مادة(صوب)،المصدر السابق ، ج3 ، ص488

4 - ابن منظور: لسان العرب ، مادة(فتن)، المصدر السابق، ج4 ، ص1049 .

و عذاب في الآخرة ، و إما أن تكون ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى " بل " للإضراب كما هو معلوم عند النحويين أي أتصيبهم فتنة بل يصيبهم عذاب أليم في نقلة من الشدائد إلى الأشد منه ، كل هذه المعاني يفرزها حرف العطف ﴿ أَوْ ﴾ و في ذلك مبالغة في التهديد و الوعيد لا سيما و أن فتنة جاءت نكرة فأفادت الاستغراق أي كل أنواع الفتن و البلياء من فضيحة و عذاب و قتل و " العذاب الأليم الذي يبلغ إيجاعه غاية البلوغ " ¹ ، و تأمل أخيراً قوله تعالى: ﴿ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بدل يخالفون أمره إذ الفعل يتعدى بنفسه دون ﴿ عَنْ ﴾ ، لكن إذا علمنا أنه من معاني ﴿ عَنْ ﴾ البعد و التجاوز ، و استعمال كلمة ﴿ يَخَالِفُونَ ﴾ التي توحى بالخلفية و الخلف أو شكنا على رؤية المنافقين و هم يعطون ظهورهم لرسول الله فارين مبتعدين عن مجلسه ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ... يقال : خالفه إلى الأمر، إذا ذهب إليه دونه... خالفه عن الأمر : إذا صد عنه دونه ² .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، " تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها ، و افتتاحه بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام و تنبيه للناس ليعُوا ما يرد بعد حرف التنبيه ، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض ، فهو يجازي عباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون ، و معنى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الأحوال الملايسين لها من خير و شر ، فحرف الاستعلاء [على] مستعار للتمكن ... ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ ، كناية عن الجزاء ³ و استخدام حرف العطف ﴿ ف ﴾ مع الإنباء الذي هو خبر ذو فائدة عظيمة ، يدل على سرعة الحساب و على أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ ، مريم (64) و الفاصلة الممكنة ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بل الآية كلها كالخاتمة المتماسكة للسورة كلها، فعلم الله تعالى أحاط بكل شيء ، فلا يخفى عليه زنى الزناة و إن استتروا بالكهوف و الأنفاق، و لا يعزب عن علمه قذف القاذفين و لا رمي الرماة و لا المتسللين لوإذا من مجلسه ﷺ ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

1 - ابن منظور : لسان العرب ، مادة (عذب)، المصدر السابق، ج 4 ، ص 716 .

2 - الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 429 .

3 - ابن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج 10 ، ص 41 .

خلاصة المحور السادس هي أن ظاهرة الالتفات انصراف المتكلم عن مخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى مخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر - هي جوهر بنائه الجمالي فقد تكرر الالتفات ستة مرات بمعدل مرتين لكل آية ، و ذلك مناسب جداً لموضوع المحور إذ يكثر الالتفات في المجالس كل على حسب نيته و حاجته ، فالبعض يلتفت ليرى من يجلس بالقرب منه ، و البعض يلتفت ليُعلم مكانه ، و البعض يلتفت للترويح ، و الآخر يلتفت ليتفقد أحدهم ، و البعض يلتفت عند تنبيه أحدهم له إن كان غافلاً، و البعض يلتفت بنية خبيثة ليتسلل لوإذا مثلاً ، و قد بلغ الالتفات ذروته عند تجسيده في مشهد المتسللين من المنافقين في وسط الآية (63) .

الخاتمة

الخاتمة

القرآن الكريم كتاب الله تعالى معجزة كلامية، أيد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتولى حفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر آية: (09)، فهو معجز من وجوه شتى، سحر ألباب البلغاء و الفصحاء، أرباب اللغة والبيان ممن كانوا يدعون قوة التكلم والإفصاح من العرب، وتحداهم، وبقيت الحجة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والخطاب القرآني بهذا الإعجاز والتحدي إثارة للإنس والجن، والدارس له تهزه نفحاته الإيمانية، وتبهره مستوياته الجمالية، وأساليبه المتفنّة، التي جمعت محاسن الخطاب والبلاغ والتي لا يستطيعها البشر ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لكن كلام الله دوحة غناء، كلما قطفت زهرة، تأقت نفسك لقطف زهرات، فحين تتذوق مستوى التفنن، وتتلمس هندسة الصنعة الكلامية، تجد نفسك محسوراً عاجزاً، لأنك حفظت شيئاً وتجلت لك أشياء، وتبقى مأسوراً مأخوذاً بين جماله وجلاله، بين إشراقة اللفظ وقوة المعنى، منجذباً بين حسن النظم وبراعة التأليف، متذوقاً جمال التصوير، طرباً منتشياً بفواصله المتناغمة، فالقرآن نور ويهدي الله لنوره من يشاء، لذا يتوجب على المتلقي أن يتهياً بآنية ذواقة طاهرة، ليرتشف مكامن الروعة والجمال، إنه كلام الله الذي أتقن كل شيء صنعه، ومما نستجليه بعد طوافنا بحياض هذه الجمانة النفيسة وهي سورة النور، نجد أن جماليات الخطاب القرآني غايته تهيئة النفوس لحسن التلقي عن الله، وفي آيات الأحكام شدة وليناً تتناسق المشاهد

والمواقف حتى تكاد تصعد النفس وتتحبس عند الزجر والردع حسا ومعنى، وكأنك تعيش الحدث وتتابع التفاصيل، ناهيك عن المواءمة والدقة في اختيار الألفاظ التي تؤدي الغرض بدون زيادة أو نقصان.

أما الصورة في هذه السورة تظهر شاخصة حية، ترتسم بكل وضوح وجلاء، تجسد اللقطات وتبعث فيها حركة وحيوية في تجدد واستمرار، توظف الذهن وتمتع الوجدان، فهو حقا خطاب العامة والخاصة وإقناع للعقل وإمتاع للعاطفة، فالبلاغ القرآني متعة ذوقية بفنياته وجمالياته التي تضافر في نسج خيوطها وهندسة أساليبها جميع مستويات الخطاب، بطريقة بديعة تجمع الوضوح والقوة والجمال، وتتألف هذه الأخيرة مع بعضها، لتكون نغمة متناسقة منسجمة، ترضي نواحي النفس وتوخز الخيال، ليحس المتلقي بمتعة ذوقية وإفادة نوعية متفردة، ذلك هو أسلوب القرآن الذي يربي الذوق والحس، وسورة النور قبس من أنواره، إضافة إلى التربية الروحية وتركيز النفوس وتطهير المجتمع من الرذيلة، مثلما ورد في السورة التي نورّت بأحكامها وتشريعاتها السبيل للمؤمنين الذين يتوقون إلى تذوق الجمال الروحي والمعنوي، لأن الإسلام منهاج متكامل ينظم حياة الإنسان بكل مراحلها، ومن ثم لا يغفل الآداب الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها، ويتجه بها إلى الله، وهكذا تبصر القلوب، ويناط اللثام عن كبريات العقبات والمشاكل الاجتماعية والجنسية والتربوية فتُحلّ، لأنها أخذت مصداقية تشريعاتها من نور الله وهدايته، وبالتالي يحافظ الإنسان على أمانة الخلافة على وجه الأرض، ويسعد دنيا و آخرة، وهكذا نجد القرآن الكريم يلبي الحاجة التعبدية والإحساس بربوبية الخالق المتفرد الذي لا إله سواه، ويدفعنا إلى الإحساس بجمالية الخطاب الذي يمتع ويؤثر ويفيد ويوجه

المخلوق لأنه عاجز عن بلوغ الكمال ولا يعلم إلا القليل، ويبقى هذا الخطاب الرباني من المصادر التشريعية التي لا غنى عنها لأنها نابعة من كينونة إلهية تعلم السر وأخفى، تلكم هي إشراقات و تجليات جماليات الخطاب في سورة النور قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ سورة النور آية (35)، ومهما بلغ الدارس للقرآن الكريم من علم، فإنه يقف عاجزاً أمام عظمة وشموخ كلام الله عز وجل، فسبحان الجليل الجميل، وتبقى البشرية بحاجة إلى التعامل مع لغة القرآن وخطابه لأنه الأنسب لمعالجة الجوانب الوجدانية والقضايا الحضارية التي لها علاقة بخليفة الله في الأرض.



المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم : برواية حفص.

كتب التفاسير:

- 1- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ، دار الكتب العلمية، بيروت ، د. ط ، 1995 .
- 2- أبو الأعلى المودودي : تفسير سورة النور ، دار الشهاب بانتة الجزائر ، د. ت ، د. ط .، .
- 3- أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت ، د. ط ، 2001 م
- 4- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن،تح:محمد سيد كيلاني،دار المعرفة،بيروت، د.ط،د.ت.
- 5- أبو بكر محمد بن عبد الله بن عربي : أحكام القرآن ، مراجعة وتعليق محمد عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، د. ت ، ط 1 . .
- 6- أبو جعفر محمد بن جرير : مختصر تفسير الطبري ، اختصار و تحقيق ، محمد علي الصابوني و صالح احمد رضا ، مكتبة رحاب الجزائر، ط2 ، 1987 .
- 7- أبو الفضل محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، دار الفكر ، بيروت ، د. ط ، 1983.
- 8- إسماعيل بن كثير: تفسير الحافظ ابن كثير ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، د. ت ، د. ط
- 9- أبو السعود محمد بن محمد : تفسير أبي السعود ، دار المصحف ، القاهرة ، د. ت ، د. ط .
- 10- أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ، دار المکتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1984
- 11- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، د. ت ، د. ط .

- 12- البغوي : معالم التنزيل ، تح محمد عبد الله النمر و آخرون ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، السعودية ، ط4 ، 1997 .
- 13- الشوكاني : فتح القدير ، مراجعة يوسف الغوش دار المعرفة ، بيروت ، ط3 ، 1997 .
- 14- الشيخ طنطاوي جوهري : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ، لبنان ، 1350 هـ 1930 م .
- 15- الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، دار سحنون للنشر ، تونس ، د.ط ، 1997 .
- 16- سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط 12 ، 1986 .
- 17- فخر الدين محمد بن عمر الرازي : مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000 .
- 18- محمد جمال الدين القاسمي : تفسير القاسمي دار الفكر بيروت ، لبنان ، 1978 م .
- 19- محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د.ت ، د.ط .
- 20- محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، شركة الشهاب الجزائر ، ط5 ، 1990 م .
- 21- محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي دار التقوى ، القاهرة ، د.ط، د.ت .
- 22- ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي : أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، تح عبد القادر عرفات ، دار الفكر ، بيروت ، 1996 ، د.ط .

المصادر والمراجع:

- 1- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986 .
- 2- أبو عباس محمد بن يزيد المبرد : المقتضب ، تح حسن حمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999 .
- 3- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البيان و التبين نشر وزارة الثقافة السورية سنة 2002 .
- 4- أبو فيض محب الدين مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، تح علي شيري، دار الفكر، بيروت،
- 5- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 7، سنة 1991 .
- 6- إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط4 ، 1983 .
- 7- أحمد أمين : النقد الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة، د.ط، د.ت..

- 8- أحمد الشايب : الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، بيروت ، د.ت ، د.ط .
- 9- أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط3 ، 1950.
- 10- أحمد درويش : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ط ، د.ت ..
- 11- أحمد سعد مصلوح : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط3 ، 2002 .
- 12- أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ط ، 1981
- 13- أحمد ياسوف : جماليات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، سورية ، ط1 ، 1994 .
- 14- أدو نيس : مقدمة الشعر العربي ، دار القلم ، بيروت ، ط5 ، 1986.
- 15- أرسطو طاليس : الخطابة ، تر : عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1983 ،
- 16- أمين الخولي : فن القول ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، د.ط ، 1996 ..
- 17- ابن خلدون عبد الرحمان : المقدمة ، تح : علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر ، ط3 ، د.ت .
- 18- ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت
- 19- ابن كثير : السيرة النبوية ، تح : مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، د.ط ، 1971
- 20- ابن منظور : لسان العرب ، مادة (جمل) ، إعداد يوسف خياط ، دار الجيل ، بيروت ، د.ط ، 1988 .
- 21- الأمدى الموازنة ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب ، القاهرة ، ط4 ، 1944 .
- 22- الباقلائي : إعجاز القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1954 .
- 23- الباقلائي : إعجاز القرآن ، تح : أحمد صقر دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1970 .
- 24- التوحيدي : الهوامل و الشوامل ، تح : أحمد أمين و أحمد صقر ، لجنة التأليف و النشر و الترجمة ، القاهرة ، ط1 ، 1952 .

- 25- الجاحظ : الحيوان ، تح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخاتجي ، القاهرة ، ط 1 ، 1952 .
- 26- الزر قاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت ، د. ط ، 1981 .
- 27- الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة، ط5، 1973.
- 28- الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ، دار الندى ، الاسكندرية ، مصر، (د ط) 2002 .
- 29- صاحب بن عباد : المحيط في اللغة ، تح آل ياسين محمد حسن ، عالم الكتب ، بيروت، د. ط ، 1994 .
- 30- الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، (د،ت) ط1979.
- 31- الغزالي : إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1986 .
- 32- الفرابي : كتاب السياسة ، تح : فوزي نجار ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، د.ط ، 1964 .
- 33- الفيروز أبادي : القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1979.
- 34- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957.
- 35- بكرى شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1976.
- 36- علي شلق : الفن والجمال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د.ت، د. ط، 1974 .
- 37- جلال الدين السيوطي : أسرار ترتيب القرآن، تح محمد عبد القادر دار أبو سلامة، تونس، د.ط، 1986 .
- 38- جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، لبنان ، د.ط ، د. ت .
- 39- جلال الدين القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، تعليق محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الجيل ، بيروت ، ط3 ، 1985
- 40- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح، محمد بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ، د.ط، 1966.
- 41- حسن أيوب : مع الله في صفاته و أسمائه الحسنی ، دار الشهاب بآتة الجزائر د.ت، د.ط
- 42- حسن الزيات : دفاع عن البلاغة ، دار الرسالة ، مصر ، د.ط ، 1945.

- 43- حسين الصديق : فلسفة الجمال رسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط 1 ، 2003
- 44- زين الدين الرازي : مختار الصحاح ، تح مصطفى ديب البغا ، دار الهدى ، الجزائر ، د. ط ، 1990.
- 45- ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، تر: إحسان عباس دار الثقافة ، بيروت ط 1 .. 1958
- 46- سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، دار النهضة العربية بيروت ، ط 1 . سنة 1984.
- 47- سليمان عشارتي : الخطاب القرآني ، مقارنة توصيفيه لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 1 ، 1998 .
- 48- سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، ط 7 ، 1983 .
- 49- صالح بلعيد : نظرية النظم ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، د. ط ، 2002.
- 50- صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط 16، 1985 ..
- 51- صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988.
- 52- عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، دار الشروق ، بيروت ، ط 5 ، 1391 هـ .
- 53- عبد الحميد طهماز : من موضوعات سورا لقرآن الكريم ، دار القلم، دمشق، 1996، ط 1.
- 54- عبد الرحمان جلال الدين السيوطي : المزهرة في علوم اللغة، ضبط و تصحيح محمد جاد المولى و علي البجاوي ، دار - الجيل ، بيروت ، لبنان ، (د ت) (د ط) .
- 55- عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط 2 ، 1984.
- 56- عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سينا الخفاجي، دار الجيل ، بيروت ، ط 1، 1993.
- 57- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة، تح، محمد الفاضلي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت ط 1 ، 1989.

- 58- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، د. ط ، 1991 .
- 59- عبد القاهر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1982.
- 60- عبد الله ابن المعتز : البديع ،دار إحياء التراث العربي،بيروت،د.ط،د.ت .
- 61- عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار الفكر ، بيروت د.ت ، د.ط ،
- 62- عبد الله الغدامي : الخطيئة و التكفير ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة السعودية ، ط1، 1985 ،
- 63- عدنان بن دريل : اللغة والأسلوب ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ، د.ط ، 1980 .
- 64- عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر، ط 3 ، 1974 .
- 65- علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن : أسباب النزول ، تح الجميلي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، (د ط) .
- 66- علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن تح: محمد خلف الله ،محمد - 67- زغلول،دار المعارف ط3 1976 ، .
- 68- عمار الساسي : الإعجاز البياني في القرآن ،دار المعارف ، د.ط ، 2004، .
- 69- عمار حلاسه : الحديث في المقالة الأدبية وتحليل النصوص ، دار الحديث للكتاب ، الجزائر
- 70- فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث ،دراسة في تحليل الخطاب ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ،ط1، 2003 .
- 71- كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، السنة الجامعية : 1993 - 1994 .
- 72- مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط4 ، 1984.
- 73- مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط1 ، 1974 .
- 74- محمد إسماعيل إبراهيم : القرآن و إعجازه العلمي ، مصر ، دار الثقافة العربية مصر ، د.ط ، د.ت .

- 75- محمد إقبال عروي : اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، دار الأمان، الرباط، ط 1 ، 1996 .
- 76- محمد الحسناوي : الفاصلة القرآنية، دار الأصيل للطباعة والنشر، حلب، د.ط، د.ت.
- 77- محمد الغزالي : فقه السيرة ، تح ناصر الدين الألباني ، دمشق ، دار القلم ، ط 7 ، 1998 .
- 78- محمد بكر إسماعيل : دراسات في علوم القرآن ، دار المنار ، القاهرة ، ط 2 ، 1999 .
- 79- محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د ط ، 1975 .
- 80- محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله، مكتبة الفرابي، دمشق، ط 4، 1975.
- 81- محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 2004 .
- 82- محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ، دار القلم، الكويت، ط 4، 1977.
- 83- محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان ، القاهرة، ط 1، 1991.
- 84- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ط، 1973 .
- 85- محمد كامل أحمد جمعه : الأسلوب ، مكتبة القاهرة الحديثه ، ط 2 ، 1963 .
- 86- محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص ، دار التنوير ، بيروت ، ط 1 ، 1985 .
- 87- محمد ناصر الألباني : السلسلة الصحيحة ، تح أبو عبيدة مشهور بن الحسين ، مكتبة المعارف ، الرياض ط 1 .
- 88- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- 89- نور الدين السد : الأسلوبية و تحليل الخطاب ، دار هومه ، الجزائر ، د.ط، د ت .
- 90- نونكس : النظريات الجمالية - تح: محمد شفيق ، بيروت ، ط 1 ، 1985 .
- 91- نيكون أوفسيا : موجز تاريخ النظريات الجمالية ، ترجمة: باسم السقا ، دار الفرابي ، بيروت ، ط 2 ، 1979 .

- 92- هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، تر: محمد عروي ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1999 .
- 93- عبد الملك ابن هشام : السيرة النبوية،تح:مصطفى السقا،إبراهيم الأبياري،دار إحياء التراث العربي،بيروت، ط3، 1971.

المجلات:

- 1- مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر 1988 .
- 2- مجلة عالم الفكر : العدد 1 ، وزارة الإعلام ، الكويت ، سبتمبر ، 1998 .
- 3- مجلة فصول : المجلد 5 ، ع 1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، مصر، أكتوبر 1984 .

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Grimas (AJ) et courtés (j) ; sémiotique , dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed , Hachette , Paris , 1979.voir discours
- 2- Mohammed Arkoun ; lectures du coran, édition maison neuve , 1982, PARIS
- 3- Todorov Tzeventan , les catégories du récit littéraire inco-uniqtion 8, coll. Ed du seuil , Paris 1981

ملخص باللغة العربية

القرآن الكريم كتاب الله تعالى المعجزة الخالدة، جعله الله نورا وهداية للبشرية، و حين نتناول آياته تهتز نفوسنا ونحس بذوق متميز، وذلك وجه من وجوه الإعجاز، فهو ينمي فينا الإحساس الفطري بالجمال وحسن الخطاب، ناهيك عن روعة أساليبه، انه سحر البيان الرباني الذي تعجز العقول للوصول إلى منتهى غايات بلاغته وقوة خطابه، فهو بحر متجدد صالح لكل زمان ومكان، و هذه الدراسة التطبيقية لسورة النور محاولة لتلمس سر جماليات الخطاب القرآني إضافة إلى بيان سبيل القرآن في تشريعاته من خلال هذه السورة، وذلك ليعيش الإنسان - خليفة الله في الأرض - حياة متوازنة ويسعد دنيا وآخره.

كلمات مفتاحية:

مفهوم الجمال - خصائص الأسلوب - سورة النور خطابا جماليا.

Résumé en Français

Le coran est un message divin éternel destiné à l'humanité entier quels que soient l'époque ou le lieu. A la lecture des saintes écritures, on est pénétré au plus profond de l'âme et transporté par la magie du contenu. C'est un miracle divin qu'un esprit humain aurait été incapable d'imaginer. Cette étude appliqué de sourate En-Nur n'est essai de pénétrer le secret esthétique du discours coranique et de mettre en exergue la Magnificence du saint Coran pour que le genre humain vive heureux sur terre et mérite le Paradis Eternel.

Mots clés : le concept de la beauté-les caractéristiques du style- Sourat el Nur discours ascétique

Summary

The holy Quran, the book of Allah, the eternal miracle. God created it to guide and to lighten humanity. Our spirits shake and we feel a special taske when we deal with it. That is one aspects of its strength. It develops in us the instinctive feeling of beauty and the magic of its divine style and eloquences. That minds are inable to reach. This applied study is too show all that through the surah of DU-Nur which enables the human to act as Allah wants on earth in life and in the here after.

Key words : the concept of beauty -characteristics style- Sourat el Nur speech ascetical.

الفهرس

المقدمة

1	المدخل: مفهوم الجمال
2	1- ماهية الجمال بين الغرب و الشرق
8	2- فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية
11	3- التجربة الجمالية في الأدب
15	4- بين الجمال و الخطاب
24	5- الجمال و القرآن

الفصل الأول: الخصائص الفنية للأسلوب

29	مفهوم الأسلوب
29	لغة
31	اصطلاحا
31	مفهوم الأسلوب في التراث العربي
36	الأسلوب عند علماء الغرب
44	مفهوم الأسلوب في النقد العربي الحديث
52	خصائص الأسلوب القرآني

الفصل الثاني: سورة النور خطابا جماليا

75	1- المحور الأول: الترهيب بالعقاب
86	2- المحور الثاني: حادثة الإفك
103	3- المحور الثالث: أساليب الوقاية من الزنا
123	4- أثر الإيمان في النفس البشرية
151	5- أدب الاستئذان و مخالطة الأهل
166	6- أدب المؤمنين مع رسول الله ﷺ
175	الخاتمة

قائمة المصادر و المراجع.